@ketab_n
23.12.2015

بيتر هاندكه

رسالة قصيرة للوداع الطويل

ترجمة:
نيفين فائق

منشورات الجمل

رواية

بيتر هاندكه

رسالة قصيرة للوداع الطويل

ترجمة:
نيفين فائق

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

بيتر هاندكه: رسالة قصيرة للوداع الطويل

Twitter: @ketab_n

بيتر هاندكه: رسالة قصيرة للوداع الطويل، ترجمة: نيفين فائق
الطبعة الأولى ٢٠١٦

Peter Handke: Der kurze Brief zum langen Abschied
© Sukrkamp Verlag, Frankfurt am Main 1972

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© Al-Kamel Verlag 2016
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

«ذات مرة، إذ كانوا قد خرجوا ـ في صباح دافئ، ولكن غائم ـ من البوابة، قال إيفلاند إن هذا الجو قد يكون مناسباً للارتحال بعيداً ـ وقد بدا الجو بالفعل كأنما خُلِق للسفر، كما بدا أن السحب الكثيفة تتمدد على مقربة الأرض، وبدت الأشياء المحيطة على درجة متساوية من الدكنة، كأن التركيز كان لابد أن ينصب بالكامل فقط على الشارع، الذي يودّ المرء الارتحال عبره».

كارل فيليب موريتس، من رواية «أنطون رايزر»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

I

الرسالة القصيرة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شارع جيفرسون شارع هادئ في منطقة بروفيدنس، يمر عبر الحي التجاري وينتهي في جنوب المدينة ليصبح اسمه شارع نورويتش، حيث طريق الخروج إلى نيويورك. هنا وهناك يمتد شارع جيفرسون إلى ميادين صغيرة تصطف فيها أشجار البقس والقيقب، في أحد تلك الميادين ـ ميدان وايلاند ـ يوجد مبنى كبير على طراز المباني الريفية الإنجليزية، هو فندق وايلاند مانور. عندما وصلت إلى هناك في أبريل الماضي أخرج عامل الاستقبال ـ بالإضافة إلى المفتاح ـ رسالة وأعطانياهما كليهما. أمام المصعد الذي كان بابه مفتوحاً، وكان عامل المصعد في الانتظار، فتحت الظرف الذي ـ بالمناسبة ـ لم يكد يلصق. كانت الرسالة قصيرة وفيها: «أنا في نيويورك. أرجوك لا تبحث عني، لن يكون خيراً أن تجدني».

على ما أذكر كنت مصدوماً ومذعوراً كالوليد. كانت هناك جذوع أشجار متناثرة في كل مكان في سكون، تسطع عليها أشعة الشمس، بالخارج في الفناء، بعد أن كانت القاذفات قد حملتني إلى داخل المبنى. قطرات دماء كانت تلمع على سلالم المدخل الجانبي، حيث كانت الأرانب تُذبح في أيام نهاية الأسبوع. في أحد أوقات الغسق، التي كانت أسوأ من العادة إذ لم تتحول ليلاً بعد، تعثرت خطاي في ذراعين

Twitter: @ketab_n

متدليتين بشكل مضحك عبر الغابة المنطوية على نفسها التي كانت الغدائر تتلألأ من داخلها على حافة جذوع الأشجار. في صمت بائس من شدة الخجل، صرخت في النهاية من أعماق قلبي ـ حين لم أعد أتحمل أن أخجل من صدمتي ـ داخل الغابة على إثر شخص كنت أحبه، ذهب في الصباح إلى داخل الغابة ولم يكن قد خرج منها بعد. مرة أخرى كان ريش الدجاج الهارب ـ في الفناء، أيضاً عالقاً على أسوار المبنى، مبعثراً ـ ذلك الرقيق تحت ضوء شعاع الشمس.

دخلت المصعد، وفي تلك اللحظة حين قال الزنجي العجوز إن عليّ أن أنتبه لخطوتي، تعثرت على أرض كبينة المصعد المرتفعة بعض الشيء. أغلق الزنجي باب المصعد بيده وجر سياجاً حديدياً أمامه؛ ثم حرك المصعد بواسطة رافعة.

بجوار مصعد النزلاء لابد أن يكون هناك مصعد لنقل الأمتعة، لأنه أثناء صعودنا كان يصاحبنا صوت صلصلة كأنه صوت فناجين مرصوصة فوق بعضها، استمر طوال الرحلة إلى أعلى. نظرت من فوق الرسالة ورمقت عامل المصعد الذي وقف مطأطئاً رأسه في الركن المظلم عند الرافعة دون أن ينظر إليّ. لم يكد يظهر منه سوى قميص أبيض يلمع من خلف الزي الكحلي الداكن... فجأة ـ كما يحدث لي مراراً عندما أكون مع أشخاص آخرين في غرفة واحدة ويمر وقت دون أن يتحدث أحد ـ كنت متأكداً أن الزنجي الواقف أمامي سيجنُّ جنونه وأنه سوف ينقض عليّ في اللحظة المقبلة. سحبت الجريدة من المعطف الذي كنت قد اشتريته في الصباح قبل السفر من بوسطن، وحاولت ـ من خلال الإشارة إلى العنوان الرئيسي ـ أن أوضح لعامل المصعد أنه بسبب إعادة تسعير بعض العملات الأوروبية حالياً في مقابل الدولار لم يبق لي سوى أن

Twitter: @ketab_n

أنفق كل النقود التي أبدلتها من أجل هذه الرحلة، لأنني سوف أحصل على مقابل أقل بكثير إذا أعدت تبديلها ثانية في أوروبا. أجاب العامل بأن أشار إلى كومة الصحف تحت أريكة المصعد، والتي وضِعت عليها بعض النقود المعدنية التي كان قد حصل عليها مقابل ما باعه من الجرائد، ثم أومأ إليّ: نسخ جريدة «بروفيدنس تريبيون» تحت الأريكة حملت العنوان الرئيسي نفسه مثل نسختي من جريدة «بوسطن جلوب».

بعد أن تجاوب عامل المصعد معي رحت أبحث في جيبي بأريحية عن ورقة نقود يمكنني أن أعطيه إياها، قبيل أن يكون قد وضع حقيبتي في الغرفة. لكن في الغرفة أمسكت بورقة من فئة العشرة دولارات، إنما عن غير قصد. وضعتها في اليد الأخرى وبحثت ـ دون أن أخرج حافظة النقود من جيبي ـ عن ورقة من فئة دولار واحد. تحسست ورقة نقدية وناولتها لعامل المصعد من جيبي مباشرة. كانت ورقة من فئة الخمسة دولارات، وقد أحكم الزنجي قبضته عليها فوراً. «مرة أخرى، لم يمض عليّ وقت كافٍ هنا» قلت ذلك بصوت عالٍ حين صرت وحدي. دخلت مرتدياً المعطف إلى الحمام ونظرت إلى المرآة أكثر مما نظرت لنفسي. ساعتها رأيت بعض الشعرات على ظهر المعطف، وقلت: «لابد أن تلك الشعرات سقطت مني في ذلك الباص». جلست متعجباً على حافة حوض الاستحمام، لأنني ـ ولأول مرة منذ أن كنت طفلاً ـ كنت قد بدأت أكلم نفسي ثانية. لكن إن كان الطفل قد تحدث بصوت عالٍ لكي يبتدع لنفسه مجتمعاً، فإنني لم أستطع ـ هنا حيث أردت مبدئياً أن أشاهد بدلاً من أن أشارك ـ أن أفسر لنفسي حديثي مع الذات. كان علي أن أقهقه، وطرقت بقبضة يدي على رأسي كالمغرور حتى كدت أنزلق داخل الحوض.

Twitter: @ketab_n

كانت هناك أشرطة عريضة فاتحة ملصقة على أرضية الحوض بالطول والعرض، تشبه لاصقات الأوراق، يفترض أن تمنع الانزلاق. نتج توافق ما عن هذه اللحظة ـ بين تلك الأشرطة اللاصقة والأفكار حول الحديث مع الذات ـ لم يكن مفهوماً أبداً، بحيث توقفت عن القهقهة وتراجعت إلى الغرفة.

أمام النافذة التي كانت تطل على مساحة أرض عليها موقف سيارات وبعض البنايات الصغيرة وقفت أشجار البتولا العالية. كانت الأوراق على الأشجار لاتزال صغيرة، وكانت أشعة الشمس تتخللها. فتحت النافذة، سحبت مقعداً ذا متكأ أمامها وجلست؛ أما القدمان فوضعتهما على المدفأة المركزية التي كانت تحتفظ ببعض الدفء منذ الصباح. كان للمقعد عجل صغير، فرحت أتزحزح به يميناً ويساراً وأنظر إلى الظرف. كان ظرفاً خاصّاً بأحد الفنادق، لونه أزرق فاتح؛ مطبوع على خلفيته: «ديلمونيكو، بارك أفينيو في شارع ٥٩، نيويورك». لكن الختم على الواجهة كان كالتالي: «فيلاديلفيا، ب أ»؛ كانت الرسالة قد تم تسليمها هناك قبل خمسة أيام. «بعد الظهر»، قلت ذلك بصوت عالٍ حين وقع نظري على حرفي .p.m المكتوبين على الختم.

«من أين أتت بالنقود من أجل الرحلة؟» ـ سألت ـ «لابد أن يكون معها الكثير من المال، فإن الغرفة هناك يتعدى ثمنها بالتأكيد ثلاثين دولاراً». كنت أعرف فندق ديلمونيكو لاسيما من الأفلام الغنائية: الريفيون دخلوا راقصين من الشارع وتناولوا الطعام بشراهة في الحجرات المغلقة. قلت: «من ناحية أخرى لم يكن لديها حس للنقود، على الأقل

Twitter: @ketab_n

ليس الحس المعتاد. فهي لم تتخلص أبداً من المتعة الطفولية في تبديل الأشياء، لذلك بقيت النقود بالنسبة لها بالفعل مجرد أداة للتبديل. كانت تفرح بكل ما يمكن تبديده، أو على الأقل تبديله بسرعة، أما النقود فيحق عليها كلا الأمرين، التبديد والتبديل في آن». نظرت إلى أبعد مدى ممكن، تفحصت كنيسة كانت قد توارت خلف دخان مصنع للأقطان، حسب خريطة المدينة لابد أنها الكنيسة المعمدانية. قلت: «استغرقت الرسالة وقتاً طويلاً جداً في الطريق. فهل تكون قد ماتت في تلك الأثناء». ذات مرة رحت أبحث عن أمي قبيل المساء على مخروط أحجار مرتفع. كانت تصاب بين الحين والآخر بالاكتئاب، وقد ظننت أنها ـ إن لم تكن تدحرجت من عليه ـ ربما تركت نفسها تسقط ببساطة. وقفت فوق الحجارة ونظرت إلى أسفل، حيث بدأ الظلام يخيم. لم أر شيئاً لافتاً، لكن بعض السيدات ـ اللاتي وقفن معاً كالمذعورات، وقد أنزلن حقائب المشتريات، وانضم إليهن شخص آخر ـ لفتن نظري إلى أنني أبحث مرة أخرى على نتوء الحجارة عن رقع ثياب. لم يعد بوسعي أن أفتح فمي، كان الهواء يؤلمني؛ كل شيء فيّ كان قد انكمش إلى الداخل من شدة الخوف. وقتئذ أضيئت أنوار المكان بالأسفل، كما مرت بالفعل بعض السيارات مضيئةً كشافاتها. بالأعلى على الصخور كان الهدوء مخيماً، كانت الصراصير وحدها لا تزال تنقنق. أخذت أصير أكثر ثقلاً. أضاءت الأنوار في محطة البنزين أيضاً عند مدخل المنطقة. لكن الظلام لم يكن قد حل بعد! سار الناس على الطريق بسرعة أكبر. بينما كنت أروح وأجيء على قمة الصخر بخطى صغيرة، أخذت أراقب كيف أخذ أحدهم يتحزك ببطء، لذلك عرفت أنها أمي، إذ كانت في

Twitter: @ketab_n

الآونة الأخيرة تفعل كل شيء ببطء شديد. لم تعد تسير على خط مستقيم في الشارع كالمعتاد، بل كانت تحيد عبر خط قُطري طويل.

تدحرجت بالمقعد إلى المنضدة الصغيرة بجانب السرير، وطلبت توصيلي هاتفياً بفندق ديلمونيكو في نيويورك. فقط حين ذكرت اسم عائلة يوديت قبل الزواج تم العثور عليها في القائمة. كانت قد سافرت قبل خمسة أيام، دون أن تترك عنواناً للمراسلات؛ وبالمناسبة كانت قد تركت في غرفتها كاميرا، فسألوني: هل يمكن إرسالها إلى عنوانها الأوروبي؟ أجبت بأنني سآتي غداً إلى نيويورك لأحضرها بنفسي. «نعم» ـ كررت الإجابة بعد أن أنهيت المكالمة ـ «أنا زوجها». لكي لا يكون عليّ أن أقهقه ثانية، تدحرجت مرة أخرى عائداً إلى النافذة.

في جلستي خلعت المعطف وقلبت في الشيكات السياحية التي كنت قد استبدلتها ببعض النقود في النمسا بسبب كثرة الحديث عن السرقات. رغم أن موظف البنك كان قد وعدني أن يعيد الشيكات بسعر العملة نفسه، إلا أن تعويم سعر الصرف الآن لابد أنه قد حرره من وعده. تساءلت: «كيف يمكنني أن أنفق الثلاثة آلاف دولار كاملة هنا؟» فجأة قررت أن أعيش كسولاً متناسياً ذاتي بالأموال التي عنّ لي من باب النزوة أن أبدّل منها الكثير. اتصلت بفندق ديلمونيكو مرة أخرى وأردت حجز غرفة لليوم التالي. حين لم تكن هناك غرفة خالية طلبت من موظف الاستقبال ـ حسبما خطر لي ـ أن يدبّر لي غرفة في فندق والدورف أستوريا: لكنني راجعت نفسي وطلبت ـ بعد التفكير في ف. سكوت فيتسجيرالد، الذي كان يذهب إلى هناك كثيراً وكنت لتوي أقرأ كتبه ـ غرفة في فندق ألغونكوين في شارع ٤٤. وقد كانت لديهم غرفة خالية.

Twitter: @ketab_n

ثم بينما تركت الماء يهدر في حوض الاستحمام، خطر لي أن تكون يوديت قد أخذت النقود المتبقية في حسابي المصرفي. «كان عليّ ألا أعطيها توكيلاً» ـ قلت دون أن يضيف ذلك إليّ شيئاً، بل إن الأمر قد أضحكني، كما أثار فضولي، لمعرفة كيف يمكن أن تمضي الأمور؟ لكن ذلك استغرق لحظة فقط، لأنني حين رأيتها آخر مرة، ذات نهار مستلقية على سريرها، كان الحديث معها مستحيلاً، وكانت تنظر إليّ بطريقة جعلتني أتوقف عن السير باتجاهها لأنه لم يعد بوسعي أن أساعدها.

جلست في حوض الاستحمام وقرأت: «جاتسبي العظيم» ـ للروائي «ف. سكوت فيتسجيرالد» ـ حتى النهاية. كانت قصة غرامية، إذ اشترى رجل بيتاً على الخليج، فقط لكي يرى الأنوار تضاء كل مساء حيث تعيش السيدة التي يحبها مع رجل آخر في بيت آخر على الناحية الأخرى من الخليج. بقدر ما كان جاتسبي العظيم مأخوذاً بمشاعره، بقدر ما كان مع ذلك خجولاً؛ بينما كانت السيدة، كلما صار حبها أقل عفة وأكثر إلحاحاً، تتصرف بجبن أكثر.

«نعم» ـ قلت ـ «إنني كنت من ناحية خجولاً، ومن ناحية أخرى ـ فيما يخص مشاعري تجاه يوديت ـ جباناً». لقد كنت دائماً أتحرج من أن أتخطى ذاتي إليها. يتضح لي أكثر فأكثر، أن طبيعتي الخجولة ـ التي كنت دائماً أعتمد عليها، لظني أنها لن تسمح لي بتقبل كل شيء ـ لم تكن سوى نوع من الجبن حين تتحول إلى معيار لمدى حبي. لقد كان جاتسبي العظيم خجولاً فقط فيما يتعلق بأشكال تعامله مع حبه، الذي كان مأخوذاً به. كان مهذباً. أود أن أصير هكذا مهذباً وغير عابئ مثله، إن لم يكن أوان ذلك قد فات».

Twitter: @ketab_n

تركت المياه تتسرب، بينما ظللت جالساً. سالت المياه ببطء شديد، وحين جلست متكئاً إلى الوراء مغمض العينين، خُيّل لي أنني أنا نفسي أيضاً ـ مع التسرب المتمهل للماء ـ أتضاءل رويداً رويداً، ثم أتحلل في النهاية. فقط حين شعرت بالبرودة لأنني كنت جالساً في الحوض من دون مياه، أحسست بنفسي مجدداً وقمت واقفاً. جففت نفسي ونظرت إلى الأسفل إلى جسدي. تحسست عضوي، بالمنشفة أولاً، ثم بيدي العارية، وبدأت أثناء وقوفي هكذا بالاستمناء. استغرق الأمر وقتاً طويلاً جداً، كنت أفتح عيني أحياناً وأنظر إلى نافذة الحمام ذات الزجاج الغائم، والتي كانت ظلال أوراق شجر البتولا تتحرك عليها إلى أعلى وإلى أسفل. حين خرجت الحيوانات المنوية أخيراً انحنيت على ركبتي. ثم اغتسلت، وغسلت الحوض، وارتديت ملابسي.

استلقيت لبعض الوقت على السرير دون أن أتمكن من تصوّر أي شيء. لمدة لحظة كان ذلك مؤلماً، ثم وجدته مريحاً. لم أشعر بالنعاس، لكنني كنت خليّ البال. على مسافة بعيدة نوعاً من النافذة سمعت بين الحين والآخر ضوضاء خفيضة، تشبه الفرقعة والتحطم معاً، تتبعها نداءات الطلبة الذين يلعبون كرة «البيس بول» في ملعب جامعة براون.

هببت واقفاً، وغسلت بعض الجوارب بصابون الفندق، ونزلت سيراً على الأقدام إلى الملعب بالأسفل. كان عامل المصعد جالساً على مقعد صغير بجوار المصعد، سانداً رأسه على يديه. خطوت خارج المبني، كان المساء قد أوشك على الحلول، وكان سائقو التاكسي الواقفون

Twitter: @ketab_n

بالخارج في الميدان يتبادلون الحديث، ينادون عليّ، وأنا أكمل سيري مروراً بهم. حين كنت قد ابتعدت فعلاً، لاحظت أن عدم اكتراثي بالرد عليهم، ولا حتى بإيماءة واحدة، قد أشعرني بالمتعة فيما بعد.

«الآن صار لي يومان في أمريكا». قلت ذلك ونزلت من على الرصيف إلى الشارع ثم صعدت ثانية إلى الرصيف: «هل تغيرت بالفعل؟» دون رغبة مني نظرت أثناء السير إلى الوراء ثم وجهت نظري إلى الأمام وبلا صبر نظرت إلى ساعة اليد. تماماً كما يحدث لي أحياناً حين يثير فيّ نصٌّ ما الرغبة في معايشته بعد قراءته مباشرة، ناداني جاتسبي العظيم الآن، لكي أغيّر من نفسي فوراً. صارت الرغبة في أن أصبح غير ما كنت عليه ملحةً مثل الغريزة. فكرت كيف يكون بوسعي أن أعبر عن المشاعر التي كان جاتسبي العظيم قد أتاحها لي، وأن أستخدمها أيضاً في محيطي. كانت تلك مشاعر دفء وإيثار، مشاعر صفاء وسعادة، وقد أحسست أنه كان عليهاأن تنتزع الخوف والفزع من طبيعتي إلى الأبد. كانت مشاعر مفيدة، لن أشعر بالجمود بعد اليوم من شدة الخوف! لكن أين ذلك المحيط الذي يمكنني أن أُظهر فيه أخيراً أن بإمكاني أن أتغير؟ كنت قد نحيت المحيط القديم جانباً في بادئ الأمر. أما أن أكون هنا ـ في المحيط الغريب ـ أكثر من مجرد شخص يستخدم المنشآت العامة، ويمشي في الشوارع، ويستقل الحافلات، ويسكن الفنادق، ويجلس على المقاعد المرتفعة في الحانات، فهذا ما لم أكن قادراً عليه بعد. كما أنني لم أكن أرغب في أن أكون أكثر من ذلك، لأن الأمر كان ليستلزم أن أتصنع ذلك. كنت قد ظننت أن الاضطرار للتصنُّع في كل مكان ـ من أجل استحقاق نظرة ثانية ـ تم إنجازه بالفعل. ومع ذلك: بقدر ما شعرت بالرغبة في أن أبدي اهتماماً وانفتاحاً تجاه ذلك

Twitter: @ketab_n

المحيط، إلا أنني سرعان ما صرت حينئذٍ أتحاشى كل من سار باتجاهي على الرصيف، وأحوّل نظري مستاءً إلى وجه آخر، تحديداً بملامح القرف تلك التي لم تكن لي أنا نفسي قبل ذلك. رغم أنني ذات مرة دون قصد بينما كنت أستكمل سيري في شارع جيفرسون، فكرت في يوديت، التي أزحتها ثانية بأن زفرت نفساً، ومشيت بضع خطوات، فتبقى فراغ في وعيي. استشطت غضباً، وكاد غضبي يتحول إلى رغبة في القتل لأنني لم أستطع توجيهه لا إلى نفسي ولا إلى أي شيء آخر.

مررت عبر بعض الشوارع الجانبية. كانت عواميد النور مضاءة بالفعل، وبدت السماء شديدة الزرقة. لمعت الحشائش تحت الأشجار بفعل انعكاس أشعة الغروب عليها. بين الشجيرات في الحدائق الأمامية تساقطت الأزهار على الأرض. على الجهة الأخرى من الشارع أُغلِق باب سيارة أمريكية فارهة. عدت إلى شارع جيفرسون وشربت بيرة الزنجبيل في مطعم للوجبات الخفيفة، حيث لا توجد مشروبات كحولية. انتظرت حتى ذابت قطعتا ثلج في الكوب، ثم شربت ما تبقى من الماء؛ كان طعمه مرّاً، لكن كانت له لذته، بعد الزنجبيل المحلى. على الحائط بجوار كل طاولة كان هناك صندوق صغير، بحيث يتمكن كل شخص من الدفع بالاسطوانات الموجودة في صندوق الاسطوانات الموسيقية، من دون حاجة للوقوف. رميت قطعة نقود معدنية من فئة الربع دولار، واخترت «Sitting On The Dock Of The Bay» لـ«أوتيس ريدينج». حينئذٍ فكرت في جاتسبي العظيم وصرت أكثر ثقة بالنفس من أي وقت مضى: حتى فقدت الإحساس بنفسي أصلاً. بدا لي أن

Twitter: @ketab_n

باستطاعتي فعل أشياء كثيرة بطريقة مغايرة. قد يستحيل التعرف عليّ. ظلبت شطيرة هامبورجر وكوباً من الكوكا كولا. شعرت بالإرهاق وتثاءبت. ثم نشأت ـ أثناء التثاؤب ـ مساحة من الفراغ بداخلي، لم تلبث أن امتلأت بصورة جذوع أشجار متداخلة حالكة السواد، وكأنما باغتتني ـ في لحظة رِدّة ـ فكرة أن تكون يوديت قد ماتت. أخذت صورة جذوع الأشجار المتداخلة تتلاشى، بينما رحت أنا أحملق في ظلمة باب المطعم المتزايدة، وأخذَت صدمتي تقوى، إذ صرت مرة أخرى أتحول فجأة إلى شيء. لم يعد بوسعي أن آكل، كل ما استطعته هو فقط الاستمرار في ابتلاع رشفات صغيرة.

هذه الصدمة والرغبة في أن أتغير بسرعة، وأن أتحرر أخيراً، جعلت صبري ينفد. شعرت أن الوقت يمضي ببطء شديد، بحيث رحت أنظر مجدداً إلى ساعة اليد. حضر ذلك الإحساس الهيستيري المعروف بالزمن. قبل أعوام كنت قد رأيت ذات مرة امرأة بدينة تسبح في البحر وظللت أحملق فيها كل عشر دقائق، لأنني كنت أعتقد بكل جدية أنها صارت في تلك الأثناء أقلّ بدانة. والآن ـ في مطعم الوجبات الخفيفة ـ ظللت أعاود النظر إلى رجل، له ندب متقشر على الجبهة، لأنني أردت أن أعرف، إن كان الندب قد التأم أخيراً.

خطر لي إن يوديت لم يكن لديها إحساس بالوقت. مع أنها لم تكن تنسى المواعيد، لكنها كانت تأتي إليها جميعها متأخرة، مثل النساء في النكات. نادراً ما كانت تستطيع تحديد اليوم الحالي. كانت دائماً تصاب بالهلع حين يذكر لها أحد الوقت، بينما كنت أنا على العكس أذهب للهاتف كل ساعة، لكي أسمع بيان الوقت. كانت تصيح في كل مرة:

Twitter: @ketab_n

«ياه، أتأخر الوقت لهذه الدرجة؟». ولا مرة قالت: «ياه، الوقت مبكر لهذه الدرجة؟» لم تمتلك أبداً مهارة أن تجعل هناك وقت في أي مرة لأي شيء. كنت أقول لها: «ربما يرجع ذلك إلي أنك كنت منذ الطفولة كثيرة الانتقال من مسكن لآخر، وأنك عشت في مناطق كثيرة جداً. فأنت تعرفين دائماً أين كنت في السابق، لكنك لا تعرفين أبداً متى كنت أين. كذلك فإن إحساسك بالمكان أفضل من إحساسي بكثير، فأنا دائماً ما أضل الطريق. أو ربما يرجع ذلك إلى أنك بدأت مبكراً جداً بالعمل في وظائف بمواعيد ثابتة. لكن الحقيقة أنني متأكد أنك لا تحسين بالوقت لأنك لا تحسين بالآخرين». كانت تجيب: «كلا، ليس هذا صحيحاً، بل إنني لا أحس بنفسي فحسب». فأقول لها: «كذلك ليس لديك إحساس بالمال»، فترد: «كلا، بل ليس لدي إحساس بالأرقام». فأكمل حديثي: «حتى إحساسك بالمكان يصيب المرء بالدوار. حين تذهبين باتجاه أحد المباني، تقولين إنك *نازلة* إليه. وعندما نكون قد خرجنا بالفعل منذ فترة أمام المنزل، تكون السيارة لا تزال واقفة *بالخارج*؛ وحين تقودين السيارة *نازلة*باتجاه مدينة ما، تكونين *صاعدة* إليها، فقط لأن الشارع ينتهي باتجاه الشَّمال».

خطر لي الآن أن إحساسي المبالغ فيه بالوقت يعيقني على الجانب الآخر، وربما يعني ذلك: إن إحساسي المبالغ فيه بذاتي، يعيقني عن بلوغ التحرر والإيثار اللذين أود بلوغهما.

هببت واقفاً، إلى هذا الحد كانت الذكرى مضحكة. أما التوجه ببساطة إلى الخزينة، متململاً، ومعي الفاتورة، ووضع الورقة النقدية من دون كلمة واحدة، فإن هذا ما كان يناسبني تماماً في تلك اللحظة. كما

Twitter: @ketab_n

أسعدني أيضاً كوني لم أكن بحاجة لتغيير سلوكي. شعور قوي ـ صار مثيراً للسخرية ـ بالاشمئزاز من كل المصطلحات والتعريفات والمفاهيم المجردة التي كنت أفكر بها في تلك اللحظة، جعلني أتسمر في مكاني قليلاً أثناء خروجي. حاولت أن أتجشأ، وساعدتني الكوكا كولا. جاء باتجاهي طالب بشعر قصير، ممتلئ الوجنتين، بسروال قصير، وفخذين سمينتين، وحذاء رياضة، فنظرت له مرتاعاً، مذهولاً من فكرة أنه قد يجرؤ أحد رغم ذلك في لحظة ما، على تعميم ذلك التكوين الجسدي المتفرد، أو تصنيفه لجعله ممثلاً عن شيء آخر. لا إراديّاً قلت: «مرحباً!» ورمقته بلا حرج، فرد هو أيضاً التحية. شكلت نظرته صورة كانت قد صارت حية فجأة، وكنت قد عرفت حينئذٍ، لماذا أصبحت منذ فترة لا أرغب في قراءة شيء سوى عن قصص أشخاص فرادى. تحديداً تلك السيدة الجالسة عند الخزينة في مطعم الوجبات الخفيفة! كان شعرها مشقّراً، الجذور السوداء تطل من بين خصلاته، كانت قد وضعت بجوارها راية أمريكية صغيرة. وماذا أيضاً؟ لا شيء غير ذلك. بدأ وجهها يلمع في الذاكرة وصار جامداً كصورة أحد القديسين. التفت ثانية باحثاً عن الطالب البدين: على ظهر قميصه كانت صورة «آل ويلسون»، مغني فريق «Canned Heat». كان ويلسون فتى قصيراً وبديناً. كانت في وجهه بثور، تظهر بوضوح حتى في التلفاز، وكان يضع النظارات. قبل بضعة شهور كان قد عثر عليه أمام منزله في لوريل كانيون بالقرب من لوس أنجلوس ميتا في حقيبة نومه. كان قد غنى بصوت رفيع رقيق«On the Road Again» و«Going Up the Country». على عكس ماجرى مع جيمي هيندريكس أو جانيس جوبلين ـ اللذين فقدت اهتمامي بهما مثلما فقدت اهتمامي بكل موسيقى الروك في العموم ـ كان موته لا

Twitter: @ketab_n

يزال يؤلمني، كما كانت حياته القصيرة التي كنت أظن أنني فهمتها، تؤلمني في أحيان كثيرة خلال أحلام اليقظة المتدافعة. فخطرت لي أثناء سيري باتجاه الفندق جملتان طالما كنت أبحث عنهما مجتمعتين.

- "I say goodbye to Colorado
it's so nice to walk in California".

في الفندق كانت هناك حانة، في القبو بجوار صالون التجميل، حيث جلست على طاولة في الظلام آكل رقائق البطاطس؛ شربت معها التكيلا، وأخذت صاحبة الحانة تأتي إليّ بين الحين والآخر بكيس من رقائق البطاطس الطازجة، تفرغه في صحني. على الطاولة المجاورة جلس رجلان رحت أتنصت عليهما، حتى علمت أنهما تاجران من مدينة «فال ريفر» المجاورة. جلست صاحبة الحانة إليهما، وأخذت أنا أنظر إلى ثلاثتهم باهتمام، لكن دون فضول. كانت الطاولة صغيرة بعض الشيء، بالكاد تكفيهم جميعاً معاً، كانوا يلعبون ـ من بين كؤوس الويسكي، التي ربما قصدت صاحبة الحانة ألا ترفعها ـ إحدى ألعاب رمي الزهر، حيث يتم رصّ الزهر، كما يتم رص الأوراق في لعبة البوكر. فيما عدا ذلك كان الهدوء يخيم على الحانة، مروحة صغيرة فقط كانت تصدر بعض أزيز خافت، كما سُمع نقرٌ كلما ارتطم الزهر بالكؤوس؛ بين الحين والآخر كان صوت الاسطوانة الموسيقية ـ التي أعيد تشغيلها للتو مرة أخرى ـ يرتعش خلف البار. أدركت كيف أنني بدأت حينئذٍ فقط، أندمج في هذا المحيط من دون جهد.

لوحت لي صاحبة الحانة كي أجلس معهم على الطاولة الأخرى، لكنني لم أذهب إليهم سوى حين جذب أحد التاجرين مقعداً خالياً، وأشار إليّ بذلك. في البداية جلست أرقبهم فقط، ثم لعبت معهم مرة،

Twitter: @ketab_n

إلا أنني أردت أن أتوقف، لأن زهرة أخذت تسقط مني من على الطاولة. طلبت الخمر المكسيكي مرة أخرى، فأحضرت صاحبة الحانة الزجاجة من على البار وأدارت اسطوانة الموسيقى. حين جاءت إلى الطاولة نثرت بعض الملح على ظهر يدها، ولعقته، فسقطت بعض ذرات الملح على الطاولة، ثم شربت من الكأس بعدي. كانت على الزجاجة صورة صبّار الأغاف في قلب صحراء، رمالها فاقعة الصفار؛ جاءت موسيقى الويسترن من الاسطوانة الموسيقية: جوقة رجال كانت تغني أغنية سلاح الفرسان الأمريكي، تلتها لزمة موسيقية دون غناء، تراجعت معها آلات الترومبيت تدريجياً، حتى لم تُسمع في النهاية سوى آلة الهارمونيكا، تعزف بصوت خفيض. حكت صاحبة الحانة إن ابنها كان يخدم في الجيش، فقلت لها إني أريد رمي الزهر ثانيةً.

حدث لي شيء غريب عندما رميت الزهر: كنت حينئذٍ بحاجة إلى رقم معين، وحين قلبت الكوب، سكن الزهر على الفور، ماعدا زهرة واحدة؛ وبينما راحت تلك الزهرة تتدحرج بين الكؤوس، رأيت عليها الرقم الذي كنت أحتاجه يومض لوهلة ثم يختفي، حتى ثبُتت الزهرة على الرقم الخاطئ. لكن هذا الوميض الخاطف كان من القوة بحيث أدركته، وكأن الرقم جاء بالفعل، وإنما ليس الآن بل **في زمن آخر**.

لم يكن ذلك الزمن الآخر هو المستقبل أو الماضي، وإنما كان زمناً آخر بحد ذاته، مختلفاً من حيث طبيعته عن ذلك الذي كنت أعيش بداخله من قبل، وذلك الذي كنت أفكر وأتذكر فيه. كان شعوراً ضاغطاً **بزمن مختلف**، حيث لابد أن تكون الأماكن مختلفة أيضاً عن أي مكان آني، وأن يكون لكل شيء فيه معنى مختلف عن المعاني التي يعرفها

Twitter: @ketab_n

وعيي الآن، وحيث تختلف المشاعر أيضاً بعض الشيء عما كانت عليه في ذلك الحين، وحيث يكون حال المرء نفسه حينئذٍ، يشبه حال الأرض حينذاك، عندما سقطت قطرة ماء لأول مرة بعد آلاف السنين من هطول المطر، دون أن تعود تتبخر على الفور. من ناحية أخرى كان ذلك الشعور ـ رغم سرعة انقضائه ـ بالفعل قاطعاً ومؤلماً، حتى أن تأثيره امتد إلى نظرة السيدة صاحبة الحانة، تلك النظرة الخاطفة غير المكترثة، تلك التي أدركتها على الفور، ليس كغمزة ولا كحملقة، وإنما كنظرة بعيدة إلى أقصى حد، موقظة إلى أقصى حد، وفي الوقت نفسه قاتلة إلى أقصى حد، نظرة **امرأة أخرى في زمن آخر**، تكاد تمزق الشبكية، وتتوق إلى صرخة خافتة. تلك هي حياتي حتى الآن، ولكن لا يمكن أن يكون ذلك كل شيء! نظرت إلى الساعة، دفعت الحساب وصعدت إلى غرفتي.

نمت نوماً عميقاً بلا أحلام، لكنني رغم ذلك كنت أشعر طوال الليل بسعادة تملأني بالأمل، وتسري في أنحاء جسدي. لم يتلاشَ هذا الشعور سوى قرب الصباح، بدأت أحلم، واستيقظت منزعجاً. كانت الجوارب قد تدلت من على جهاز التدفئة المركزية، وكان الستار مفتوحاً، غير منتظمة ثناياه. كانت مشاهد من استيطان الأمريكتين مطبوعةً عليه: كان السير والتر رالي يتأرجح مدخناً السيجار في مستعمرته فيرجينيا؛ والمهاجرون الأوائل متزاحمين على متن سفينة «ماي فلاور»، إذ رست في ماساشوسيتس؛ وجورج واشنطن منصتاً إلى بنيامين فرانكلين يقرأ عليه دستور الولايات المتحدة؛ وقد أطلق القبطانان لويس وكلارك الرصاص على الهنود الحمر ذوي الأقدام السود، على الطريق من ميسوري غرباً حتى مصب نهر كولوبيا في المحيط الهادئ،

Twitter: @ketab_n

(كان أحد الهنود الحمر ـ في الصورة على مسافة بعيدة فوق إحدى الهضاب ـ بالكاد قد رفع ذراعه في مواجهة ماسورة البندقية)؛ وبجوار ساحة معركة أبّوماتوكس مدّ أبراهام لينكولن يده لأحد الزنوج، شاداً قامته إلى الوراء.

أزحت الستار، لكنني لم أنظر إلى الخارج. دخلت الشمس وأشرقت على أرضية الغرفة، ودفّأت قدميّ العاريتين. قرأت في إنجيل جمعية الأصدقاء الدينية «الكويكرز» الذي كان على المنضدة المجاورة. لم أبحث عن موضع قصة يوديت وهولوفرينس، إلا أنني تذكرت على الفور حكاية قطعها رأسه أثناء نومه. قلت: «أما أنا فكانت فقط تدوس على قدميّ، أو تتعثر فيهما». في العموم كانت دائماً تتعثر في شيء ما. كانت تمشي برشاقة وخفة، ومع ذلك كانت لتتعثر دائماً في شخص ما. كانت لتثب، وتتمايل باتجاهه، ثم لا تلبث تتعثر خطاها. تكمل الوثب، لتصطدم بالشخص الآتي باتجاهها، ثم تنزلق بعدها بقليل، فتخز نفسها بإبر الحياكة التي كانت دائماً بحوزتها، حتى وإن لم تكن تكاد تكمل حياكة أي شيء وتضطر لفك خيوط الصوف ثانيةً في كل مرة. استطردت في حديثي في الحمّام أثناء حلاقة ذقني، وفي الغرفة أثناء ارتداء ملابسي وتحضير متاعي: «مع ذلك فهي شخص عملي، كان باستطاعتها دق المسامير من دون أن تثني واحداً منها، وأن تفرش السجاجيد، وأن تجلد الجدران بورق الحائط، وأن تحيك الملابس، وأن تنجّر الآرائك الخشبية، أن تعيد دق أية انبعاجات في جسم السيارة، إلا أنها كانت على الدوام تنزلق أثناء ذلك، وتتعثر، وتدوس أشياءً أخرى، حتى أفقد أنا القدرة على الاستمرار في المشاهدة. هذا فضلاً عن إيماءاتها! ذات مرة دخلت إلى الغرفة، وأرادت أن يتم إيقاف جهاز تشغيل الاسطوانات

Twitter: @ketab_n

الموسيقية: من أجل ذلك وقفت متسمرة على الباب، وهزت رأسها فقط باتجاه الجهاز. تارة أخرى دق جرس الباب: كانت أسرع مني في التوجه إليه، ورأت أن خطاباً كان موضوعاً هناك على البساط. واربَت الباب مرة أخرى، حتى وصلت إليها، ففتحته لتتركتني أنا أنجني لإحضاره. لم تفكر في شيء إبان ذلك، لكن يدي ذلّت حينئذ. صفعتها على وجهها. لحسن الحظ لم أكن بالدهاء الكافي، فلم أحسن التصويب، لذا لم نلبث أن عدنا تصالحنا بعدها بفترة قصيرة».

دفعت الحساب بالأسفل باستخدام شيكاتي السياحية، واستقليت إحدى سيارات التاكسي ـ التي لم يكن بعد لونها أصفر هنا في بروفيدنس، وإنما كان أسود مثل سيارات التاكسي في إنجلترا ـ واتجهت بها إلى محطة القطارات، حيث تنطلق باصات شركة جرايهاوند.

خطر لي أنه ـ خلال الرحلة عبر إنجلترا الجديدة ـ كان لدي الوقت لكي... ماذا؟ لم ألبث أن فقدت الرغبة في النظر إلى خارج النافذة، لأن لون زجاج باصات جرايهاوند كان يعتم المنطقة كلها. بين الحين والآخر كانت إحدى بوابات تحصيل الرسوم تقطع الرحلة، فيرمي السائق بعض قطع النقود المعدنية من النافذة إلى الأسفل، داخل الماكينة. حين أردت أن أفتح النافذة لرؤية المزيد، قال لي أحدهم إن ذلك سوف يحدث اضطراباً في نظام تبريد الهواء الأوتوماتيكي داخل الباص، فأغلقت النافذة مرة أخرى. كلما كنا نقترب من نيويورك، كلما كانت لافتات الإعلانات الخطية تستبدل بها الصور: جِرار بيرة عملاقة، زجاجة صلصة الكتشاب بحجم فنار، طائرة نفاثة بالحجم الطبيعي محلقةً فوق السحب. بجواري كان يؤكل الفول السوداني، وتُفتح علب البيرة،

Twitter: @ketab_n

وبرغم أن التدخين كان ممنوعاً كانت السجائر تنتقل خلسة من فم إلى فم. كنت بالكاد أرفع عيني، بحيث لا أرى وجوهاً بل مجرد أفعال فحسب. على الأرض تناثر قشر الجوز والفول السوداني، وكان بعضه ملفوفاً في ورق اللبان. بدأت في قراءة «هاينريش الأخضر» للكاتب جوتفريد كيللر.

مات والد هاينريش لي، حين كان عمره خمسة أعوام. لم يكن يذكر هو عن الوالد سوى كيف كان يشد نبتة البطاطا من الأرض، ليريه درناتها. ولأنه كان دائم ارتداء الملابس الخضراء، لم يلبث أن أطلق عليه اسم «هاينريش الأخضر».

مر الباص على طريق بروكنر السريع عبر حي برونكس، ثم حاد إلى اليمين وعبر نهر هارليم إلى حي مانهاتن. كان يسير ببطء، لكنه مر بأقصى سرعة ممكنة على حديقة أفينيو، عبر هارليم، وبدأ ركاب الباص في التقاط الصور الفوتوغرافية وتصوير أفلام الفيديو. كان اليوم السبت، وكان سكان هارليم السود قد انتشروا بجوار حطام السيارات، وأطلال البيوت التي لم يعد أحد يسكن سوى في الطابق الأرضي منها. كانوا يقرأون الصحف، وكان بعضهم يلعب كرة البيس بول في الشارع، كانت الفتيات تلعبن كرة الريشة، أما الوجبات المعتادة مثل **الهمبورجر** و **البيتزا**، فقد بدت هنا غريبة وغير لائقة. أكمل الباص سيره مروراً بحديقة سنترال بارك، ثم عرج في النهاية إلى محطة باصات معتمة بجوار شارع ٥٠. هناك استقللت سيارة التاكسي ـ التي صار الآن لونها أصفر ـ وجعلت السائق يوصلني إلى فندق ألغونكوين.

كان فندق **ألغونكوين** عبارة عن مبنى ضيق، ليس مرتفعاً، وغرفه

Twitter: @ketab_n

صغيرة؛ وحتى عندما يُغلق باب الغرفة تبقى به فجوة صغيرة مفتوحة، وكأنما كانت هناك محاولات عديدة لدفعه من قبل. أثناء مروري رأيت آثار خربشة على بعض الأقفال. هذه المرة نجحت في أن أدس الورقة النقدية من فئة الدولار الواحد على الفور في يد العامل الياباني الذي صعد معي حاملاً حقيبتي إلى الغرفة.

كانت الغرفة تطل على الفناء الخلفي، حيث كان المطبخ أيضاً، فقد رأيت الأبخرة تتصاعد من فتحات التهوية، وسمعت صلصلة الأطباق وأدوات المائدة. كان الجو بارداً جداً في الغرفة، وكان جهاز تكييف الهواء يضج ضجيجاً، وبما أنني كنت طوال اليوم أُنقَلُ من مكان لآخر، دون أن أتحرك بنفسي، فقد بدأت أرتجف، بينما جلست متسمراً على سريري، لكي أستعيد هدوئي. حاولت إيقاف الجهاز، لكنني لم أجد له مفتاحاً. هاتفت مكتب الاستقبال بالأسفل، ومن هناك تم إيقاف الجهاز. توقف الضجيج. مع هذا الصمت بدت الغرفة أكبر، واستلقيت على السرير. أكلت العنب الذي كان ضمن فواكه أخرى في الوعاء الموضوع على المنضدة الصغيرة بجانب السرير.

في البداية ظننت أن العنب هو الذي جعلني أشعر بذلك الانتفاخ. تضخم الجذع، بينما انكمشت الرأس والأطراف فتحولت إلى أطراف حيوانية؛ رأس طائر، وزعانف سمكة. في الوسط تماماً شعرت بحرارة تضغط أجزائي حتى تمزقها، وفي الأطراف كنت شعرت بالصقيع. تلك الزوائد الجسدية لابد للمرء أن يعرف كيف يطويها إلى الداخل. كان ثمة شريان في اليد ينتفض، كأنه يعرب عن نفسه؛ فجأة بدأ الأنف يتحرق، كأنه ارتطم بشيء ما بمنتهى العنف، ساعتها فقط أدركت، إنه الخوف من الموت مرة الأخرى، ليس الخوف من موتي أنا، وإنما خوف ـ يكاد

Twitter: @ketab_n

يقترب من الجنون ـ من موت الاخرين، ذلك الذي صار الان حسيّا ـ بما أنني استقررت من بعد الرحلة الطويلة. فجأة هدأ الأنف، وتمدد الشريان المنتفض في اليد فجأة، ثم رأيت أمامي صورة واد معتم مطل على بحر عميق، يسوده صمت آسر، إذ كان خالياً تماماً من الكائنات الحية.

هاتفت الفندق الكائن في بروفيدنس وسألت إن لم تكن وصلتهم رسالة لي؛ لكن لم يكن هناك رسائل. ذكرت عنوان فندقي في نيويورك ـ بينما تصفحت أحد كتبَ الإرشاد السياحي بالتوازي ـ كما ذكرت عنوان أحد فنادق فيلاديلفيا ـ عنواناً إضافياً للمراسلات انتظارا لضربة حظ ـ وهو فندق باركلي في ميدان ريتّن هاوس. بعدها طلبت حجز غرفة لي في اليوم التالي بفندق باركلي. طلبت مكتب الاستقبال بالأسفل مرة أخرى، وسألت الموظف أن يؤَمّن لي تذكرة قطار إلى فيلاديلفيا. ثم هاتفت فندق ديلمونيكو وسألت إذا ما كانت زوجتي قد حضرت لاستلام الكاميرا في تلك الأثناء؛ فجاءت الإجابة بالنفي. قلت أنني سأحضر بنفسي خلال ساعة. انتظرت بضع دقائق ثم أدرت الرقم صفر، وطلبت مكالمة دولية لأوروبا. أوصلني عامل الاتصالات بالفندق بعامل الاتصالات الدولية، فأعطيته رقم هاتف جيران أمي في النمسا. سألني إن كنت أود مهاتفة شخص بعينه، أم أنه ليس هناك فرق مَن الذي سيرد على الهاتف؟ فقد كان الخيار الثاني أقل ثمناً. قلت: «لا فرق عندي من يرد على الهاتف». كان مريحاً أن ألعب دور المتحدث المجهول: إذ يمكنك أن تتحدث عن شيء، وتستفيض في الحديث عنه. طُلِبَ مني حينئذ رقم هاتفي هنا، وبعد أن قرأته من على الهاتف، طُلب مني أن أضع السماعة.

Twitter: @ketab_n

جلست صامتاً أطالع الشماعات الخالية في الخزانة، التي كنت قد فتحتها لتوي. سمعت حينئذٍ أصواتاً عالية آتية من المطبخ، لابد أن الوقت الآن قد صار بعيد الظهيرة. كان جرس الهاتف يرن بين الحين والآخر في الغرف الأخرى. ثم رن بصوت عالٍ عندي؛ قال عامل الاتصالات الدولية إن عليّ أن أنتظر على الخط. جاء صوت طقطقة من الهاتف؛ تحدثت، إلا أنني لم أتلقّ أية إجابة. لفترة طويلة لم أسمع سوى كركرة وخشخشة خافتة. ثم مرة أخرى ـ بعد طقطقة ـ سمعت نفس الضوضاء، لكنها كانت مختلفة عما سبق. على الفور رن الجرس أيضاً في مكان ما، مصحوباً بصافرة طويلة تكررت عدة مرات. ظللت على الهاتف! رد مكتب الاتصالات بالنمسا، فأنصت إلى عامل الاتصالات الدولية، وهو يعطي رقمي للفتاة في النمسا. استمعت إلى إلى نقر الأرقام في النمسا؛ رن الجرس مرة أخرى، ثم سمعت على الخط الآخر امرأة تضحك وتقول باللهجة النمساوية: «أعرف»! وامرأة أخرى تقول: «لا تعرفين شيئاً!» انقطع الجرس، وصاح الطفل ـ ابن الجيران ـ اسمه في الهاتف بصوت كالمستعار. حاولت أن أقول له من أنا، وأين أنا، لكنه كان مرتبكاً جداً، كأنه لم يلبث يصحو من النوم، فظل فقط يكرر: «سوف تصل في آخر باص صغير، سوف تصل في آخر باص صغير!»، حتى وضعت السماعة بسرعة، ولكن بصوت خفيض، دون قصد. الآن رأيت صورة مرة أخرى: مقعداً مرتفعاً على حافة الطريق، بجوار المقعد المرتفع صليب على الطريق، وأمام الصليب بعض حشائش المستنقعات، لم تلبث تنمو لتوها.

قلت: «لن أتعود أبداً على إجراء المكالمات الهاتفية». كنت قد دخلت الجامعة حين استخدمت الهاتف من كبينة عامة لأول مرة. هناك

Twitter: @ketab_n

الكثير من الأشياء التي لم أبدأها إلا في مرحلة عمرية لم يعد فيها كل شيء بديهياً. لذلك لا يمكنني التعود سوى على أشياء قليلة فحسب. فكلما حدث مرة أنني استطعت أن أتآلف مع شخص ما ـ طيشاً مني ـ عادة ما كان الأمر يبدأ يلح علي مجدداً في اليوم التالي. أما إقامة علاقة مع امرأة، فهذا أمر لايزال يبدو لي أحياناً كحالة مصطنعة، مثيرة للسخرية، مثل رواية مصورة تم تحويلها إلى فيلم. يبدو لي الأمر مبالغاً فيه، حين أطلب لها الطعام في المطعم. حين أمشي إلى *جوارها*، وأجلس إلى *جوارها*، كثيراً ما أشعر كأن شبحاً هو من يفعل ذلك، وكأنني فقط أستجيب لأوامره.

رن جرس الهاتف مرة أخرى؛ كانت السماعة لاتزال مبللة، إذ كنت قد أمسكت بها طويلاً. أبلغتني موظفة الاتصالات بالأسفل بسعرالمكالمة، وسألت إن كان بإمكانها إدراج الدولارات السبع على حساب الغرفة. كنت سعيداً: تخلصنا من سبعة دولارات. سألت بدوري أين يمكن في الجوار شراء كل الصحف المحلية. حينها خطر لي أن المساء كان قد حل في أوروبا. ذكرت لي موظفة الاتصالات عنواناً في ميدان «تايمز سكوير»، حيث ذهبت بالفعل بعد ذلك.

سرت عبر شارع ٤٤ نزولاً. بل «صعوداً»!. استدرت وسرت بالاتجاه الآخر. كان لابد أن أصل إلى الطريق الرئيسي، لكن لم أدرك سوى حين تجاوزت طريق أفينيو أوف ذا أمريكاز، وطريق فيفث أفينيو، أنني لم أكن حقاً أسير بالاتجاه الآخر. لابد أنني تصورت فحسب أني استدرت وسرت بالاتجاه الآخر. ولكن لأنه بدا لي كأنني استدرت بالفعل، ظللت واقفاً في مكاني، وأخذت الأفكار تروح وتجيء في رأسي. أصابني

Twitter: @ketab_n

الدوار. بعد ذلك سرت قدماً، مروراً بطريق ماديسون، حتى وصلت إلى شارع ٤٢. هنا حدث مرة أخرى، وسرت بخطى بطيئة فوصلت فعلاً إلى الطريق الرئيسي، حيث كان ميدان «تايمز سكوير» بالفعل.

اشتريت جريدة «Saturday Evening Post» التابعة لفيلاديلفيا، وقرأتها على الفور بالكامل في متجر الصحف. لا شيء عن أيّة امرأة تدعى يوديت. وبما أنني أيضاً لم أتوقع إيجاد شيء، أعدتها على الفور إلى مكانها مع الصحف الأخرى، واشتريت بعض الصحف الألمانية، وقرأتها لدى البار في أحد متاجر مستحضرات التجميل، أثناء احتساء البيرة. في تلك الأثناء أدركت أنني كنت قد قرأتها جميعها أثناء رحلة الطيران من بوسطن إلى هنا. صحيح أنني تصفحتها سريعاً، لكن لابد أنني مع ذلك قرأتها كاملةً، لأنني كنت الآن أتذكر مرة أخرى كل تفصيلة فيها.

عدت مجدداً عبر الطرق المختلفة ذاتها، ثم حدت إلى حديقة «أفينيو بارك». شعرت بأنني ـ كما كنت أشعر في السابق، إذا ظللت مدة طويلة من حياتي، حين أصف لشخص ما، ما كنت أفعله في تلك اللحظة ـ لا أستطيع أن أفوّت تفصيلة واحدةً من الأفعال التي يتكون منها الفعل برمته. فحين أدخل بيتاً، كنت أقول بدلا من ذلك: «دخلت إلى البيت»: «مسحت حذائي، ضغطت المقبض إلى أسفل، دفعت الباب، ودخلت، وتبعت ذلك بأن أغلقت الباب ورائي مرة أخرى»؛ وحين كنت أرسل رسالةً لشخص آخر، أكون قد وضعت (بدلا من قول: «أرسلت») «ورقة نظيفة على حامل، جردت قلم الحبر من غطائه، وملأت الورقة بالكتابة، وطويتها، وكتبت العنوان على الظرف، ولصقت طابع بريد عليه، ورميته في صندوق البريد». في محيط كالمحيط الآني،

Twitter: @ketab_n

الذي لا أكاد أعرفه، كان أيضاً نقص المعلومات والخبرات حينذاك يدفعني لأن أراوغ نفسي، بأن أفكك الأفعال القليلة التي كنت أستطيع القيام بها عند وصفها، وكأنها كانت تنم عن خبرات كبرى. هكذا عبرت الآن أيضاً طريق أفينيو أوف ذا أمريكاز، وفيفث أفينيو، وطريق ماديسون، ومررت بحديقة بارك أفينيو حتى شارع ٥٩، استظللت بإحدى الظلال، ووقفت بباب دوّار، دفعته ودخلت إلى فندق ديلمونيكو.

كان موظف الاستقبال في انتظاري بالكاميرا فعلاً. سلمني إياها، من دون أن يلقي نظرة على جواز سفري. كانت تلك هي الكاميرا «البولارويد» الكبيرة، التي اشتريتها لنفسي من أحد المطارات ذات مرة، حيث كان سعرها أعلى منه في أي مكان آخر. من الرقم المكتوب على الشريط الورقي الأبيض عرفت أن يوديت قامت بالفعل بالتقاط بضع صور. إذن فقد رأت شيئاً، أرادت كذلك أن تحتفظ بصور له! بدا لي فجأة أنها علامة جيدة، كوني لم ألبث أن تخلصت تماماً من كل الهواجس، لحظة خروجي.

كان اليوم مشرقاً، بل بدا لي أكثر إشراقاً بسبب الريح؛ كانت السحب في السماء تتسحب. ظللت لفترة طويلة واقفاً في الشارع أنظر حولي فحسب. في كبينة التليفون عند مدخل إحدى محطات مترو الأنفاق وقفت فتاتان متكئتان، واحدة تجري مكالمة هاتفية، والأخرى تنحني عليها بين الحين والآخر وهي تزيح شعرها خلف أذنها. في البداية توقفت فقط حين رأيت الفتاتين، ثم أشعرني النظر إليهما بالنشوة / بالحيوية، بل أشعرتني بهزة، بحيث صرت أشعر بلذة، حقيقية في مشاهدة، كيف راحتا تضحكان داخل الكبينة الضيقة، بينما ظلت

Twitter: @ketab_n

إحداهن أو الآخرى تدفع الباب بقدمها، تضحكان، تضعان يداً على السماعة، وتهمسان لبعضهما بشيء ما، وترميان عملة معدنية أثناء ذلك، ثم تميلان ثانية باتجاه الهاتف، بينما تتصاعد أبخرة مترو الأنفاق بجوارهما من فتحات التهوية في الشارع، وتتسرب فوق الأسفلت إلى الشوارع المجاورة. مشهد أشعرني بالتحرر وراحة البال. ظللت أنظر مطمئناً، في حالة فردوسية، حيث يود المرء أن يرى فقط، وحيث تكون الرؤية بحد ذاتها معرفة. هكذا عدت عبر طريق «أفينيو بارك» حتى صار اسمه «فورث أفينيو»، وصولاً إلى شارع ١٨.

في دار سينما إلغين شاهدت فيلماً عن طرزان بطولة جوني فايسموللر. منذ بداية الفيلم كان لدي شعور كمن يشاهد شيئاً ممنوعاً، ولديه تصور مسبق عنه؛ استرجعت الصور حلماً منسياً. طائرة ركاب صغيرة حلقت، كانت تطير على مستوى منخفض فوق الغابة. ثم رأينا الطائرة من الداخل؛ رجل وامرأة جالسان بداخلها ومعهما رضيع. راحت الطائرة تطن وتتخبط هنا وهناك، بطريقة عجيبة، كما لا يمكن لطائرة حقيقية أن تفعل، ومع هذا الاهتزاز تذكرت الأريكة الخشبية التي كنت قد شاهدت عليها الفيلم نفسه في طفولتي. قلت بصوت مرتفع: «إنهم في الطريق إلى نيروبي». لكن المدينة لم تُذكر. «والآن سوف يرتطمون!» احتضن الأبوان بعضيهما، حينئذٍ رأينا الطائرة من الخارج، كيف راحت تهوي إلى أسفل، وتختفي بين أشجار الأدغال. ارتطمت محدثة دوياً، ثم كلا، لم يكن هناك دخان، وإنما تصاعدت فقعات هواء بعد ذلك من وسط منظر طبيعي معتم، وهو ما لم أتعرف عليه ثانية سوى لاحقاً، حين جاء ذلك الجزء من الفيلم، إذ كانت تلك هي البركة التي راح طرزان يسبح تحت سطحها ممسكا بسكين بين أسنانه، ساحباً معه ذلك

Twitter: @ketab_n

الطفل المجهول، الذي سيكون قد صار صبياً في تلك الأثناء، وكان كل منهما يزفر فقاعات الهواء على مسافات متباعدة، مع ضربات بطيئة لصفحة الماء، كالتائهين في حلم، بينما كانت عملية التذكر ـ الآخذة في التثبت أثناء المشاهدة ـ قد تحركت، في طريقها نحو ترسيخ صورة واضحة في الذاكرة، بعد ارتطام الطائرة مباشرة، من خلال توقعات غامضة، وبنفس الإيقاع الذي تصاعدت به فقاعات الهواء التي زفرها السابحان من تحت أعماق المياه.

رغم أن الفيلم كان عادة يشعرني بالملل، إلا أنني لم أرحل. كذلك لم تعد الكوميكس تشعرني بالمتعة، هكذا خطر لي: ولا سيما منذ أن جئت إلى هنا. لفترة طويلة كنت أقرأ الكوميكس كثيراً، لكن كان عليّ ألا أقرأها في الكتب، حيث تكون مجمعة. كل مرة كانت مغامرة ما تبدأ، ثم تتوقف، ثم تبدأ المغامرة التالية مجدداً. فمثلا حين شاهدت إحدى مجموعات حكايات ـ البيناتس (Peanuts) ذات مرة، شعرت في الليل بالغثيان بسببها، لأن كل حلم كان يتوقف بعد أربع صور، ليبدأ حلم جديد، يتكون هو الآخر من أربع صور. كان عندي شعور بأن قدميّ تنفصلان عني كل مرة في الصورة الرابعة، وأنني أُطرَح على الأرض على بطني. وبعد ذلك كانت مثل هذه الحكاية تبدأ! حتى أفلام الكوميكس الصامتة لم أعد أرغب في مشاهدتها، هكذا خطر لي. فلم تعد قادرة على إغوائي باحتفائها بالحماقات. الأبطال الذين لم يكن بوسعهم النزول إلى الشارع ـ دون أن تُطيّر عربة رصف الطرق قبعاتهم، ولا أن ينحنوا أمام امرأة دون أن يسكبوا القهوة على تنورتها ـ بدوا لي نماذج من حياة غاية في الطفولة، واللاإنسانية: أشكالاً جامدة، متخبطة، مصنوعة، وضانعة لبيئتها، يريدون أن يتطلعوا إلى كل شيء ـ

Twitter: @ketab_n

إلى الأشياء والناس كمُثُل عليا فقط. شماتة شابلين المتهكمة؛ وعلى الجانب الآخر طريقته في الاعتناء بنفسه؛ واعتياد هاري لانجدون على الشقلبة والتشبث بالذات. باستر كيتون هو الوحيد الذي طالما كان يبحث بحماس عن مخرج، بوجهه اليقظ العنيد، مع أنه لم يكن ليعرف أبداً، ماذا كان بانتظاره. كنت لا أزال أحب النظر إلى وجهه، كما كان جميلاً أيضاً، أن ابتسمت مارلين مونرو ابتسامة حائرة ـ في أحد الأفلام ـ مقطّبةً جبينها، وهي تحملق مثل ستان لوريل.

بالخارج أمام دار السينما كان الظلام قد حل بالفعل. فكرت أين كان يمكنني أن أذهب، بينما أبطأت في مشيتي. سارت أمامي فتاة طويلة ببطء هي الأخرى على الرصيف، وكأن حقيبتها المتدلية تشدها. كان شعرها أسود، وكانت ترتدي سروال الجينز الأزرق، لكنه ـ بفضل تحركاتها هكذا بلا تكلّف ـ لم يبدُ مثل الجينز الأزرق على الإطلاق؛ فلا كانت طية تنكسر عند الأرداف مع كل خطوة، ولا كان القماش مكشكشاً عند الركبة كما يكون عند آخرين. التفتت إلى الوراء ـ وكان وجهها شديد البياض وبه نمش ـ ثم استمرت في السير ببطء كما في السابق. شعرت فجأة باستثارة شديدة، لأنني كنت أعلم أني وددت التحدث إليها. هكذا سرنا، تارة متجاورين، ثم هي أمامي، ثم سبقتها بعد ذلك، حتى وصلنا للطريق الرئيسي، في النهاية بلغ قدر استثارتي أن أردت طرحها أرضاً في الشارع. لكن حين تحدثت إليها بعد ذلك، سألتها فقط إن كانت تقبل دعوتي لنشرب شيئاً معاً.

قالت: «لِمَ لا؟»، لكن الأمر كان قد قُضِي. كنا حينئذ نسير جنباً إلى جنب، بوجهينا المحمرين من فرط الإثارة التي حركها كل منا في

Twitter: @ketab_n

الآخر. لو كنا مشينا على الفور بخطى أسرع، وكأن لدينا هدفاً ما، لربما كانت الحركة السريعة تشعرنا بالمزيد من الإستثارة، وربما قادتنا مباشرة إلى مدخل أحد البيوت؛ لكن هكذا استمررنا في السير فحسب، بخطى أبطأ قليلاً من ذي قبل، وكان علينا أن نبدأ مرة أخرى من نقطة الصفر. مع ذلك حاولت أن ألمسها. فاعتبرت ذلك سهوا.

وصلنا إلى إحدى تلك الكافيتيريات، حيث يكون على المرء أن يخدم نفسه بنفسه. وددت أن أغادر، لكنها كانت قد وقفت في الصف بالفعل. أخذت أنا أيضاً صينية، ووضعت عليها شطيرة. جلسنا على إحدى الطاولات، أكلت الشطيرة، وشربت هي قهوة باللبن. سألتني عن اسمي، ودون أن أعرف لماذا كذبت، أجبت بأن اسمي فيلهيلم. شعرت على الفور بالارتياح، وعرضت عليها قطعة من شطيرتي. قامت بقطع جزء منها بيدها. بعد فترة هبت واقفة، قالت إنها تشعر بالصداع، لوحت لي وخرجت.

أحضرت لنفسي كوبا من البيرة وجلست مرة أخرى. نظرت إلى الشارع عبر الباب الضيق، الذي انسدل عليه ستار. كانت الفتحة التي يمكن الرؤية من خلالها صغيرة جدا، بحيث كانت المشاهد تبدو بداخلها أكثر وضوحا، كأن الناس يتحركون بداخلها أكثر بطئاً، فيقدمون أنفسهم أثناء ذلك؛ كان الأمر كأنهم لم يمروا من أمام الباب، بل كأنهم يتنزهون أمامه ذهاباً وإياباً. لم أكن قد رأيت نهود النساء بهذا الجمال، وبهذا الإغراء مثلما رأيتها الآن. كاد منظرها يكون مؤلماً، ومع ذلك فقد كنت فرحاً، بأنني لا أرغب في شيء أكثر من مجرد مشاهدتها، وهي تتسكع هنا وهناك، مسرورة النفس، أمام لافتات الإعلانات العريضة. وقفت إحدى السيدات عند الباب وكادت تتسمر مكانها، كانت تبحث

Twitter: @ketab_n

عن شيء ما. ذهلت من فرط رغبتي في الذهاب إليها، لكن خطر لي على الفور: «ماذا يمكنني أن أفعل معها؟ لن يكون هذا سوى عدم تقدير للمسئولية فحسب!» ثم استرخيت مجددا. إلى هذا الحد صار مستحيلاً بالنسبة لي، أن أتصور أيةَ مساحة من التودد لامرأة، حتى أنني صرت ـ بمجرد التفكير في أنه ما عليّ سوى أن أمد يدي ـ أشعر بعدم الاكتراث، وبالإرهاق أكثر فأكثر.

على الطاولة المجاورة كان أحدهم قد ترك جريدة؛ أخذتها وبدأت أقرأ. قرأت ما كان قد حدث وما كان يتعين أن يحدث فيما بعد، صفحة تلو الأخرى، وبارتياح متزايد. طفل وُلِد في القطار السريع إلى لونج أيلاند؛ عامل محطة بنزين قطع المسافة من مونتجومري/ ألاباما إلى سافانّا / جورجيا على ساحل المحيط سيراً على اليدين. في صحراء نيفادا كانت نباتات الصبار قد أزهرت بالفعل. تولّد لدي شعور جارف بضرورة التعاطف مع كل شيء، فقط لأنني وجدت كل شيء موصوفاً؛ شعرت أنني منجذب لكل المناطق، كل ما من جاء ذكره، بدا لي حقيقيّاً، فعند قراءة تقرير صحفي عن قاضٍ، أمر بربط متهم ثائر بالسلاسل، وتقييده على مقعده، باغتني الشعور بارتياح غريب ـ وإن لم يكن بالتفهُّم. لم يوجد شخص واحد لم أشعر بالقربى تجاهه. قرأت عامود رأي لسيدة كتبت عن المناهضين للتجنيد العسكري، قالت إنها كانت لتختبئ خجلاً، لو أنها أنجبت أبناءً كهؤلاء، أما أنا فلم أستطع أن أتطلع إلى صورتها، إلا وقد انتابني شعور سريع بالتضامن؛ وحين صرح أحد القادة بأنه بالفعل كان قد رأى من الطائرة الهليكوبتر ما يشبه مجموعة من النساء والأطفال في حقل الأرز، بدت أيضاً مثل «رجل وجاموسين مائيين»، شعرت بالأسف ـ بمجرد قراءة الكلمات ـ لأنني لم

Twitter: @ketab_n

أكن في مكان القائد. كل إنسان، أوبالأخص كل مكان لم أكن أعرفه من قبل، كنت أحس تجاهه أثناء القراءة بحميمية شديدة، بحيث صرت أشعر بنوع من الحنين تجاهه. قرأت عن مكتب التلغراف في مونتانا، وعن شارع في أحد المعسكرات التابعة للجيش في فيرجينيا، وشعرت على الفور بالرغبة في التواجد، والعيش هناك لفترة ما؛ فإن لم أفعل، أكنْ قد فوتُّ على نفسي شيئاً، لن يكون بوسعي تعويضه أبداً.

لم تكن تلك المشاعر جديدة بالنسبة إليّ؛ فقد كنت منذ طفولتي أشعر فجأة، وأنا في قلب نزاع أو مشاجرة أن كل شيء يبدو لي ملموساً: كنت أتوقف عن الكلام، أدع نفسي أرتمي على الأرض فحسب، وحين أكون قد هربت لتوي من أحد صارخاً، كنت أتوقف أحياناً، بل إنني كنت أجلس وأنظر للآخر بمنتهى البراءة، بينما كان هو غالباً يمر من أمامي كأنه في الأصل كان يطارد شخصاً آخر. حين كنت أعنّف أحداً، نادراً ما كنت أتحمل ذلك للنهاية؛ كان الحديث لا يلبث أن يضبط مزاجي إلى مزاج ودي، كنت أتوقف، وأكيّف نفسي على الوضع. كذلك حين كنا أنا ويوديت نتشاجر، كان جزءاً كبيراً من الشجار ـ على الأقل من جهتي ـ يأخذ شكل الاقتباس من شجار آخر، ليس لأنه كان يبدو لي مثيراً للسخرية، وإنما لأن شيئاً ما بداخلي كان ينقلب فجأة إلى عدم الجدية. على أنني كنت لاحقاً أستشعر ـ وسط العداء ـ بأنني أستطيع أن أضحك في الثانية التالية بنفس الكفاءة، وربما اضطررت حتى لأن أضحك بسرعة، لكننا كنا نزعج بعضين، حتى أن كل مقاطعة ـ حتى الضحك من باب المصالحة ـ لم تكن تؤتي سوى الجرح للآخر. أفزعني أنني هنا في نيويورك عدت لما لم يحدث منذ وقت طويل، وهو أنني أجد نفسي أثناء قراءة إحدى الصحف منجذباً لكل شيء بهذه

Twitter: @ketab_n

الطريقة المريبة، لكنني لم أرد أن أشغل نفسي بذلك الآن. كما أن هذا الشعور لم يدم طويلاً؛ فبينما كنت أمعن التفكير فيه، كان قد زال بالفعل، كأنه لم يكن أصلاً؛ وعندما وقفت بالخارج في الشارع، كنت وحيداً مرة أخرى.

سرت بلا هدف، لكن ممتلئاً بالفضول. في ميدان «تايمز سكوير» رحت أطالع مجلات بها صور عارية؛ قرأت آخر الأخبار، مكتوبة بأضواء النيون أعلى الطريق الرئيسي؛ ضبطت ساعة يدي حسب ساعة مبنى إحدى الصحف، كانت الشوارع تتلألأ أضواؤها بشدة، لدرجة أنك تظل مصاباً بعشى البصر حتى بعد أن تخطو خطواتك الأولى في في الشوارع الجانبية المعتمة. كنت قد قرأت في الجريدة، أنه في حديقة «سنترال بارك» كان قد تمت إعادة افتتاح مطعم كان قد احترق في السابق، بينما تم استخدام بعض آثار الحريق ضمن التصميم الجديد. حين كنت أسير على الرصيف باحثاً عن تاكسي ليوصلني إلى هناك، عرض علي شخص تذكرة لمسرحية غنائية. أردت أن أكمل السير؛ حينئذ خطر لي أن لورين باكال كانت تمثّل أحد الأدوار فيها، وهي التي كانت ـ في شبابها قبل عشرات السنين ـ قد انحنت فوق كتف عازف البيانو في ميناء الغطس في فيلم «أن تملك ولا تملك» للمخرج هاورد هوكس، ثم اتكأت على البيانو، وغنت أغنية بصوت عميق مبحوح. أعطيت الرجل عشرين دولاراً وهرولت إلى المسرح والتذكرة في يدي.

جلست في الصفوف الأولى، حيث جلجل صوت الأوركسترا من خندقه بصوت عال جداً؛ كنت قد وضعت المعطف على ركبتي مثل الآخرين. كانت لورين باكال هي الأكبر سنّاً على خشبة المسرح، حتى الرجال بدوا أصغر منها. لم تعد الآن تجلس أو تزحف هنا وهناك كما

Twitter: @ketab_n

كانت تفعل سابقاً في الحانة، بل كانت تتحرك كثيراً. راقصت تارة بعض الشباب ذوي الشعور الطويلة الذين كانوا يلفون السلاسل حول أعناقهم على الطاولة أيضاً. حتى عندما كانت تهوي إلى أسفل بشيء من الوهن، كانت تضطر للقفز أثناء انحنائها مرة أخرى، وللتصرف بطريقة مختلفة. كانت كل حركة من حركاتها تناقض نفسها على الفور، حتى يبقى شكلها ممتعاً. كذلك عند إجراء مكالمة هاتفية، كانت تضطر لأن تملس على حذائها، حتى يتسنى لها أن تهرب بعد ذلك دون توقف، وبعد كل جملة تنطق بها كانت تغير أداءها، أو تبدل وضع قدميها على الأقل. كانت عيناها واسعتين إلى حد كبير، وكانت مقلتا عينيها تنتفضان مع كل حركة جديدة. في كل مشهد جديد كانت تطل بأزياء جديدة، رغم أنه بالكاد كان لديها الوقت لتبديل ملابسها. فقط عندما أمسكت بكأس الويسكي ومدت ذراعها الطويل مبتعدة بها عن جسدها، بدأ المرء يشعر بأنها مرتاحة. فيما عدا ذلك كان هناك شعور بأنها ـ منذ أن كانت تمثل في الأفلام السينمائية ـ لم تعد تستمتع بأن تضطر لكسب عيشها من الحركات الأدائية الغريبة عليها هنا. هكذا أيضاً كان يُلتمس لها العذر كشخص بالكاد يؤدي عمله، أوبالأحرى عملاً أدنى من مستواه، لابد أن مشاهدته لا تجلب له سوى الإهانة. خطرت يوديت ببالي: تحركاتها اليومية كانت تتكون من الأوضاع الكثيرة الصغيرة ـ التي كان جسد لورين باكال يؤديها هنا كالآلة ـ مجتمعة. حين كانت تدخل محلات الأزياء، كانت تتقمص على الفور ـ دون قصد منها ـ دور زبونة من الطبقة الراقية، هكذا خطر لي: كانت تقف عند المدخل تحديداً، تجول بنظرها دون أن تنظر إلى شخص بعينه؛ فقط حين تأتي إليها البائعة تلتفت إليها وكأنها تفاجأت من العثور على أي شخص أصلاً. حينئذٍ

Twitter: @ketab_n

تتحول على خشبة المسرح: البساطة التي كانت تتحرك بها هنا، لم تكن تشبه ذلك الاستهتار السخيف، الذي يتسكع به الإنسان العادي، حتى وإن كان ممثلاً، لكنها كانت تخفف من الجدية، وهو ما لم يكن ممكناً لها سوى على المسرح. بقدر ما كانت تعتد بنفسها وتتباهى بها، كانت على المسرح تصير هادئة البال، تتحول إلى الإيثار ونكران الذات؛ كان المرء ينسى أصل شخصيتها بعد ذلك، إذ كانت تلعب دورها بطبيعية شديدة.

خلال هذه الأفكار مرت سيارة شرطة من أمام المسرح، علت صافرات إنذارها كالعويل، حتى كادت تطغى على صوت الأوركسترا. لكن حين رأيت ورقة من كتيب برنامج الحفل تسقط ببطء شديد من الأعلى عند سور الشرفة، جعلتني الورقة ـ وهي تتمايل يميناً ويساراً ـ متأكداً تماماً أن يوديت كانت ـ تحديدا في تلك اللحظة ـ جالسة في مكان ما في أحد المطاعم تأكل، غير عابئة، وترفع إصبعها لتطلب شيئاً، وأنها كانت أيضاً مندمجة جداً فيما تفعل، بحيث لم يكن بوسعها التفكير في أي شيء آخر. كم كان قائد الأوركسترا بين الحين والآخر يثب إلى أعلى! وكم كانت سراويل الممثلين مفرودة دون أدنى عيب! وكم أخذت المنافِسة الآن على المسرح تلعق شراب المارتيني من حول الزيتونة، ثم تسحبها إلى داخل فمها! لا يمكن أن يكون مكروهاً قد حدث لها. كان من الصعب تصور أنها لم تكن تحرص على أن تكون بحال جيدة في مكان ما الآن. بأموالي! شعرت بالجوع وذهبت بالفعل إلى مطعم حديقة «سنترال بارك»، خلال الاستراحة.

كانت الأشجار في الحديقة تصدر حفيفاً خافتاً، كأن المطر كان على وشك أن يهطل. في المطعم كانت حتى قوائم الطعام بها بعض الحروق

Twitter: @ketab_n

المصنوعة على الأطراف، وعند خزانة الملابس كان هناك دفتر لآراء الزائرين، كانت الحروف المكتوبة عليه فاتحة اللون، كأنما كتبت على صحف متفحمة. بالخارج سُمع عويل سيارة شرطة مرة أخرى. أرخى أحد النُّدُل الستار على النافذة التي كان يقف عندها، وكان آخر يقف على الباب عاقدا ذراعيه، ناظراً إلى الخارج. كان صوت صافرات الإنذار حاداً جداً، وفي كوب الماء الذي وضعوه فوراً على الطاولة أمامي، لم تلبث مكعبات الثلج تتأرجح لبرهة. لم يكن قد بقي سوى بضعة أشخاص جالسين على الطاولة، وجوههم نصفها في الظل. كاد المكان يكون خالياً وكان كبيرا جداً، بحيث كنت أنا ـ بينما دوى صوت صافرات الإنذار على مسافة بعيدة جداً ـ أشعر بالإرهاق أكثر فأكثر. حين جلست حينئذ لا أحرك ساكناً، بدأ شيء ما يروح ويجيء في رأسي، بالإيقاع نفسه الذي كنت أتحرك به عبر نيويورك طوال اليوم. تعطل تارة، ثم سار لفترة طويلة إلى الأمام، ثم بدأ ينعطف، ثم تحرك في في دوائر لفترة، ثمَّ استقر في النهاية. لم يكن تصوراً ولا صوتاً. كان إيقاعاً فقط، يوهم بأحدهما أو الآخر كل حين. الآن فحسب بدأت أنتبه للمدينة التي كدت أتجاهلها قبل ذلك.

لفت انتباهي محيط كنت قد مررت عليه عابرا خلال النهار. صفوف من المباني والشوارع تشكلت تباعاً، عبر ما خلفه هذا المحيط ـ من اهتزازات، ثم جمود، وتعقيدات، وقفزات ـ بداخلي. جاء بالإضافة إلى ذلك صوت رذاذ ماء، وهدير كأنه آت من قاع مجرى نهر تحت منطقة أغرقها الفيضان، حين تحولت الاهتزازات هي الأخرى إلى أصوات. لم تستطع الستائر السميكة أمام النافذة حجب الأصوات والصور، لأنها كانت تدور في رأسي، وأيضاً لأن رأسي ظل يتعجلها، كلما عادت إلى

Twitter: @ketab_n

حالتها الأولى كاهتزازات وإيقاعات محضة، بحيث كانت تعود للاهتزاز من البداية من جديد، وتومض ومضات متسارعة في صورة شوارع أطول، ومبانٍ أعلى، ونقاط تلاشي في الأفق أكثر بعداً. ومع ذلك لم تزعجني هذه العملية: أخذ نموذج نيويورك يتمدد بداخلي بلطف، دون أن يضغط عليّ. كنت أجلس مسترخياً، لكن أشعر بالفضول، أكلت شريحة من لحم الضأن، كانت بمثابة وليمة دعوت نفسي إليها، وشربت نبيذاً أحمر من كاليفورنيا، كان مع كل رشفة يشعرني بالعطش، وأخذت أعايش المدينة المكدسة التي كان صدى طنينها لا يزال يتردد، كلعبة لطيفة من الطبيعية. كل ما لم أكن أستطيع رؤيته في السابق سوى من قريب جداً ـ القوارير الزجاجية، ولافتات التوقيف، وصواري الرايات، ولافتات الإعلانات الضوئية ـ تراجع حينئذٍ، تحديداً لأنني ظللت لمدة ساعات لا أستطيع النظر إلى مشهد متسع من الطبيعة، يمكن مد النظر فيه، إلى أبعد ما يمكن للعين أن تبصر. عنّ لي أنني أود لو أستلقي في هذا المشهد، وأقرأ كتاباً بداخله.

حين كنت قد انتهيت من تناول الطعام، أخذت أطالع مجدداً قائمة المأكولات، وأقرأ أسماء الأطباق بنهم، يشبه الذي كنت أقرأ به سير القديسين في الكتاب المقدس. شرائح لحم آلامو، وأفرخ لويزيانا، ولحم خنزير باسم دببة دانييل بون، شرائح اللحم على طريقة العم توم. كان رواد المطعم القلائل لايزالون موجودين، وقد صاروا الآن يتحدثون بصوت عالٍ. دخل بائع جرائد من الباب، ورمى بعض الصحف على خزانة الملابس. امرأة عجوز وجهها مزين بمساحيق التجميل، كانت تدور بباقات الورود من طاولة إلى أخرى. راح أحد النُّدُل بجوار زوجين بدينين يسكب الكونياك على قرص البيض، بإيماءات شاردة، فأشعلت

Twitter: @ketab_n

له السيدة كبريتاً، أخذه وانحنى تحية لها، ووضعه عند المقلاة. اشتعل قرص البيض، فصفق الزوجان. ابتسم النادل، ووضع البيض على طبق وقدمه للسيدة. ثم أخرج زجاجة النبيذ ـ ممسكا إياها بشرشف ـ من إناء الثلج، وصب المزيد من النبيذ الأبيض للزوجين، بينما كان يضع يده الخاوية على ظهره. دخل عازف البيانو من مكان ما، وبدأ يعزف بصوت خفيض. خرج طباخ من فتحة باب المطبخ، وأخذ يراقبه. طلبت قنينة أخرى من النبيذ الأحمر، شربتها كاملة، وبقيت جالساً. دخل أحد النُّدُل المطبخ وخرج منه، بينما كان فمه يمضغ شيئاً ما. أعدت أمينة خزانة المعاطف الأوراق للعبة السوليتير. كانت تضع دبوساً في فمها، وتقلب إلى جانب ذلك ملعقة في فنجان قهوة، كان موضوعا على المتراس بجوارها. ثم وضعت الملعقة جانباً بعد ذلك، وتركت الدبوس يسقط من فمها، وابتلعت رشفة كبيرة من القهوة. رجرجت الفنجان مرة أخرى لكي يذوب السكر، وسكبت القهوة أثناء الرجرجة بين أسنانها، وأكملت لعبة الورق. دخلت امرأتان من الخارج، لوحت إحداهن للنُّدُل بقفاز طويل، أما الثانية فاتكأت على الفور إلى البيانو، فغيّر العازف اللحن، وبدأت هي تغني:

"In the years of old, in the years of gold,

In the years of forty - nine".

عدت إلى الفندق بعد منتصف الليل بكثير سيراً على الأقدام. أخذت تذكرة القطار إلى فيلاديلفيا من موظف الاستقبال، ثم جلست بعد ذلك في الحانة، التي كان اسمها BLUE BAR، وشربت ويسكي ـ ماركة كنتاكي ـ ببطء دون أن أثمل. أخذت بعض البطاقات البريدية الخاصة بالفندق وكتبت لأناس كثيرين، منهم من لم أكتب له من قبل أبداً.

Twitter: @ketab_n

أحضرت بعض طوابع البريد من ماكينة أتوماتيكية في بهو الفندق، ورميت البطاقات على الفور في صندوق البريد. عدت إلى الحانة، جلست على مقعد جلدي كبير، كان بإمكاني أن أحركه حركة دائرية، وبسطت يدي ووضعت عليها الكأس. أحياناً كنت أنحني لأشرب رشفة صغيرة. جاء النادل ووضع منفضة السجائر على طاولة أخرى، حيث جلست امرأة عجوز، أخذت تقهقه بين الحين والآخر. ثم كانت تخرج دفتراً من كيسها الذي يخشخش، وتكتب فيه شيئاً بقلم الحبر الجاف الفضي الصغير. وأخيراً شعرت بالإرهاق للمرة الثانية في تلك الليلة، أخذت بطاقة بريدية أخرى من كومة البطاقات، وصعدت إلى غرفتي. كتبت عنوانا على البطاقة أثناء السير، ورميتها في الطابق العلوي في الرواق في الفتحة المخصصة للبريد. راحت تجلجل أحياناً أثناء سقوطها إلى الأسفل.

على الأرض في غرفتي كانت هناك ورقة بيضاء. على الفور فكرت أنها رسالة لي، فرفعتها من على الأرض. لكنها لم تكن سوى بطاقة التوصية الصغيرة التي كانت إدارة الفندق وضعتها على سلة الفواكه. اتصلت بمكتب الاستقبال ثانية، وطلبت إعادة تشغيل جهاز التكييف. بعد ذلك استلقيت على السرير دون أن أغتسل وفتحت كتاب هاينريش الأخضر.

قرأت كيف اكتسب هاينريش لي عدوّه الأول. حثه أحد زملاء الدراسة على المراهنة على كل ما يحدث في الطبيعة: على أي غصن سوف يستقر العصفور، إلى أي مدى ستنحني الشجرة أمام الريح، هل كانت الموجة الكبيرة في البحر ستأتي بعد كل خامس أم سادس موجة. هكذا تكوّن لدى هاينريش نوع من إدمان المراهنات، وكان يخسر

Twitter: @ketab_n

أيضاً، وحين لم يكن باستطاعته أن يدفع، كان الاثنان يواجهان بعضهما ـ بينما كانا قد صارا في تلك الأثناء عدوّين بالفعل ـ على طريق صخري ضيق. كانا ينقضان على بعضهما ويتعاركان في صمت ومرارة. في هدوء قاتل أطبق هاينريش على الآخر، وأخذ يلكمه كلما سنحت الفرصة بقبضة يده في الوجه، وكان يشعر أثناء ذلك بكم من الألم الجامح، كما لم يكن ليشعر في حياته أبداً. اضطر أن يترك المدرسة على إثر ذلك، واستقر في القرية، حيث كان يمد نظره بحرية وسط الطبيعة لأول مرة وتكونت لديه الرغبة في أن يرسمها بمتعة مختلفة.

كنت أنا قد نشأت في الريف، ولم يكن من السهل علي أن أفهم، كيف للطبيعة أن تحرر المرء من شيء ما؛ فقد كانت تثقل عليّ فحسب، أو على الأقل لم أكن أشعر وسطها بالارتياح. حقول القصب، وأشجار الفاكهة، والمراعي كانت تشعرني بالضيق، شيء ما فيها كان منفراً. لقد تعرفت عليها عن قرب شديد: مشيت حافي القدمين في حقول القصب، كان جلدي يتشقق على لحاء الشجر أثناء التسلق، كنا نجري في المراعي بالأحذية المطاطية تحت المطر، خلف البقر المتبوّل. لكني لم أدرك قبل الآن، أنني لم استشعر تلك المنغصات بهذه القوة، سوى لأنه لم يكن مسموحاً لي أبداً أن أتحرك بحرية وسط الطبيعة: كانت أشجار الفاكهة مملوكة لآخرين، كان علينا الهروب منهم عبر الحقول، وحين نقوم برعاية الماشية، لم نكن نتقاضى في المقابل سوى الأحذية المطاطية، التي لا يحتاجها المرء فيما عدا ذلك، سوى لرعاية الماشية. ولأن الفتى تم إجباره على الفور على العودة للطبيعة للعمل بها، فلم يكوّن هو الآخر رؤية خاصة لها، على أقصى تقدير تكونت لديه نظرة فضول للشقوق الصخرية، وللأشجار المجوفة، وللجحور

Twitter: @ketab_n

التي يمكن الاختفاء بداخلها، في العموم لكل الثقوب تحت الأرضية. كانت جذوع الأشجار المتشابكة أيضاً تجذبني، وحقول الذرة، وشجيرات البندق الكثيفة، والقنوات الجوفاء والأخاديد. كنت أفضل المباني والشوارع عن الطبيعة، حيث كان بإمكاني ارتكاب ممنوعات أقل بكثير. حين كانت الريح تحرك أحد حقول القمح، كان الأمر فقط مزعجاً لي، لأنها تطيّر شعري على وجهي، مع أنني لاحقاً كنت كثيراً ما أتخيل حقل قمح، *يتمايل مع الريح هنا وهناك*، لكي أبرر لنفسي شعوري الدائم بعدم الارتياح وسط الطبيعة، ولكن بالفعل لم يكن لذلك سبب في الحقيقة سوى أني لم أكن أستطيع إنجاز أي شيء.

كنت قد وضعت الكتاب بالفعل جانباً واستلقيت في الغرفة المظلمة. كان جهاز التكييف يصدر أزيزاً خافتا، وبدأت أرقب تدريجياً، كيف رحت أغط في النوم. تحول باب الحمام إلى بيت أبيض على هضبة. كان شخص ما يحاول التنفس من أنفه، وعند سفح منحدر، على مسافة بعيدة تحتي، ردا على ذلك تحركت يد ملوحة بتذمر. تقلبت على الجانب الآخر وأسدلت إحدى الستائر على الفور. سقطت في مجرى غدير جاف، حيث كانت هناك شماعات ملابس وأحذية مطاطية ممزقة، فكوّرت جسدي متخذاً وضع النوم. كان المطر يهدر، كما اقترب أيضاً فيضان عارم ملتجاً، لكن دون أن يقترب أكثر. «لقد نسيت أن أكتب اسمي في دفتر الزوار!»

في الصباح التالي قبيل الظهيرة ركبت من محطة بنسيلفينيا قطار محطة بِنْ المركزية للسكك الحديدية إلى فيلاديلفيا.

مع أنني كنت لاأزال أتذكر، إلا أنني لم أعد أفهم الأمر: ومع ذلك

Twitter: @ketab_n

مر علي هذا اليوم بسرعة شديدة مثلما تمر الأيام في أفلام مصاصي الدماء. كان المرء يخطو داخل محطة قطارات تحت الأرض، حيث تستمر السلالم المتحركة في النزول إلى أسفل أكثر فأكثر، ويسير ـ إذ تدفعه آخر درجة في السلم المتحرك ـ مباشرة عبر باب مفتوح، ولا يكون متأكداً أنه في مقصورة القطار سوى حين يكون جالساً بالفعل، وبعد أن يتحرك القطار به. لمدة دقائق كان الظلام مخيماً أمام النوافذ، أثناء مرور القطار عبر أحد الأنفاق تحت نهر هدسون؛ وكذلك حين خرج إلى السطح مرة أخرى في نيوجيرسي، وغاص في طبيعة ضبابية، صارت أكثر عتمة بفعل النوافذ الداكنة. كانت المقصورة مضيئة، حتى أن أحرف الكتاب كادت تلمع، حين تقلب الصفحات؛ لكن كلما كان المرء ينظر خارج النافذة، كلما كانت السحب تبدو أكثر دكنة، وكلما كانت المنطقة تحتها تبدو بين نظرة وأخرى أكثر خلوّا: أكوام القمامة بدلاً من المباني، دخان أصفر بدا في الأفق، من دون مداخن، سيارة بلا إطارات وقفت مقلوبة على الأرض البور، غابات شيطانية متقاطعة، حيث تدلت الأشجار التي اقتلعت من جذورها جراء العواصف ذابلةً، من على الأشجار الخضراء، طيور نورس ضائعة في الخلاء على تلال رملية. بما أن شركة القطارات كانت قد أشهرت إفلاسها، مر القطار على محطات مهجورة، عبر مدن كانت مبانيها قد أبعِدت عن مسار القطارات، فبدت خالية ومهجورة. بعد ساعتين ونصف، حين كانت صفوف كاملة من المباني المغبرة ـ ذات النوافذ الممسمرة، والتي رسمت عليها لافتات سم الفئران ـ قد اقتربت حتى كادت تطبق على القضبان، حل الظلام في المقصورة كذلك، لدرجة أنه أفسد على المرء

Twitter: @ketab_n

رحلة الدخول إلى ذلك النفق، الذي وصل بالقطار إلى محطة فيلاديفيا الواقعة تحت الأرض.

سلالم متحركة مرة أخرى؛ ميدان كبير، كان بإمكان المرء أن يخطو إليه على الفور من دون أن ينزل أي درج. تلفتت حولي، أنظر إن كان أحد بانتظاري. قلت: «ليس عليكِ أن تختبئي. خلف أي عامود في المحطة وقفتِ تراقبينني؟ أنا أصلاً لا أريد أن أجدك!» قلت: «لا تبتزيني بطبيعتي. فليست الحساسية المفرطة تجاه الفزع من طبيعتي، أو على الأقل لم تعد كذلك منذ فترة. لم أعد مستسلما لها». قسّان من قساوسة الكويكر ـ كانا يرتديان تنورتين سوداوين لهما ذيلان طويلان، ويعتمران قبعتين بحواف عريضة ـ عبرا الميدان باتجاه إحدى السيارات، كان سائق أسود يقف أمامها، وفي حقيبة يده مذياع جيب صغير. لحق بهما ضابط بحري ـ كنت قد رأيته هو الآخر في القطار ـ فأراهما شيئاً ما. لم يومئا سوى بابتسامة فقط، بدأ أحدهما بالصد ملوحاً بيده، بينما كان الثاني قد ركب السيارة بالفعل. فجأة خرج مرة أخرى وأشار نحوي. أصابني الفزع. لوحوا لي، فسرت نحوهم ببطء. رفع الجندي ذراعه وهز الكاميرا الخاصة بي، كنت قد نسيتها في القطار.

سرت مع الجندي بعد ذلك عبر الميدان. لم يكن أي منا يعلم إلى أين. كان كلٌّ منا يرافق الآخر فحسب. التقطت صورة للجندي أمام تمثال بين ويليام، فوضعها بعد أن جفت في حافظة رسائله. في المقابل أخرج قصاصة من جريدة، أمسك بها من الأطراف كأنها وثيقة رسمية. كان فيها تقرير صحفي عن عودة الجندي إلى مدينته ريد وينج في ولاية مينيسوتا. كان قد تم تكريمه من قبل نادي المحاربين القدامى، وقد ألقى خطبة، وإن كانت ـ كما جاء في الجريدة ـ بسيطة، إلا أنها اتسمت بنبرة

Twitter: @ketab_n

من الطمأنينة جاءت مقتنعة للجميع. قال الجندي: «الحقيقة أنني لم أتحدث سوى عن أن بوب هوب كان قد زارنا مع صديقته ذات مرة. وحكيت لهم بعض النكات التي ألقاها علينا. لكن الأجواء كانت لطيفة، ولم يسألني أحد عن أي شيء». ثم أكمل الجندي حديثه: «كنت حينذاك أقود فريق الروك أند رول في ريد وينج. كنا نتدرب في البداية أنا وإحدى الفتيات في المنزل، ثم أدرت أغنية «JAILHOUSE ROCK» في جهاز الـ «Juke Box» ذات مرة في المساء، فبدأنا نرقص، كأننا أردنا أداء رقصة الفالس، وفجأة قذفتها من فوق كتفي». قال: «إن إلفيس بريسلي يبهرني، كان قد قضي في الخدمة العسكرية ما يزيد على عامين، وقد عاد الآن للعمل مجدداً. أنا شخصيا لا أحب العمل في القوات البحرية، لكنها مجرد وظيفة. ذات مرة رأيت عود قصب بارزاً في أحد المستنقعات. كانت هناك أعواد أخرى على مقربة منه كذلك، إلا أنها كانت جميعها تتحرك. كان ذلك العود الوحيد الذي لا يتحرك. بين الحين والآخر يتعين عليك قتل شخص ما، وإلا فستكون أنت المقتول». كان للجندي وجهاً مستديراً وثقبا أنف واسعين. كان يضع نظارات، تساقط عليها بعض القشر من حاجبيه. كانت شفتاه شاحبتين للغاية، وله سن ذهبية، وكان يتحدث بصوت خفيض، يتحول في نهاية كل جملة إلى غناء نغم، ويرتفع كأنه بحاجة لإيماءة بالموافقة لكي يكمل حديثه. خلع قبعته وأراني تصفيفة الشعر الخاصة بالروك أند رول من تحتها. انزلقت النظارات من فوق أنفه أثناء ذلك، فظهرت عيناه تنظران بلطف غير مبرر، وغير مبال، من دون أن تنتبها لي أصلاً. أدركت أنني ـ لأول مرة منذ وقت طويل ـ أستطيع مجدداً أن أمعن النظر في شخص ما بهذا القرب دون جهد. كان بإمكان *المرء* أن يرى هيبة الجندي. لكنني في

Twitter: @ketab_n

الوقت نفسه شعرت بالاستياء، لأنه راح في تلك اللحظة يحكي لي حكايته. كيف يقرر الجميع قص الحكايات علي أنا تحديداً دائماً؟ مع أنه لابد أن يكون الجميع قد لاحظوا ـ كما خطر لي ـ أنني لم أكن أبداً موافقاً. وبالرغم من ذلك تظل تُحكي لي باستمرار أكثر الحكايات غباءً بكل هذا القدر من الهدوء، كأنهم لا يستطيعون على الإطلاق أن يتصوروا أنني لن أستمع إليهم مثل أولئك المتواطئين معهم.

تساءلت بينما أكملت السير وحدي بحجة أنني أرغب في إجراء مكالمة هاتفية: «هل كان لايزال علي أن أعرّف بنفسي، لكي ينتبه المرء إليّ؟ ألا تتكشف الطريقة ـ التي أود أن أتعامل بها، وتلك التي أودّ ألا أتعامل بها باستمرار ـ سوى حين أتحدث وأعترض؟ ألن يكتشفها المرء من حركاتي، من طريقة تثبيتي لرأسي، من الطريقة التي أتلفت بها حولي؟ أم أنني لازلت أحتفظ بالإيماءات نفسها التي كانت لي في الماضي؟» خطر لي وأنا مستقل التاكسي إلى الفندق: «هل مازال عليّ أن أفكر في سلوك جديد بين الخطوة والآخرى؟ هل مازال المرء يلحظ عليّ أنني لازلت بحاجة للمفاضلة بين التعبيرات المتعددة أولاً؟ ربما لذلك يظنون أنني أتفق مع كل الآراء الممكنة؟» خطر لي بينما رحت أنظر إلى مدخل الفندق، حيث كان سائق التاكسي يسلم الموظف حقيبتي: «أو ربما يريدون فقط أن يفزعوني. ربما أكون أحد هؤلاء الناس الذين يبدو عليهم على الفور استعدادهم للتورط مع الآخرين في أية لعبة؛ أولئك الذين يفقد المرء تجاههم فوراً الحذر الذي يحتفظ به عادة عند التعرّف على شخص ما: والذين يتعامل المرء معهم على الفور بلطف، لأنه لا يوجد ما يدعو للخوف منهم، والذين يعجبهم كل شيء، بحيث يقبلون بأي شيء؟»

Twitter: @ketab_n

أرجعت رأسي لا إرادياً للوراء، مثلما يفعل المرء حين يصاب بنزيف في الأنف: كانت السماء الآن مشرقة، أما أنا فقد أصابني شعور بالخوف من أن يحل المساء بسرعة أكبر. ما كدت أركب القطار في الصباح، وأتمشى قليلاً مع الجندي حول الميدان، إلا وكان الوقت قد مّر، حتى صرنا في وقت متأخر بعد الظهيرة: أخذ الظل يصير أطول، حين تظهر الشمس مرة لفترة قصيرة، وذلك فقط كعلامة على أن العتمة صارت وشيكة، وسوف يختلف معنى كل شيء. لحقني الشيّال على الطريق الذي اتخذ مساراً طويلاً جداً حتى يصل بنا إلى مكتب الاستقبال، بينما راودني شعور كأن قدمي التي أخطو بها إلى الأمام صارت خفيفة جداً، والقدم التي تتراجع للخلف ثقيلة جداً. ملأت إذن استمارة البيانات فحسب واضطررت للانتظار في المصعد طويلاً حتى تم دفع شخص على كرسي متحرك إلى داخله؛ لكن حين وصلت للغرفة، كانت الشمس قد غربت بالفعل. خرجت من الحمام فكانت العتمة قد خيمت، وحين كنت قد علقت المعطف في خزانة الملابس ـ ربما بطريقة أكثر اعتناءً مما كنت أفعل في أوقات أخرى ـ ثم استدرت، كان الظلام قد حل.

قلت: «أيها *الشيء*! سأسحقك سحقاً، سأسحقك سحقاً، سأسحقك سحقاً! رجاءً لا تدعيني أعثر عليكِ، أيتها *اللاشيء*. لن يكون في صالحكِ أن أعثر عليكِ».

كان شخص ما يضرب يلوّح غاضباً، تم حمله إلى خارج المبنى، جريت إلى هناك، ورحت أرقب، كيف كان يختنق أمام الباب، «بسبب حبوب لقاح الأزهار!»، انزلق شخص آخر كان يمسك به وسقط على

Twitter: @ketab_n

الأرض، فساعدته على حمل الميت إلى داخل المبنى، ثم ذهبت بهدوء، وسرى في جسدي ألم حاد من الرأس حتى أخمص القدم، إذ كنت قد دُست على حجر ـ وإن لم يكن مدبباً ـ وأنا حافي القدم. حينئذٍ همست بعض النساء خلفي بخبر وفاة شخص ما بحذر، بحيث لم تتهامسن حقاً، بل أصدرت ثيابهن فقط بعض حفيف، ظهرت عينا سلحفاة من أحد المستنقعات، وراح مقبض أحد الأبواب يتحرك صعوداً وهبوطاً، لنَقُل بلطف؟، مددت ساقي العاريتين واصطدمت بنبات القرّاص. في تلك اللحظة هرعت سحلية في مرمى بصري. لكنها لم تكن سوى لافتة الفندق على مفتاح الباب الذي كان لايزال يتأرجح يمينا ويسارا على الباب. قلت: «لم أعد أريد البقاء وحدي».

في **فونيكسفيل** غربي فيلاديلفيا كانت تسكن امرأة، كنت قد أرسلت إليها أنني ربما أزورها. كان اسمها كلير ماديسون. كنا قد تضاجعنا مرة، قبل ثلاثة أعوام، حين جئت إلى أمريكا للمرة الأولى. لم نكد نتعارف، ولأنني كنت متهوراً، كثيراً ما كان عليّ أن أعيد التفكير في الأمر أكثر من مرة.

بحثت عن اسمها في دليل أرقام الهاتف، واتصلت بها. سألتني: «أين أنت؟» أجبت: «في فيلاديلفيا». قالت: «سأذهب غدا مع ابنتي بالسيارة إلى سانت لويس. هل تريد أن تأتي معنا؟» اتفقنا على أن آتي غدا قرب الظهر إلىٰ فونيكسفيل؛ على أن ننطلق بعد قيلولة الطفلة وقت الظهيرة.

أنهت المكالمة بسرعة، وبقيت أنا جالساً بجوار الهاتف. على المنضدة الصغيرة بجوار السرير كانت هناك ساعة إلكترونية صغيرة.

Twitter: @ketab_n

خرج شعاع ضعيف من شاشة إظهار الأرقام في الغرفة المعتمة. كل دقيقة كان صوت نقر خافت يصدر كلما تغير أحد الأرقام. سحبت قابس الساعة، بحيث صارت الغرفة مظلمة تماماً. كانت كلير تبلغ من العمر حوالي ثلاثين عاماً، حين تقابلنا للمرة الأولى. كانت طويلة القامة، لها شفتان غليظتان، كانتا حين تبتسم لا تنفرجان، بل تضيقان قليلاً. كان وجهها أيضاً كبيراً، لم يكن من اللائق مداعبتها. لم يكن عناقها أمراً ممكنا على الإطلاق. لم تكن تتحدث أبداً عن نفسها، كما أنني أنا أيضاً لم يخطر ببالي أنه من الممكن قول أي شيء عنها. كان حضورها طاغياً، بحيث لا يتبقى شيء يقال بعده. كنت أتحدث معها إذن عن نفسي أو عن الأشياء الموجودة أمام النافذة، كانت تلك هي فرصتنا الوحيدة لإبداء الودّ. أي شيء آخر كان ليصير تجاوزاً، كان ليثقل علينا فحسب. في اليوم الأخير جئت إليها، فنادت عليّ من الداخل فحسب لكي أدخل، فالباب مفتوح: هذا الباب المفتوح، والطريقة التي اتكأت بها على الباب، متجهة إلى غرفة أخرى حين دخلتُ، وردت بترتيب كأنها جاءت في حلم، كإشارة لأن أقترب منها وأعانقها، وأن أدس أحد ساقي كذلك بين ساقيها. توقفت حين فكرت في الأمر، ثم جلست مرة أخرى، وضغطت جفوني مغمضا عيني بشدة، حتى آلمتني. وهذه الهمهمات الطويلة بعدها، إلى أن خلعت ملابسها! كنا واقفين، يتحاشى كل منا الآخر، نتحدث إلى بعضنا بنبرة غريبين، ثم كان كل منا يطيل النظر للآخر، في صمت، بنظرات عميقة ولكن خاوية، ثم نعود ندلل بعضنا مرة بعد أخرى، حتى نسعل بصوت عال من فرط النهم، ثم كنا مع ذلك في كل مرة ننسل من بعض في حيرة، ينظر كل منا للآخر، من الساقين حتى العينين، ثم كنا يضطر كل منا لتحاشي الآخر مجدداً،

Twitter: @ketab_n

ليتمتم أحدنا مرة أخرى بذلك الصوت المستعار، حتى يحتويه الآخر بإحدى تلك المداعبات المتكلفة. في حين لم يكن الباب الذي كانت تتكئ عليه سوى باب ثلاجة أمريكية ضخمة! بعد ذلك حدث من تلقاء نفسه أثناء مداعباتنا الفاترة، أن تسلل عضوي إلى داخلها. كان لايزال عليّ أن أذكر اسمها، لكنني لم أستطع. كانت تدَرّس اللغة الألمانية في أحد المعاهد. وكان أبوها قد استقر بعد الحرب في هايدلبرغ، وبدلاً من أن يدعوها لتلحق به، كان فقط يكتب في خطاباته دائماً، إن عليها أن تتعلم الألمانية. ظلت متزوجة لفترة من حياتها. لم تكن طفلتها ابنتي.

وقت متأخر من الليل، كانت الغرفة مرتفعة، في الطابق الأخير، فلم تعد أضواء الشارع تصل تسطع فيها، كانت المباني عبارة عن مبانٍ إدارية داكنة؛ لم تعد بداخلها عاملات النظافة. مرة واحدة فقط سطع ضوء متوهج بين الجدران، حين حلقت طائرة على مستوى منخفض جداً فوق المباني بأضواء الملاحة ذات الوميض المتتابع. اتصلت ببعض من تلك الفنادق في فيلاديلفيا، التي كانت أسعارها مرتفعة، إذ يمكن أن تكون يوديت مقيمة فيها: فندق شيراتون، فندق فارفيك، فندق أديلفيا، فندق نورماندي. حينئذ فقط خطر لي أنها ربما تكون مقيمة هنا في هذا الفندق، فاتصلت بمكتب الاستقبال. كانت قد أقامت في فندق باركلي، إلا أنها كانت قد غادرت قبل يومين. لم تكن قد تركت شيئاً، ولا نسيت شيئاً كذلك؛ كان الحساب قد تم دفعه نقداً.

استشطت غضباً؛ ثم زال الغضب، ثم أصابني رعب أخذ يشتد، إذ بدت الأشياء في الغرفة كأنها ترفرف بأجنحة خفافيش. ثم زال الرعب أيضاً، ثم شعرت بضجر شديد، لأنني لازلت الشخص نفسه الذي طالما كنته، وأنا لا أستطيع أن أعرف كيف أساعد نفسي. طلبت بعض

Twitter: @ketab_n

الخبز من المطبخ، ومعه النبيذ الأحمر الفرنسي، أضأت كل أنوار الغرفة، فصارت كما لا يراها المرء سوى في صور إعلانات الفنادق. حتى الحمام أضأت أنواره. حين دخل النادل، جارًّا العربة التي كان الخبز وزجاجة النبيذ الأحمر موضوعَين عليها بطريقة عجيبة جنباً إلى جنب، أدرت التلفاز الملون كذلك. كنت آكل وأشرب وأنظر إليه بين الحين والآخر، حين كانت امرأة في الفيلم تصرخ، أو حين كان يدوم الصمت لفترة أطول من اللازم. تارة ـ حين عدت مرة أخرى لا أفعل سوى الاستماع لأزيز الجهاز ـ رفعت عيني ورأيت في خلفية مشهد من الفيلم، صفاً من المباني الخاوية، كانت بينها بعض المباني الألمانية القديمة: في صدارة الصورة مر وحش فجأة على مقربة، لدرجة أنك لا ترى منه سوى الرأس. من حين لآخر كان رجل بطاقية طباخ يعلن عن عشاء جاهز يتكون من خمسة أطباق، يمكن وضعه ببساطة في كيس من السيلوفان في الماء المغلي، ثم كان يخرجه بعد بضع دقائق؛ استعرض الرجل أيضاً كيف كان يقص الكيس فيفتحه، ثم جعلهم يصورون أصناف الطعام من القريب، وهي تنزلق منه الواحدة تلو الآخرى، والأبخرة تتصاعد منها على طبق ورقي. لاحقاً كنت فقط أشرب النبيذ وأشاهد على قناة أخرى فيلما للرسوم المتحركة، حيث نفخت قطة علكة حتى انفجرت فاختنقت القطة. كانت تلك أول مرة أشاهد فيها كيف يموت أحد في فيلم للرسوم المتحركة.

بعد ذلك عنّ لي أن أخرج. تركت التلفاز يعمل، والأنوار مضاءة ونزلت. كانت الحانة مغلقة إذ كان اليوم الأحد، فخرجت إلى الشارع. كانت شوارع فيلاديلفيا موازية لبعضها، أما الشارع الذي يتقاطع مع الآخر فكان يقع دائماً على الزاوية اليمنى. سرت إلى الأمام، ثم حدت

Twitter: @ketab_n

في شارع شيست نَتّ الذي كان أحد الشوارع الرئيسية، ثم استكملت السير إلى الأمام. كانت الشوارع كلها هادئة. في إحدى صالات الموسيقى قابلت الجندي مرة أخرى؛ وقد بدا ثملاً بالرغم من عدم وجود خمور هنا. كان متكئاً على الحائط ينظر إلى من يرقصون، وكانوا جميعهم في سن الشباب. لم يعد مرتدياً الزي الرسمي، بل كان يرتدي سترة جلدية، وكانت النظارات موضوعة فيها أيضاً. أومأت له بالتحية، فلوّح لي، لكن لم يبد أنه تعرف عليّ. جلست على طاولة في الظلام ـ ومعي شراب داكن، له مذاق لاذع، أُطلِق عليه «روت بير» ـ ولم أستطع أن أبعد نظري عنه.

كان جميع أعضاء الفرقة الموسيقية قد انسحبوا جميعاً، فيما عدا المغني. أمسك حينئذٍ بقيثارة معدنية، وجلس على كرسي مرتفع أمام الميكروفون. بدأ يغني وحكى قصة كان قد خبرها بنفسه. لم يعد أحد يرقص، بل وقف الجميع حوله ينصتون إليه. حكى عن فتاة بلهاء، اغتصبها المزارع الذي كانت تعمل عنده، فأنجبت طفلاً. قال المغني بينما ضرب أوتار الجيتار ـ «وكنت أنا هذا الطفل!» ـ الذي استمر يعزف، بينما أكمل المغني حكايته: «وضعت الطفل، عندما ذهبت تحضر من البئر ماءً، لفته في المئزر وحملته إلى البيت، وقد نشأتُ أنا بوصفي ابن المزارع وامرأته. ذات يوم تسلقت فوق أحد الأسوار (قال المغني: I climed up the Virginia fence) وظللت عالقاً. فجاءت البلهاء تجري، هي التي لم تكن تستطيع حتى الكلام، وساعدت الطفل على النزول. فقال الطفل لامرأة المزارع: «إيه، يا أمي، لماذا هي ناعمة إلى هذا الحد يدا البلهاء؟» «كانت تلك البلهاء هي أمي!» هكذا صرخ المغني. رفع القيثارة، وكوّر جسده، وبدأ يعزف مقامات طويلة مرتعشة ومتتابعة».

Twitter: @ketab_n

اضطرب الجندي فجأة حين صارت الموسيقى أكثر حدة، وأقل احتمالاً. رفع ذراعيه كأنه أراد أن يتمطى. لكنه رفع شيئاً أثناء ذلك، إلا أنه لم يصل به إلى ما فوق رأسه: تعثرت يداه واطبقتا على بعضها مرتعشتين. أغمض عينيه بشدة حتى بدأت مقلتاه ترتعشان أيضاً. بعناد شديد صدم رأسه إلى الناحية، وأخذ يهز كتفه محاولاً ضرب أذنه. فغر فاه، وراح يصر بأسنانه. كل حركة كان يبدأها، كانت حركة مضادة تتداعى عليها على الفور بالقوة نفسها. صار وجهه منبعجاً، وصار رأسه ملتوياً، يكاد يستعد ليقفز من على رقبته إلى الوراء. ثم ظل الجندي يحاول ـ المرة تلو الأخرى ـ رفع حمولة ما إلى أعلى؛ كل مرة كانت ذراعاه تكافحان لبلوغ الكتفين، فتبدأ عندئذٍ ترتعش، ثم تسقط متخبطة إلى الوراء قليلاً، تلتقط بعضها مجدداً بما تبقى لديها من مجهود عضلي، فقد بدا حتى سقوط الذراعين إلى الوراء بالنسبة للجندي كأنه عمل شاق. رفع بعد ذلك إحدى ركبتيه، وضم رأسه إليها، ثم حك جبهته فيها. كانت حبات العرق تجري من تحت سوالفه الطويلة، وصارت لثته شاحبة من كثرة اللعاب عليها، ومع ذلك ظللت أنظر إليه باحترام وعطف. لم تكن نشوته مفتعلة، ولا فيها استعراضية، ولا مغشوشة، مثل حركات الآخرين، الذين عادوا في تلك الأثناء إلى الرقص، وإنما كانت قد باغتته، ولم يكن يعلم بعد إلى أين يذهب بها. لم يعد يستطيع الكلام، ولا حتى التأتأة، هكذا كان يحاول التنفيس عن نفسه، فراح يتصرف كأن وحشاً من عصور ما قبل التاريخ يحتضر بداخله. حينئذٍ هدأ فجأة وأمسك بسكين في يده. قام شخص كان يراقبه بصفعه فوراً على ساعده، فسقط السكين على الأرض. لم يهتم سوى القليلون بمشاهدة كيف تم طرد الجندي إلى الخارج.

Twitter: @ketab_n

عدت بعد ذلك إلى الفندق وقرأت المزيد عن هاينريش الأخضر، كيف بدأ يحاكي الطبيعة بالرسم، ولا يزال لا ينتقي سوى المهمش والغامض فيها. كان يريد أن يتغلب على الطبيعة ـ من خلال إضافة بعض جذوع شجر الصفصاف الممزقة، وبعض الأشباح من الحجارة ـ لكي يجعل نفسه كمراقب أكثر إثارة. كان يبتدع أشجاراً وأحجاراً لها وجوه عبوسة مثيرة، ويرسم أشكالاً مهترئة عجيبة كزخارف داخل اللوحة، لأنه لم يكن يعرف عن نفسه سوى القليل، إذ لم تستطع الطبيعة الموجودة أمامه أن تفصح له عن أي شيء. في البداية لفت نظره قريب له ـ كان قد عاش حياته كلها وسط الطبيعة ـ إلى أن كل الأشجار التي كان يرسمها تشبه بعضها، بينما لا تشبه ولا واحدة منها أية شجرة حقيقية. «هذه الأحجار والصخور لا يمكن أن تستقر فوق بعضها هكذا دون أن تنفرط!» أوكله قريبه عندئذٍ مهمة رسم ممتلكاته، وإن كان قد تحدث بنبرة المالك، إلا أن هاينريش كان مع ذلك مجبراً على أن يمعن النظر إلى شكل الأشياء بدقة أعلى. حينئذٍ أعطته أقل الأشياء تعقيداً ـ حتى قرميد سطح المنزل ـ الكثير مما يمكن إنجازه، بل أكثر بكثير مما كان ليتصور. خطر لي مرة أخرى، أن رؤيتي أنا أيضاً للعالم المحيط كانت مشوهة: حين كنت أضطر لوصف شيء ما، لم أكن أعرف أبداً كيف كان شكله، ربما كنت على أقصى تقدير أتذكر بعض الأشياء غير الاعتيادية، بل كنت ـ إن لم أجد شيئاً منها ـ أبتدعها. لذلك كان عادة ما يظهر في وصفي أشخاص شديدو الضخامة، في وجوههم بعض الوحمات الخمرية، ويتحدثون بأصوات حادة مستعارة. فيما كان معظمهم غالباً هاربين من العدالة، جلسوا ساعات طويلة تحت المطر على جذع شجرة في الغابة، وراحوا يقصون حكايتهم للريح. كنت أرى الكسحان،

Twitter: @ketab_n

والعميان، والبلهاء على الفور، لكنني لم أكن أستطيع أبداً وصفهم وصفاً تفصيلياً. كنت أهتم بالأطلال أكثر من اهتمامي بالمباني. كنت أحب زيارة المقابر، وأعدّ كل قبور المنتحرين، المكتوبة أسماؤهم على سور المقبرة. كان بإمكاني أن أمكث طويلاً مع شخص ما، فإذا خرج وعاد لا أتعرف عليه مرة أخرى؛ كنت ألاحظ على الأكثر أن في وجهه بثرة، أو أنه كان يلثغ. لم أكن أأبه سوى بكل ما هو شاذ أو بما يعدّ من العادات السيئة، فيما عدا ذلك كنت أغض بصري، وأضطر للتخيل حين يكون عليّ أن أحكي عن ذلك؛ ولأن الخيال أيضاً لم يكن يعلم شيئاً، كنت أضفي على كل شيء أوصافاً مكذوبة، مثل التي تكون في وثائق السير الذاتية. تحل تلك الخصائص المميزة محل مناظر طبيعية بأكملها، وعلاقات، ومصائر. فقط مع يوديت ـ التي بدأت معها لأول مرة أعيش خبرة ما ـ صار عندي رؤية للعالم، لم تعد هي نفسها تلك الرؤية البائسة الأولى. توقفت عن جمع الخصائص، وبدأت أصير أكثر حِلماً.

نمت دون أن أطفئ الأنوار، بحيث أشرقت الشمس في عيني داخل الحلم. ذات مرة كنت منتظراً عند أحد التقاطعات؛ توقفت سيارة بجواري، فانحنيت إليها على الفور ورفعت بيدي مسّاحات الزجاج. مدت امرأة جسدها من على المقعد الأمامي ودفعت بها إلى الأسفل ثانيةً، بينما أشارت إلى السماء، فأدركتُ أن الشمس كانت ساطعة. ضحكت، وبادلني السائق ـ وكان فرنسياً ـ الضحك، ومع ذلك ـ وكأنما كان هذا حلماً مرعباً ـ استيقظت وكان عضوي منتصباً، لكنني لم أكن مستثاراً، فأطفأت الأنوار. قبيل الصباح تقريباً صفق أحد بيديه بقوة، فصحت: «نعم!» وقفزت من السرير. بينما لم يكن هناك سوى حمامة، كانت ترفرف بجناحيها أمام النافذة.

Twitter: @ketab_n

كانت فونيكسفيل مدينة صغيرة، لا يزيد عدد سكانها عن حوالي خمسة عشر ألف، تبعد حوالي ثلاثين كيلومتراً قبل فيلاديلفيا. تفاوضت مع سائق التاكسي على السعر وانطلقت بعد تناول الإفطار مباشرة. توقفنا في طريقنا على طريق المحافظة السريع مرة، فاشتريت من متجر يبيع بأسعار مخفضة بضعة أفلام للكاميرا البولارويد، كانت تباع هنا بنصف الثمن الذي تباع به في المطارات، كما اشتريت للطفلة آلة الهارمونيكا. لو كنت اشتريت شيئاً لكلير كان ذلك ليشعرها بالحرج. لم يخطر ببالي أي شيء يمكن أن يناسبها، ولم أستطع كذلك أن أتخيلها بأي شيء في يدها. كانت ستبدو كأنها تبالغ في الأمر. ومع ذلك فقد كانت لتوها تحمل حقيبة سفر إلى السيارة، حين توقف التاكسي أمام منزلها في شارع جرين ليف. كانت السيارة من نوع Oldsmobile، وكان بابها الخلفي مفتوحاً. كانت الطفلة تروح وتجيء ببلاهة أمام كلير حاملةً حقيبة أدوات الزينة. كان باب المنزل مفتوحاً أيضاً، وكانت بضع حقائب أخرى موضوعة أمامه، وكانت الحشائش أمام المنزل لا تزال تلمع بفعل الندى.

نزلت من التاكسي، وتوجهت أنا أيضاً بحقيبتي إلى سيارتها. ألقينا على بعضنا التحية، وأدخلت أنا الحقيبة على الفور في السيارة. ثم أحضرت بقية الحقائب من أمام باب المنزل، فحملتها عني ووضعتها أيضاً بالداخل. صرخت الطفلة، مشيرةً إليها بأن تغلق باب السيارة الخلفي. كانت بنتاً تبلغ حوالي عامين، وكان اسمها ـ لأنها ولدت في نيو أورليانز ـ دلتا بنيدكتين. سحبت كلير غطاء صندوق السيارة إلى أسفل، وقالت: «لا يمكن أن تدع شيئاً مفتوحاً، حين تكون معك بينيديكتين. فإنها تصاب بالفزع على الفور. بالأمس بدأت تصرخ فجأة

Twitter: @ketab_n

ولم تعد تستطيع التوقف، حتى اكتشفتُ أخيراً، أن أحد أزرار قميصي كان مفتوحاً». حملت الطفلة على ذراعها، إذ لم ترد أن تمشي في حضوري، ودخلنا إلى المنزل. وأغلقت أنا الباب.

قالت كلير: «لقد تغيرتَ. إنك تبدو أقل قلقاً. لم يعد يزعجك أنك ترتدي قميصاً متسخاً. قبل ثلاث سنوات كنت دائماً تأتي بقمصان بيض، كل مرة بقميص جديد، لم تزل الطيات واضحة على صدره. والآن تأتي ثانيةً، مرتدياً نفس المعطف الذي كنت ترتديه آنذاك، ذلك المحشو بالحرير الصناعي».

قلت: «لم تعد لدي الرغبة في شراء ملابس جديدة. أكاد لا أهتم بالمصروفات. في السابق كنت أودّ أن ألبس شيئاً جديداً كل يوم، الآن أرتدي نفس الشيء لشهور متتالية. أما فيما يتعلق بالقميص، فلم تكن خدمة الغسيل متوفرة في الفندق بالأمس».

سألت كلير: «وماذا في الحقيبة؟»

قلت: «غسيل وكتب».

سألت: «هل تقرأ حالياً؟»

أجبتها: «هاينريش الأخضر، للكاتب جوتفريد كيللر».

لم تكن قد قرأت الكتاب، فقلت أنني سوف أقرأ عليها بعض مقاطع منه ذات مرة. قالت: «ربما الليلة؟ قبل أن ننام؟»

سألتُ: «أين سيكون ذلك؟»

قالت: «في دونورا جنوبي بيتسبورغ. أعرف فندقاً صغير هناك، حيث يمكن للطفلة أن تنام في هدوء. أرجو أن نصل إلى هناك، فهو

Twitter: @ketab_n

على بعد حوالي ثلاثمائة ميل، وتقع جبال أللّيغاني في منتصف المسافة، ألا تزال لا تجيد قيادة السيارات؟»

قلت: «كلا. لم أعد أريد أن يمتحنني أحد. لم أعد أحتمل أن يطرح عليّ أحد الأسئلة، فيستطيع أن يجعل شيئاً يعتمد على إجابتي. في السابق، قبل عشرة أعوام، كنت لأقبل أن يختبرني أحد، حتى وإن صاحب ذلك شعور بالغضب والاشمئزار. أما الآن فلم أعد أرغب في ذلك».

قالت كلير: «إنك تتحدث كثيراً عن «سابقا» و«الآن»».

أجبت بينما اضطررت أن أضحك: «سبب هذا أنني لا أستطيع انتظار التقدم في السن».

سألت كلير: «كم يبلغ عمرك؟»

قلت: «بعد ثلاثة أيام سوف أبلغ الثلاثين».

قالت: «في سانت لويس!»

أجبت: «نعم. ولا أكاد أستطيع انتظار ذلك».

ـ «الوصول إلى سانت لويس أم بلوغ الثلاثين؟»

قلت: «بلوغ الثلاثين، والوصول إلى سانت لويس».

أعطت الطفلة بعض الطعام، بينما دخلت أنا إلى الحمام وغسلت شعري. ولأنها كانت قد وضعت مجفف الشعر بالفعل في الحقيبة، جلست بشعري المبلول على الحشائش أمام المنزل. بدا لي بديهياً جداً أن تكون الشمس مشرقة في ذلك اليوم.

حين عدت إلى داخل المنزل، كانت هي تخلع عن الطفلة ملابسها

Twitter: @ketab_n

وتنظر إليها. ألبستها ملابس النوم وأدخلتها إلى السرير في غرفة أخرى. سمعت صوت الستائر وهي تسدلها. خرجت إلي، وأكلنا بعض اللحم البقري المشوي مع الفطائر وشربنا البيرة. سألتني: «ألا زالت النمسا لا تعجبك؟»

أجبتها: «صرت الآن أحب الذهاب إلى هناك. لقد أدركت أن الأمر كان قد وصل بي إلى درجة أنني كنت أشكّ في وجود أنظمة الإشارات المعروفة هناك. ولكّن بلى، دون هزل، لقد رأيت بالفعل لافتات المرور نفسها، والأقماع نفسها، وأسنان المسامير الملولبة نفسها، هناك كما في أي مكان آخر. كنت حقاً مذهولاً لوجود مطاعم ومتاجر وشوارع أسفلتية. كل شيء كان متاحاً. ربما كنت مذهولاً، لأنها بلاد منشأي منذ طفولتي، ولأنني في طفولتي لم أنتبه لأيّ من تلك الأشياء، أما ما انتبهت إليه فلم يكن متاحاً لي. حتى الطبيعة التي طالما كانت تجعلني متوتراً وغير راضٍ، صرت أنظر إليها تدريجياً بعين مختلفة». في الأصل كنت أريد قول شيء آخر، لكنني توقفت عن الكلام.

بعد ذلك نظفت المنضدة وأحضرت لنفسي زجاجة بيرة من الثلاجة. حكت كلير أن لديها عطلة من المعهد، وأنها كانت تودّ زيارة بعض الأصدقاء في سانت لويس. قالت: «هما عاشقان!» بالإضافة إلى ذلك كانت هناك فرقة مسرحية مكلفة من قبل وزارة الخارجية الألمانية، بدعوة من جامعة سانت لويس، لعرض بعض المسرحيات الألمانية الكلاسيكية التي لم تكن قد شاهدتها على المسرح من قبل، وقد أثار هذا فضولها.

كنت أريد أن أساعدها في غسل الأطباق، ولكن صارت لديها الآن

Twitter: @ketab_n

غسالة أطباق، تصفُّ فيها الأطباق وراء بعضها. جعلتها تشرح لي كيف تعمل الغسالة. قالت: «مع ذلك تظل هناك بعض الأشياء التي لابد من غسلها باليد، مثل أدوات الطعام المطلية بالفضة مثلاً، والأواني والمقالي الكبيرة التي لا يناسب حجمها الغسالة. على كل حال لا توجد لدي أدوات طعام فضية، لكن لأنني كثيراً ما أقوم بطهو الطعام للأسبوع كله وأجمده في الثلاجة، فإنني أضطر في معظم الأحيان لاستخدام الأواني الكبيرة». أرتني الشوربة المجمدة في الثلاجة، قالت: «يمكن أن تبقى هكذا حتى آكلها في الخريف». راودني فجأة شعور بأنه يمكن ألا يحدث أي شيء حتى يأتي الخريف وحتى تقوم هي بتذويب الشوربة.

حين توقفت غسالة الأطباق، أخرجنا الأطباق وأعدنا رصّها في أماكنها. لم أكن أستطيع ذلك من قبل، لكنني حين تجولت حاملا الأشياء في يدي، صرت أعرف بالفعل مكان كل شيء على حدة. رميت زجاجات البيرة في مجرى القمامة، ثم أدرت جهاز الاسطوانات الموسيقية، من دون أن أنظر أية اسطوانة كانت موضوعة عليه. خفضت كلير صوته، وهي تشير نحو الباب، الذي كانت الطفلة تنام خلفه. كانت الاسطوانة تحمل اسم «She Wore A Yellow Ribbon»، وكان شخص يعزف على المزمار بعض الألحان من أفلام جون فورد. صحت: «كنت قد سمعت الشيء نفسه من جوقة إحدى الكنائس في بروفيدنس!» قلت ذلك ثم أعدت القول بصوت خفيض، كأن كلير لم يكن بوسعها فهم الجملة بذلك الصوت المرتفع.

كانت تتجول هنا وهناك حافية القدمين، تلملم بعض الأشياء الأصغر حجماً، إبر حياكة، وأدوية ربما تحتاجها الطفلة، وميزان حرارة،

Twitter: @ketab_n

وشهادة تطعيمات الطفلة، وقبعة من القش للحماية من الشمس. ثم غلَت شراب الشمر مع ماء الصودا للطريق. كان الجلوس بجوارها أثناء ذلك يشعرني بالراحة؛ كذلك كان كل شيء يُشعِر بالأمان الشديد!

دخلَت إلى إحدى الغرف، وحين عادت من غرفة أخرى، رفعت نظري إليها فلم أعد أعرفها. كما أنها ـ وإن كان هذا لا علاقة له بالأمر ـ كانت ترتدي ثوباً مختلفاً. خرجنا أمام المنزل، فاستلقت هي على أرجوحة شبكية، وجلست أنا على كرسي هزاز وأخذت أحكي، ما كنت قد مررت به في الأعوام الثلاثة الماضية.

حينئذٍ سمعنا الطفلة تصيح من الداخل، دخلت كلير وألبستها ثيابها، بينما ظللت أنا جالساً أتأرجح إلى أعلى وإلى أسفل. لاحظت أن بعض ملابس الطفلة كانت لاتزال منشورة على حبل الغسيل، فوضعتها ـ دون أن أخبر كلير ـ في الحقيبة التي كانت قد وضعت فيها الأشياء الصغيرة الأخرى. كانت عدوى أجواء البهجة قد أصابتني. أجلسنا الطفلة في السيارة على الأريكة الخلفية، وانطلقنا مغادرين فونيكسفيل.

في الطريق إلى طريق ٧٦ السريع تذكرَت ملابس الطفلة، فأشرت لها إلى الحقيبة، حيث كنت قد وضعتها. قلت: «لقد أوقفت جهاز الاسطوانات وغلاية الماء كذلك».

يسمى طريق ٧٦ السريع من فيلاديلفيا إلى بيتسبورغ بنسيلفينيا تورنبايك، ويمتد لأكثر من خمسمائة كيلومتر. وصلنا إليه عبر طريق ١٠٠ الدولي عند بوّابة تحصيل الرسوم الثامنة، لدى دونينج تاون. كانت كلير تحتفظ بعلبة بجوارها فيها نقود معدنية، لتلقي بها من النافذة عند كل بوابة من بوابات تحصيل الرسوم بسرعة في الماكينة، دون أن توقف

Twitter: @ketab_n

السيارة تماماً. في الطريق إلى دونورا كنا قد مررنا بخمس عشرة بوابةً، فكان على كلير في المجمل دفع ما يزيد على خمسة دولارات في تلك الماكينات.

كنا نتحدث قليلاً، ثم صرنا نتحدث فقط للطفلة التي راحت تسأل عن كل ما تراه وسط المناظر الطبيعية. كانت السماء صافية، وكانت نباتات الجنجل والذرة الصغيرة قد أنبتت في الحقول. كان الدخان يتصاعد خلف الهضاب، حيث كانت المناطق السكنية الكبيرة. ورغم أن كل قطعة أرض بدت كأن أحداً قد حرثها للتو، كانت المناطق خالية من البشر، كأنها محاكاة للطبيعة البكر. كذلك في الشارع الذي بدا كأنه جديد، لم يكن هناك ولا موقع واحد لأعمال البناء، كان الأسفلت يلمع في صمت؛ والسيارات تسير ببطء، بما لا يزيد على سرعة مئة كيلومتر في الساعة على الأكثر. مرة واحدة حلقت طائرة تابعة للقوات الجوية على مستوى منخفض فوقنا، ملقيةً علينا بظل كبير، لدرجة أنني ظننت أنها ستسقط. بدت الرياح البعيدة أضعف مما كانت بين الشجيرات الكثيفة القريبة منا. سرب من الطيور البيضاء كان لتوه يغير مساره، فاستحال لونه داكناً فجأةً. كان الهواء صافياً ونقياً، بالكاد كانت حشرة ترتطم بزجاج النوافذ. بين الحين والآخر كنت أرى جثث حيوانات مدهوسة على الطريق، قطط وكلاب تمت إزاحتها على جانب الطريق، أما القنافذ فقد تُرِكت ملقاة وسط الشارع. شرحت كلير للطفلة أن الكرات المعدنية الكبيرة فوق المزارع كانت توضع فيها المياه.

انتابتني رغبة في التقاط بعض الصور، رغم أنه لم يكن هناك شيء كثير يُذكر، فالتقطت صوراً كثيرة متتالية، لم تكد تختلف عن بعضها في شيء. ثم التقطت صورة للطفلة وهي واقفة تشاهد المناظر من السيارة

Twitter: @ketab_n

بالخلف. في النهاية صورت كلير أيضاً، بينما رجعت إلى الوراء مبتعداً عنها قدر المستطاع، إذ لم تكن الكاميرا تلتقط المناظر القريبة، وقد استنفذت بذلك أيضاً آخر فيلم فيها، بينما لم نكد نتجاوز هاريسبورغ. صففت الصور على الزجاج الأمامي، ورحت أنظر إلى الخارج أحياناً ثم أعود أنظر إليها.

قلت لكلير، متعجباً من وجود ما يمكن قوله عنها: «أنت أيضاً تغيرتِ»، وأشرت إلى إحدى صورها: «تبدين وكأنك تفكرين مع كل خاطرة فيمَ ستفكرين فيه بعد ذلك. في السابق كنت تبدين شاردة تماماً، بل تبدو عليك البلادة، أما الآن فقد صارت لك نظرة صارمة، وصرت تبدين قلقة نوعاً ما».

ـ «نوعاً ما؟»

أجبتها: «نعم، نوعاً ما قلقة، فلا أستطيع قول ذلك بطريقة أدق. إنك تسيرين بسرعة أكبر، وتتحركين بخفة أكثر، وتتقدمين بخطى أكثر ثباتاً، وتتحدثين بصوت أعلى، وتحدِثين مزيداً من الضجيج. كأنك تريدين صرف انتباه الناس عنك».

جاء ردها بزمَّارة فحسب، ولم تقل شيئاً عدا ذلك. بعد وقت قليل طلبت منا الطفلة ـ إلتي كانت تنصت إلينا ـ أن نستمر في الحديث.

قالت كلير: «لقد صرت أنسى أكثر من ذي قبل، أو كلا: إنني فقط أتذكر أقل. أحياناً يحكي لي أحد عن شيء كنا قد فعلناه معاً قبل بضعة أيام، لكنني لا أريد أن أتذكر على الإطلاق».

قلت حين توقفت عن الكلام: «أما أنا فمنذ جئت إلى هنا ـ إلى أمريكا ـ وأنا أتذكر أكثر فأكثر. لست بحاجة هنا سوى لأن تطأ قدمي

Twitter: @ketab_n

أحد السلالم المتحركة، فلا ألبث أتذكر الخوف الذي اعتراني حين وطأت قدمي سلماً متحركاً لأول مرة في حياتي. فإذا وصلت لشارع سد، تذكرت على الفور كل الشوارع السد المنسية التي ضللت طريقي فيها على مدار حياتي. فوق كل شيء يتضح لي هنا، لماذا لا تتولد بداخلي القدرة على التذكر سوى عندما يتعلق الأمر بحالات الفزع. فلم يكن أبداً لدي أي شيء يمكنني مقارنته بما أراه هنا يومياً. كل الانطباعات صارت مجرد تكرار لانطباعات معروفة مسبقاً. ولا أعني بذلك فقط أنني لم أتمكن من التحايل عليها إلا نادراً، وإنما أنني أيضاً لم أر سوى القليل من الناس، ممن يعيشون في ظروف تختلف عن ظروفي. بما أننا كنا فقراء، لم أكن قد قابلت سوى أناس كانوا هم أيضاً فقراء مثلنا. وبما أننا لم نكن نرى سوى القليل، لم يكن هناك أيضاً الكثير مما يمكن الحديث عنه، لذلك كنا نتحدث كل يوم تقريبا عن الأشياء نفسها. مَن كان منا كثير الحديث ـ بتلك المعايير ـ لاسيما إن كان شخصاً خفيف الدم يسلّي الآخرين ـ كان يُعَدّ *«متفرداً»*، أما من كان فقط يهيم مثلي، فكان يعدّ حالماً؛ فأنا لم أكن أرغب في أن أكون متفردا. وقد كانت تلك الأحلام في هذه البيئة، التي كنت أعيش فيها، تعدّ بالفعل أوهاماً، لأنه لم يكن هناك ما يعادلها بالنسبة لهم في هذا العالم، لا شيء يمكن مقارنتها به ليجعلها ممكنة. لذلك لم تكتمل الأحلام، ولم يكتمل العالم حقاً في وعيي، وكانت النتيجة أيضاً أنني لا أتذكر أيّاً منهما أبداً. لحظات الفزع فقط هي ما تستعيدها ذاكرتي على الفور، لأن فيها يكون العالم والأحلام في آن، الذين لا يوجد ما يربطهما فيما عدا ذلك، لذا فهما يصيران فجأة شيئاً واحداً. العالم يحرك الحلم، الذي يجعلني فجأة أرى العالم ـ الذي طالما كنت أهيم به ـ أكثر

Twitter: @ketab_n

وضوحاً. لذلك فإن حالات الفزع طالما كانت تمثل لي عمليات معرفية، فإنني فقط حين كنت أشعر بالخوف، كنت أنتبه أيضاً للعالم المحيط، وما إذا كان يعطيني إشارات للأفضل أم للأسوأ، وكنت أتذكر ذلك لاحقاً. لكن هذا النوع من التذكر كان يطرأ علي فحسب، لم أتعلم أبداً أن أستغلّه. حين كانت تراودني آنذاك بعض لحظات الأمل، كنت لا ألبث أنساها جميعها».

ظللنا نصعد إلى أعلى وأعلى، من دون أن تبدو في الأفق أي مرتفعات. كانت الشمس قد مالت، وعلى السفوح كانت بعض الأضواء خافتة تلمع. مرة أخرى أرادت الطفلة أن تسمعنا نتحدث. شرحت لها كلير أننا سوف نتحدث كثيراً فيما بعد. وأعطيتها أنا بعض الشاي في كوب صغير بلاستيكي، أمسكته بيدها ثم أعادته إليّ بعد أن فرغ. مررنا في طريقنا إلى نيو بالتيمور عبر أحد الأنفاق، حيث أتت كلير بالطفلة إلى الأمام بجوارنا. حين صرنا على الناحية الآخرى من النفق، جعلتني الطفلة أعيدها ثانيةً إلى الوراء. صارت الظلال الآن بين الهضاب أكثر دكنة، وصار بإمكاننا رؤية القمر بالفعل من النافذة الخلفية.

قالت كلير: «إذا وصلنا دونورا قبل الساعة السابعة يمكننا اصطحاب الطفلة معنا أثناء تناول العشاء. هناك مطعم قبالة الفندق اسمه "The Yellow Ribbon"».

توقفنا أولاً عند إحدى محطات الوقود. اصطحبت كلير الطفلة خلف المبنى أثناء تزويد السيارة بالوقود لتقضي حاجتها، بينما أحضرت أنا في تلك الأثناء زجاجة ماء التونيك من الماكينة. يبدو أنه لم تكن بها في تلك الساعة من اليوم ـ إذ كنا قرب المساء ـ سوى بضع زجاجات، فقد

Twitter: @ketab_n

أحدثت هذه الزجاجة ضجيجاً، إذ سقطت من ارتفاع عالٍ جداً في المسار المخصص لها حتى باب الماكينة، ثم فارت منها الرغوة حين نزعت عنها الغطاء. كانت اللافتة الملونة بالأزرق والأبيض والأحمر تدور فوق المبنى، وأخذت الطفلة تتحدث عنها، حين عادت كلير بها. انطلقنا مجدداً، ثم صاحت الطفلة فجأة، فنظرنا إلى الوراء، ورأينا كيف كانت أنوار محطة الوقود قد أضيئت الآن. «ولكن الظلام لم يخيم بعد!» فجأة صارت الطبيعة التي كنا حتى ذلك الحين نمر عبرها فحسب تشبه مكاناً يمكن الاستقرار فيه كذلك. بدأت أتحدث وأنا أشعر بالارتياح، إذ لم أعد ـ مثلما كنت في السابق ـ أسمع صوتي الخاص.

قلت: «الآن فقط أكتشف في نفسي مايشبه الذاكرة الفاعلة، بينما لم أكن قد عرفت في الماضي سوى ذاكرة محملة بالمعاناة. وإنني بينما أفعّل تلك الذاكرة، لا أريد أن أستعيد الخبرات كاملة، وإنما أريد فقط ألا أدع تلك الآمال الأولى التي كنت أستشعرها حينذاك تتضاءل مرة أخرى لتتحول إلى مجرد نشوة. لقد كنت في طفولتي مثلاً أدفن أشياءً وآمل أن تكون قد تحولت إلى كنز حين أعود أنقب عنها. أما الآن فلم أعد أرى في ذلك مجرد لعبة طفولية كما كنت أفعل في السابق، حين كنت لا أزال أخجل من الأمر، بل إنني أتعمد أن أتذكر ـ لكي أطمئن لنفسي ـ أن عدم قدرتي على رؤية الأشياء من حولي بطريقة بمختلفة وتغييرها، ليس من طبيعتي، وإنما هو مجرد غباء وصدّ ظاهري ينتابني في كل مرة. يتضح ذلك لي أكثر، حين أتذكر، كم مرة كنت ألعب لعبة الساحر. حينئذٍ كانت رغبتي في أن أخلق شيئاً من لا شيء، أو أن أحوّل شيئاً إلى شيءٍ آخر، أقل من رغبتي الأشد بكثير في أن أسحر نفسي. كنت أدير خاتماً،* أو أرابض تحت الغطاء، وأقول إنني سوف أخفي

Twitter: @ketab_n

نفسي بالسحر. بالطبع كان الأمر مضحكاً، حين يشد شخص ما الغطاء من فوقك فلاتزال جالساً مكانك، لكن بالنسبة للذاكرة كان الأهم هو تلك اللحظة القصيرة، التي تظن خلالها أنك اختفيت بالفعل. لكنني لم أعد الآن أفسر هذا الشعور بأنه رغبة في الاختفاء من على وجه الأرض، بل بأنه الفرح بمستقبل، لا أكون فيه أنا نفس ذلك الشخص الذي كنته في تلك اللحظة. هكذا أقول لنفسي كل يوم، إن عمري قد زاد يوماً، ولابد أن الناس يلحظون ذلك عليّ فعلاً. لقد صرت حقاً أكثر طمعاً في أن يمضي الوقت وأن أصير أكبر سناً».

قالت كلير: «وأن تموت».

قلت: «قليلاً ما أفكر في موتي أنا».

انعطفنا قبل بيتسبورغ، حيث يمتد طريق ٧٦ السريع من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الغربي حتى طريق ٧٠ السريع، الذي لا يوجد به المزيد من بوابات تحصيل الرسوم، ووصلنا إلى دونورا بُعَيد المغرب. في مكتب الاستقبال بالفندق الصغير كان تلفاز ملون صغير يدور؛ كان هنري فوندا يلعب في مسلسل عائلي دور ضابط شرطة، كان قد اكتشف لتوه أن ابنته تتعاطى المخدرات. بجوار الجهاز كان هناك قفص، به عصفور كناريا ينقر صدفة حبار جيرية. طلبنا إعطاء كل منا غرفة منفصلة.

حين عدنا للسيارة في موقف السيارات، رأيت سحابة صغيرة رقيقة فوق قمة إحدى الهضاب، كانت الشمس من وراء الهضبة لاتزال تتخللها. بدت السحابة شاهقة البياض فوق رقعة الهضاب التي راحت تتوارى بلونها الداكن، بحيث رأيت للوهلة الأولى ـ ودون رغبة مني ـ صدفة حبار جيرية في السماء. فجأة أدركت كيف تنشأ من الالتباس

Twitter: @ketab_n

والخداع الحسي الصوَر الجمالية. كانت رقعة السماء كلها ـ حيث كانت الشمس قد غربت لتوها ـ تعشي الأبصار حينئذٍ أكثر من أشعة الشمس المباشرة التي سبقتها. حين نظرت إلى الأرض، كانت بعض الأضواء الوهمية تتقافز، وظللت معشياً هكذا حتى داخل غرفة الفندق الصغير، وظلت يدي تضل طريقها إلى الأشياء. «صار كياني كله متسمراً، صامتاً يصغي»[1]: هكذا كان المرء في الماضي يدير علاقته مع الظواهر الطبيعية؛ أما أنا فقد استشعرت ذاتي في تلك اللحظة أمام الطبيعة بوضوح مزعج.

فتحت الباب الذي يربط الغرفة بالغرفة الأخرى وشاهدت، كيف كانت كلير تلبس الطفلة فستانا بدلاً من السروال والكنزة، وقد أراحني النظر إلى تلك الأفعال الإنسانية. عبرنا بعد ذلك الطريق السريع من أعلى جسر المشاة إلى مطعم THE YELLOW RIBBON، الذي كان أمامه تمثال من النيون لإحدى النساء الرائدات، التفت رابطة عنق صفراء حول عنقها. كانت السيدات التي تعملن داخل المطعم أيضاً قد لففن حول أعناقهن رابطات صفراء، لها أطراف مثلثة، تتدلى خلف أكتافهن. أكلت الطفلة الكورنفليكس باللبن، وكانت بين الحين والآخر تأكل بشوكة كلير قطعة صغيرة من سمك السلمون المرقط الذي كنا نحن نأكله. أثناء ذلك راحت السماء أمام النافذة تعتم، بينما عادت الهضاب تسطع من جديد. ثم صارت الهضاب أيضاً مظلمة، وحين كان المرء ينظر إلى الخارج لم يكن يرى سوى طيفه في الزجاج. بدأت الطفلة حينئذ تكثر من الكلام،

---

(١) اقتباس من رواية «هيبريون» للشاعر الألماني **يوهان كريستيان فردريش هولدرلين** (١٧٧٠ ـ ١٨٤١)، وقد صدرت الرواية في جزءين فيما بين عامي ١٧٩٧ و١٧٩٩.

Twitter: @ketab_n

صارت حدقتا عينيها أكبر، غادرت المنضدة وراحت تتجول في المطعم. قالت كلير إن ذلك يعني أنا تشعر بالإرهاق؛ تركتها إذن تجري قليلاً، ثم حملتها إلى الخارج، لكي تضعها في سريرها بغرفة الفندق. قالت إنها ستأتي بعد أن تنام الطفلة.

بعد مرور بعض الوقت عادت مرة أخرى ودخلت من الباب مبتسمة. كنت في تلك الأثناء قد طلبت النبيذ وملأت الكأسين. قالت كلير: «كانت بنيدكتين تسأل عن سبب اتساخ أظافرك هكذا. ولم تلبث أن نامت».

أردت أن أشرح مسألة الأظافر المتسخة؛ ثم توقفت عن الحديث عن نفسي، فأخذنا نتحدث عن أمريكا.

قالت كلير: «ليس لي أمريكا يمكنني السفر إليها مثلك. إنك جئتَ إلى هنا كمن جاء بآلة الزمن، ليس لكي تغير المكان، وإنما لكي ترتحل في الزمن. نحن هنا لم يعد لدينا إحساس بما يمكن أن يحدث لنا في المستقبل. عندما نقارن شيئاً فإننا نقارنه بالماضي. نحن أيضاً لا نتمنى أي شيء، ربما نتمنى ـ على أقصى تقدير ـ أن نعود أطفالاً. نتحدث كثيراً عن الأعوام الأولى، عن أعوامنا نحن الأولى، كما عن الأعوام الأولى لتاريخنا؛ لكن ليس لكي نتخلى عنها، وإنما بشوق منحسر. يمكن ملاحظة أن أغلبية المجانين هنا لا يصير لديهم ميل للجَلَبة، وإنما للعودة للتصرفات الطفولية فحسب. المزيد والمزيد من الوجوه الطفولية تكتسح الشوارع العامة. وهم حينئذٍ إما يغنون التهويدات، أو يعدّدون تفاصيل الحكايات إلى مالانهاية. إن المرضى النفسيين في أوروبا عادة ما يستخدمون الصيغ الدينية في كلامهم، أما المرضى النفسيون هنا ـ حتى

Twitter: @ketab_n

إذا كانوا فقط يتحدثون عن الأكل ـ فإنهم يتمتمون بين الحين والآخر فجأة لا إرادياً بأسماء المعارك التي انتصرت فيها الأمة».

قلت: «حين جئت إلى هنا لأول مرة لم أكن أريد سوى رؤية مجموعة من الصور. محطات الوقود، وسيارات التاكسي الصفراء، وسينما السيارات، ولافتات الإعلانات، والطرق السريعة، وباصات شركة جراي ـ هاوند، ولافتة BUS - STOP على الطريق الزراعي، وقطار سانتا ـ في، والصحراء. كانت لدي صورة ذهنية خالية من البشر، وكان هذا يشعرني بالراحة. أما الآن فقد سئمت كل تلك الصور، وصرت أريد رؤية شيء مختلف، لكنني قلما صرت أشعر بالارتياح، لأن الناس هنا لايزالون يبدون لي شديدي الجِدّة».

سألت كلير: «لكن هل تشعر بالارتياح الآن؟»

قلت: «نعم».

لاحظت أنني عدت مرة أخرى للحديث عن نفسي، فسألتها إن كانت تسمح لي أن أقرأ عليها ـ هناك في الفندق ـ بعض المقاطع من رواية هاينريش الأخضر. عدنا معاً عابرين الطريق السريع. كانت النجوم قد ظهرت في السماء بالفعل، وكان ضوء القمر ساطعاً، حتى أن السيارات كانت تظهر بظلها الطويل عند المنحنى البعيد. وكلما كانت تتقدم مقتربة منا، كانت تفقد ظلها ويتقلص حجمها بين أضواء الفندق الصغير والمطعم. وقفنا برهة ننظر إلى الأسفل ثم ذهبنا بعد ذلك مرورا إلى الفناء الطويل، حيث أخذ الهدوء يخيم مع كل خطوة نخطوها إلى غرفتينا.

ألقت نظرةعلى الطفلة وهي نائمة، ثم جاءت إليّ عبر الباب الذي

Twitter: @ketab_n

كان يربط الغرفتين. جلسَت على السرير، اتكَأت إلى الوراء، وبينما كانت بعض السيارات تصدر أزيزاً خافتاً بين الحين والآخر، رحت أقرأ لها ـ وأنا جالس على مقعد عريض، واضعاً ساقي على أحد جوانبه ـ كيف غرق هاينريش لي ـ خلال أول عناق في حياته ـ في حالة من الصقيع، وكيف شعر هو وتلك الفتاة فجأة أنهما عدوان. هكذا ذهبا معاً إلى البيت، وقد راح هاينريش يطعم الحصان، بينما وقفت الفتاة أمام النافذة المفتوحة تحل شعرها وتراقبه. «ملأنا انشغال أيادينا بعمل متمهل ـ خلال ذلك الصمت، الذي كان يفرض نفسه على المزرعة ـ بهدوء عميق يجلب الرضى الكامل، وكان من الممكن أن نظل هكذا لأعوام طويلة؛ كنت أنا نفسي أحياناً أقضم قطعة من الخبز قبل أن أطعمه للحصان، بينما أحضرت آنّا بدورها كسرة خبز من الخزانة، وراحت تأكلها وهي واقفة أمام النافذة. كان لابد أن نضحك على ذلك، وعلى أننا استطيبنا مذاق الخبز اليابس من بعد الوجبات الفاخرة الطازجة، هكذا بدا أيضاً أن الحالة الآنية لحياتنا المشتركة قد اتخذ مجراها الصحيح، الذي بدا أننا بلغناه بعد مرور الزوبعة الصغيرة، وأنه كان لابد أن نبقي عليه». قرأت أيضاً عن فتاة أخرى أحبت هاينريش، بسبب شكل ملامحه، حتى أنها كانت تتوق إلى أن تفكر دائماً، فيما كان يفكر فيه في اللحظة نفسها.

لاحظت أن كلير كانت قد أغمضت عينيها وكادت تغط في النوم. قالت بعد أن جلسنا صامتَين لبعض الوقت: «الوقت متأخر، وأنا مرهقة بسبب قيادة السيارة». ثم ذهبت إلى غرفتها مترنحة.

في تلك الليلة مز علي الوقت ـ حتى أثناء النوم ـ بطيئاً. كان السرير

Twitter: @ketab_n

عريضاً جداً، وقد أخذت أتحرك عليه كثيراً هنا وهناك، فلم أفعل سوى أن أطلت الليل أكثر على نفسي. لكنني هنا ولأول مرة منذ شهور رأيت أحلاماً، كنت فيها مرة أخرى على علاقة بامرأة وأرغب في مضاجعتها. في الشهور الستة الأخيرة، حين كنا أنا ويوديت نشعر بجفاف في الحلق من فرط الكراهية، مجرد أن يرى أحدنا الآخر، لم أكن قد فكرت ولا مرة واحدة داخل الحلم في الاقتراب من أية امرأة ومضاجعتها. لم تكن فكرة ولوجها في الحقيقة هي التي تشعرني بالاشمئزاز، لكنني لم أعد قادراً أصلاً على التفكير في مثل هذا الأمر. صحيح أنني كنت أذكر إمكانية شيء كهذا، لكن لم يكن هناك ما يثيرني لكي أتصوه حتى. ولطالما زيّنت لنفسي هذه الحالة، حتى أفصحت حالة من رجاحة العقل عن نفسها، فأثارت في الفزع من جديد. مجرد أنني عدت أحلم على الأقل مجدداً، بأن أكون على علاقة بامرأة، فإن ذلك قد أنعش ليلتي الطويلة تلك، وجعلني أتعجل الاستيقاظ. كنت أودّ أن أحكي لكلير عن ذلك، لكن بدا لي من الأفضل أن أنتظر، حتى أرى ما إذا كانت التجربة سوف تكرر نفسها.

حين سمعت صوت الطفلة تتحدث في الغرفة الأخرى ارتديت ملابسي وذهبت إلى هناك. ساعدت في حزم الأمتعة، تناولنا الإفطار أولاً، ثم انطلقنا. كنا نريد أن نصل إلى كولومبوس / أوهايو قبل الظهر، وكانت المسافة إلى هناك حوالي ثلاثمائة كيلومتر. في أوهايو كان علينا أن نمر عبر بعض المدن، بالإضافة إلى ذلك كانت عدة شوارع تتقاطع مع طريق ٧٠ السريع في اتجاه الشمال ـ الجنوب، بحيث كان علينا أن نقدر حوالي خمس ساعات حتى نصل إلى كولومبوس. كنا نريد أن نأكل شيئاً هناك، ثم كان من المفترض أن تنام الطفلة في السيارة

Twitter: @ketab_n

طوال الطريق. كانت وجهتنا اليوم إلى إنديانابوليس في ولاية إنديانا، على بعد ستمائة كيلومتر من دونورا.

يوم آخر كانت السماء فيه صافية، لم تلبث الشمس تطلع لتوها، فألقت بأشعتها على المقاعد الخلفية في السيارة. وضعت القبعة القش على رأس الطفلة، ولأنني لم أضعها مستقيمة، ثارت ثائرتها وأخذت تصرخ. لم تلبث أن هدأت حتى مرت على الحارة المرورية الأخرى سيارة، كان صندوق حقائبها مفتوحاً قليلاً، إذ كانت بداخله بعض الأشولِة لنقلها؛ فثارت الطفلة مرة أخرى. لكن أمكن إفهامها أنها لابد أن تبقى كذلك بسبب الأشولة. تركنا ولاية بنسيلفينيا، وعندما سرنا بضعة كيلومترات عبر الأطراف الشمالية لويست ـ فرجينيا، خطرت ببالي جملة، كنت قد قرأتها في قصة مغامرات: «ماذا تكون مروج فيرجينيا قياساً إلى سهوب تكساس؟»

مررنا عبر نهر أوهايو ودخلنا إلى ولاية أوهايو. صارت الحرارة مرتفعة في السيارة. كانت الطفلة تجلس منتبهة، وحبات العرق الصغيرة أعلى ثغرها، رغم أننا كنا قد فتحنا جزءاً من النافذة. بدأت بعد ذلك تفقد هدوءها، فأخذت تغير وضعها بين الجلوس والوقوف. أعطيتها زجاجة الشاي، لكنها ـ حين مددت يدي بها إلى الوراء ـ لم ترد أن تأخذها مني. كما أنها نظرت إلي نظرة مرتاعة كأن خوفا كبيرا قد تملكها. قالت كلير إنني ربما أكون قد أمسكت الزجاجة بـ«اليد الخاطئة». أمسكتها باليد الأخرى، وحينئذٍ أخذتها مني الطفلة وشربت، وهي تتنهد تنهيدة طويلة. عندما أنزلت الزجاجة، ناديتها بأسمائها المختلفة. قالت كلير: «من الأفضل أن تناديها باسم واحد، لقد كان على كل حال

Twitter: @ketab_n

خطأي أنني أسميتها بعدة أسماء. كنت كلما راودني شعور بالحنان تجاهها، أناديها في كل مرة بأسماء مختلفة، بل إنني ابتكرت في كل نداء اسماً وهمياً إضافياً، كان هذا يربكها. كانت تريد أن تنادى باسم واحد، فكل اسم آخر كان يسبب لها حيرة رهيبة».

قالت كلير: «لقد أخطأت كثيراً بحق هذه الطفلة. حدثتك من قبل عن أحد تلك الأخطاء: كنت كل مرة أعيد تعميدها لأسباب عاطفية، لكن ليس هذا فحسب: كنت ـ خلال حالة الحب تلك ـ أعطي الأشياء الأخرى المرتبطة بها أيضاً أسماءً أخرى باستمرار، فأزيد من انزعاجها. في النهاية لاحظت أنها تصر دائماً على التسمية الأولى للأشياء؛ كانت تنحي كل الأسماء الأخرى جانباً. كثيراً ما كانت أيضاً تشغل نفسها بشيء ما في هدوء، فكنت أراقبها. ثم كنت لا أتحمل أن أكون معها ولا أتحدث إليها، فكنت أقطع هدوءها بأن أبدأ في الكلام. في تلك اللحظة تكون قد انتُزعت من عالمها، فيتعين على المرء تهدئتها مجدداً. خطأ آخر كان حين تملكني فكرة التربية غير الأمريكية. لم أكن أريدها أن تتصرف كأن العالم كله ملكها، أو على الأقل كأن ما تملكه هو العالم كله. كنت أريد تجنب أن تصير متعلقة بالأشياء، لأنني كنت أظن أن التربية الأمريكية تضخم هذه التبعية للأشياء. لم أكن أشتري لها الألعاب. كنت أدعها فقط تلعب بحاجيات كانت مخصصة لأشياء أخرى، فُرَش الأسنان، وعلب ورنيش الأحذية، والأجهزة المنزلية. كانت تلعب بها وتراقب بعد ذلك دون اعتراض، كيف كان يتم استخدامها. لكن حين كان أحد يريد اللعب بها فقط مثلها، لم تكن ترغب في التخلي عنها، وكانت تتعامل معها مثلما يتم التعامل مع الألعاب المعتادة. حينئذٍ كنت أعتقد أن ما كان يتطور بداخلها هو بالفعل حب الامتلاك، وكنت أحاول

Twitter: @ketab_n

حثها على ترك الأشياء لطفل آخر كان يريد اللعب بها. لكنها كانت تتشبث بها، وبما أنني كنت لاأزال أفسر ذلك بأنه رغبة في التملّك، فقد كنت أنتزعها منها. لم أدرك سوى لاحقاً أنها كانت تتشبث بها بسبب شعور بالخوف، أما الآن فقد صرت متأكدة أن الأطفال حين لا يرغبون في الانفصال عن أشيائهم، فإن ذلك ليس طمعاً في الامتلاك، وإنما خوف. إنهم يصابون بهلع شديد حين يصير الشيء ـ الذي كان لتوه ينتمي إليهم ـ فجأة في مكان آخر، وحين يصير المكان الذي كان فيه الشيء خالياً، ثم لا يعرفون حينئذٍ أين ينتمون هم أنفسهم؛ لكن كان ذلك الدهاء الذي كنت متمسكة به يعميني، حتى أنني صرت ـ بدلاً من أن أرى الطفلة ـ لا أرى سوى تصرفاتها، فأترجمها إلى أحد تلك التفسيرات النمطية».

سألتها: «وماذا الآن؟»

قالت كلير: «كثيراً ما أعجز عن معرفة كيف أساعد نفسي، فإنها تفقد أعضابها بسهولة ـ لاسيما حين تقضي وقتاً طويلاً على الطريق ـ لأنها ترى شيئاً مختلفا مع كل نظرة، ولا تعود تستطيع حفظ توازنها. أنا سعيدة أنك معنا، لكي يكون كلانا لها بمثابة نقطتي تركيز».

كنت أودّ أن أستدير للطفلة، لكنني عدلت عن ذلك، لأنها كانت قد هدأت لتوها.

قلت: «ذات مرة سُرقت مني ساعة يد. لم يكن الذنب ذنبي على الإطلاق، بل إنني لم أكن أنتبه لها قبل ذلك أصلاً، ورغم ظللت أصاب بالهلع لفترة طويلة بعد ذلك، في كل مرة حين كنت أرى مكانها خالياً على يدي».

Twitter: @ketab_n

بين صفوف العيدان في أحد الحقول كان أحدها معوجّا، فبدأت الطفلة تصرخ من جديد. توقفنا عند مجمع تجاري بجوار الشارع؛ تمشت كلير مع الطفلة قليلاً هنا وهناك. أجلستها على لعبة على شكل فيل، كانت قطعة نقود معدنية من فئة عشرة سنتات تجعله يتأرجح، فتركته يتأرجح حتى بدا أنها تسترخي. حينئذ رأت بقعاً سوداء خلفها بول الكلاب على قاعدة الفيل، فما لبثت الطفلة أن أرادت أن يتم حملها مجدداً. نظرت متشنجة حولها، لكنها أبعدت نظرها عن كل شيء، كأن كل المناظر كانت تروّعها. لم تستطع كلير حتى أن تريَها صقرا، كان يحلق ببطء في دوائر فوق المبنى، فقد دفعت يدها على الفور إلى أسفل. وضعتها كلير في السيارة، وقد بقيت بالفعل مستلقية، ولم تطلب سوى إعادة ترتيب مجموعة الصور التي كانت على الزجاج الأمامي. أثناء ذهاب كلير إلى المجمع التجاري، لكي تحضر بعض عصير البرتقال، كان علي إعادة ترتيب الصور مرة بعد أخرى. لم تبد في موضعها الصحيح في أي مكان على الإطلاق، لكن لم يكن مسموحاً لي كذلك إزالتها. مرة واحدة ـ حين غيرت مكان إحدى الصور ـ صرخت الطفلة في هلع، وكاد صوتها يشبه صوت شخص بالغ. لابد أنه كان هناك نموذج غامض كانت تريد رؤيته، كنت أبدأ في تشكيله في كل محاولتي الحائرة ثم أدمره على الفور. حين عادت كلير كانت الطفلة قد فقدت أعصابها تماماً، وكان غضبها فقط يتصاعد بسرعة. تعثرت حركتي التي كنت أرتب من خلالها الصور، فعادت الطفلة لهدوئها فجأة، دون أن أكتشف نظاماً معيناً للصور. أفرغت كلير العصير في الزجاجة وأعطت الطفلة إياها لتشرب. لم يكن أحد منا يتحدث. أخذت عينا الطفلة

Twitter: @ketab_n

تتسعان، ولم تعودا ترمشان إلا نادراً، ثم غطت في النوم. اشترينا بعض الشطائر والفاكهة فحسب، ثم انطلقنا على الفور مرة أخرى.

قلت بعد مرور بعض الوقت: «لقد صرت فجأةً أشعر أنني في مكان الطفلة. فإن أول ما أذكر عن حياتي هو تلك الصرخة التي أطلقتُها حين كانوا يحممونني في أحد الأحواض، ثم تم جذب السدّادة، فغرغرت المياه من تحتي».

أجابت كلير: «كثيراً ما أنسى الطفلة تماماً، وأكون ساعتها في أكثر حالاتي ارتياحاً. أكون غير شاعرة بها على الإطلاق، تجري حولي كأنها حيوان منزلي. بعد ذلك أعود أشعر بها، ثم أشعر أنني لا أملك سوى أن أحبها. وكلما زادت المحبة، كلما زاد أيضاً الخوف من الموت. أحياناً حين أكون قد أطلت النظر إليها، لا أستطيع حتى أن أفرق بين الشعورين. فمشاعر الحنو تقوى لدرجة أنها تتحول إلى مشاعر خوف من الموت. ذات مرة أخرجت من فمها قطعة حلوى، وأنا في تلك الحالة العاطفية، لأنني رأيتها فجأة تختنق». كانت كلير تتحدث بنبرة هادئة، كأنها تتعجب لأمر نفسها. كانت تنظر إلى اللافتات الخضراء على الطريق السريع لكي تبقى في المسار الصحيح عند الانتقال إلى الطريق الجانبي المؤدي إلى كولومبوس. نادراً ما كان الطريق ينعطف بنا في تلك الأثناء، لمدة ساعة تقريباً لم يوجد ولا منعطف واحد؛ ساعد ذلك الطفلة أيضاً على النوم. كانت الهضاب هنا قد صارت أصغر، مساحة الخضار في الحقول أكثر كثافة، وعيدان الذرة أكثر ارتفاعاً من تلك التي كانت في بنسيلفينيا.

في الطريق إلى كولومبوس أشارت كلير إلى مرآة السيارة، فرأيت

Twitter: @ketab_n

فيها أن الطفلة بدأت تستيقظ تدريجياً، بينما كان على سوالفها شعر متعرّق، وكان وجهها محمرّاً. ظلت مستلقية لفترة طويلة بعينين مفتوحتين، من دون أن تتحرك، ثم أدركت أننا كنا نراقبها، فابتسمت بعذوبة ولطف. لم تقل شيئاً، بل نظرت فقط حولها بهدوء. كان الأمر يشبه اللعبة، حيث انتظر كلٌّ منا الكلمة الأولى، أو الحركة الأولى من الآخر. في النهاية خسرت أنا اللعبة، لأنني اعتدلت في جلستي؛ وبدأت الطفلة تتحدث.

حدنا من على الطريق السريع وتوقفنا عند شارع ريفي، سرنا قليلاً على مساحة من الحشائش، فطيرت نسمة خفيفة شعرنا. رأيت كيف كانت سوالف الطفلة لاتزال متعرّقة، انحنينا إليها فلاحظنا أن الريح تكاد تكون لاوجود لها بالأسفل. حملتها كلير إلى الأعلى؛ فجف شعرها حينئذٍ. استقررنا عند موقع مطل على الماء. كان العشب يابسا كحشائش الأهوار، وقد نمت في كل مكان على مواضع آثار حوافر الماشية الفطريات البيضاء. كانت تلال الوحل تبرز هنا وهناك فوق سطح الماء، وكان روث البقر وبيض الضفادع يسبح حولها، بين الحين والآخر كانت بعوضة راقصة تجوب المنطقة مرفرفة فوق مساحة المياه كاملة فتجعلها تموج؛ تجمعت رغوةٌ حول فرع شجرة نصف غارق، وكان الهواء فوقه ضبابياً.

أكلنا الشطائر، ثم توجهنا إلى إحدى مجموعات الأشجار، إذ أصبح الجو تحت الشمس حاراً جداً. تركتني الطفلة الآن أحملها، وقد سرت بها بين شجر البلوط والدردار، بينما كانت كلير تسير بينها في بادئ الأمر ببطء خلفنا، حتى ابتعدت عنا تماماً فيما بعد. لابد أن شريطاً

Twitter: @ketab_n

للسكك الحديدية كان يمر على مقربة من هنا، لأنه حين اقتطعت الطفلة بضعة أوراق من الشجر، صارت يداها متسختان بالهباب. في المقابل كانت الأوراق بالكاد قد نمت. وصلنا إلى مرج، حيث كان هناك غدير يكاد لا يُرى، إذ جرى تحت أوراق الأهوار. رأيت بطرف عيني حيواناً كبيراً، تلفتُّ حولي، لكن لم يكن هناك سوى جرذ يزحف في تلك اللحظة مختبئاً تحت الأوراق. ظل في البداية مرابضاً تحتها، بينما خرج ذيله من بين الحشائش. انحنيت بالطفلة، إذ كنت أريد قذف حجر عليه؛ لكن لم تكن هناك أحجار حولنا، لم ألاحظ ـ سوى عندما اعتدلت واقفاً مرة أخرى ـ أننا كنا قد غصنا في الوحل قليلاً. رفعت قدمي إذ كانت المياه بالفعل قد تجمعت حول الحذاء، واتخذت خطوة كبيرة إلى الجانب: غاصت ساقي على الفور حتى الركبة في وحل دافئ، وأحسست كذلك ـ دون أن أسمع صوتاً ـ كيف راحت بعض فروع الشجر المتعفنة تطقطق تحتي أثناء الغوص في الوحل.

بقيت واقفا بساقين متباعدتين، لكنني لم أستمر في الغوص. كان ذيل فأر المسك[1] قد اختفى في تلك الأثناء. حين توقفت عن الحركة فجأة، تشبثت الطفلة بي وتسارعت أنفاسها. ناديت كلير، بنبرة غير غير عابئة قدر المستطاع. قالت الطفلة: «لا تصِح!». بدأت أخرج قدمي،

(١) فأر له فروة بنية تميل إلى الحمرة وهو دافئ ولا يتبلل بالماء. يفضل قضاء أغلب وقته في الماء، فأقدامه الخلفية مزودة بأغشية جلدية تصل ما بين الأصابع لتمكنه من السباحة بمهارة، ويعمل ذيله عمل الدفة لتحديد الإتجاه. وهو بنّاء ماهر يبني بيته على ضفاف المياه الجارية، ويجعل مدخله تحت الماء، ويجعل للجحر نفقاً يقود إلى جحرة فوق سطح الماء، وعندما يتجمد الماء في الشتاء، يبني في الثلج جحراً مغطى من الأعلى بالقصب على القبة، مما يساعده على التنفس وأكل الطعام الذي يجده تحت الماء.

Twitter: @ketab_n

وقفزت بالفعل قبل أكون قد أخرجتها كاملة من الأرض، متراجعاً باتجاه الأشجار، بحيث بقي حذائي عالقاً في الوحل بالأسفل. ظننت أن الطفلة كانت تصرخ من الخوف، بينما كانت تضحك لأنني وثبت هكذا. جلست أمامها، وجدت الطفلة تحت أوراق الشجر الجافة المتبقية من الخريف الماضي بعض أخشاب شجر البلوط، فرضّتها بهدوء إلى جواري. بعد مرور بعض الوقت فتحت كلير عينيها، كأنما كانت فقط تتظاهر بالنوم، ورأت على الفور، أنني فقدت فردة حذائي، كما رأت الطين الجاف على سروالي. روت ما جرى لي كأنها تحكي حلماً، فصدّقت على كلامها. سألت: «هل كنت تشعر بالخوف؟» فأجبت: «كان ذلك أقرب إلى الشعور بما يشبه الغضب».

سرنا عائدين عبر المرعى. كانت طيور السنونو تحلق على ارتفاع عالٍ جداً، كما لا تطير فيما عدا ذلك سوى فوق المدن الكبرى. قالت كلير: «قليلاً ما يتمشى الناس في أمريكا. إنهم يركبون السيارات، أو يجلسون على الأراجيح أمام منازلهم. أما من يذهب إلى الريف ولا يفعل شيئاً سوى أن يتمشى، فإن الجميع ينتبه له»، أشارت إلى رجل كان يرتدي قميصاً من قماش المربعات، كان يسير نحونا عبر أحد الحقول، وفي يده نبّوت. حين توقفنا في مكاننا، توقف هو أيضاً عن السير، وحينئذٍ فقط رأى أننا كنا نصطحب طفلة، فبقي واقفاً في مكانه مثلنا. ترك النبّوت يسقط، إلا أنه انحنى وقذف كتلة من الروث باتجاهنا. انتظر قليلاً، وحين أكملنا السير ببطء، أخرج عضوه فجأة وتبول باتجاهنا؛ كما تحرك أثناء ذلك إلى الأمام وإلى الخلف مثلما يفعل المرء أثناء الجماع، فرشّ البول على سرواله وحذائه؛ في النهاية فقد توازنه وسقط على كتفيه.

Twitter: @ketab_n

كنا نشاهده من دون أن نسرع في مشيتنا. لم تقل كلير أي شيء؛ في السيارة فقط، قبل أن تنطلق، ضحكت بلا صوت. ضحكت حتى اضطرت لأن تسند رأسها بيدها.

بما أنه لم يعد معي سوى فردة حذاء واحدة، فقد اشترينا حذاءً جديداً من المجمع التجاري التالي. حين استكملنا طريقنا مجدداً، وحين عاينت الوحل الذي كان عالقاً بسروالي، والذي لم يكن قد جفّ بعد، صرت تدريجياً عصبياً وقليل الصبر. ظللت أنظر مرة بعد أخرى لأرى إذا ما كان الطين قد جف أخيراً، ثم أسقطت قلة صبري في النهاية على المنطقة المحيطة التي كنا نتحرك بداخلها. حولت نظري من الطين الذي لم يكن يريد أن يجف، إلى الطبيعة التي لم تكن تريد أن تتغير، وقد بدت لي حركتنا بلا جدوى، بحيث لم أكد أستطيع تصوّر أننا سوف نبلغ هدفنا في الوصول إلى إنديانابوليس في أي وقت. شعرت بانعدام المتعة تجاه حركتنا، انتابني شعور على متن مركبة متحركة إلا أننا لا نبرح مكاننا، وفي المقابل تمنيت أن نقف بالفعل. أخذت أراقب متى ستظهر آخيراً لافتة لوحات سيارات إنديانا، بدلا من لوحات سيارات أوهايو، ومتى سنقرأ علامة أخرى بدلاً من علامة BUCKEYE STATE على لوحات السيارات التي نسبقها. لكننا أخذنا نسبق المزيد من السيارات التي كانت عليها علامة HOOSIER STATE، وفي إنديانا لاحظت أيضاً أول شواهد نسيج السروال الذي بدأ يجف، لكنني صرت أقل صبراً، وبدأت أعد المعالم التي كانت تفصلنا عن إنديانا، لأنها كانت الشيء الوحيد الذي يتغير في الطبيعة المتشابهة، وأخذت أتنفس ـ دون قصد مني ـ بنفس إيقاع تباعد المسافة بينها، حتى آلمتني رأسي. كنت قد سئمت فكرة أن على المرء قطع المسافات الطويلة، حين يود

Twitter: @ketab_n

أن يصل إلى مكان آخر، كما أن الطريقة التي كانت كلير تدوس بها على مكبس الوقود كانت تبدو لي في النهاية مثيرة للسخرية، بل وعديمة الفائدة. ومع ذلك كنت أتمنى أن تدوس أكثر، بل وددت لو أنني ضغطت على ظهر قدمها بكعب حذائي الجديد؛ واشتد الشعور بنفاد صبري لدرجة أن تحول سأمي إلى رغبة في القتل. وبالرغم من أن الشمس كانت تغرب، إلا أن السماء كانت لاتزال تضيء بنفس الدرجة، لم تحل العتمة، وأما شعوري بالهدوء والجمود الجسدي فيما يشبه الأصنام في صمتها، ذلك الذي أحسست به لاحقاً في العتمة بعد أن دخلنا إلى إنديانابوليس ـ بينما رحت أنظر لكلير من الزاوية ـ كصمت القتلة.

لم أكن أريد رؤية المدينة: كأنما قد أصابتني بالصدمة مسبقاً، وكأنما كان لدي ما يكفيني منها، وكنت أنظر إلى الأرض، بينما سمعت كلير في فندق **هوليداي إن** ـ الذي كان يقع خلف القطار السريع ـ تطلب حجز غرفتين. في الغرفة أسدلت الستار على الفور واتصلت بالفندق الآخر في بروفيدنس. كان شخص ما قد اتصل بالأمس، فأعطوه عنواني في نيويورك وفي فيلادلفيا. «أعطوه هو؟» قالت عاملة الاتصالات: «كلا، بل كانت امرأة». اتصلت بفندق ألغونكوين، ثم بفندق باركلي في فيلادلفيا؛ كانت يوديت قد اتصلت هناك بالفعل، وسألَت عما إذا كنت لا أزال موجوداً، إلا أنها لم تترك أية رسالة. أعطيتهم عنواني في إنديانابوليس وقلت إنني سوف أتصل في اليوم التالي، كما أعطيهم عنواني في سانت لويس. لم أكد أضع السماعة، حتى رن جرس الهاتف. حيث إنه لم يكن هناك باب بين الغرفتين هذه المرة، اتصلت كلير من الغرفة المجاورة وسألتني: «كيف حالك؟» كما سألت إن كنا نريد تناول الطعام في المطعم بالأسفل.

Twitter: @ketab_n

لم أكن أشعر بالجوع، وقلت إن بإمكاننا ـ حين تكون الطفلة قد نامت ـ أن نخرج قليلاً. وافقت وحين أنهيت المكالمة سمعت من وراء الجدار الجرْس الخافت، الذي صدر حين وضعت السماعة هي الأخرى. أزحت الستار مرة أخرى ونظرت إلى الخارج دون أن أنتبه لأية تفصيلة. إيقاع منتظم أمام النافذة أشعرني بالنعاس، إلا أنه لم يلبث أن جعلني أنتبه. على تلة صغيرة على مسافة مني وقفت شجرة سرو. كادت غصونها في الغسق تبدو جرداء. كانت تتمايل يميناً ويساراً برفق، بحركة توازي حركة أنفاسي. نسيتها ثانيةً، ولكن ـ بينما نسيت نفسي كذلك، وأخذت فقط أحملق بالخارج ـ أخذت شجرة السرو تبدو أكثر قرباً، مترنحة برفق مع كل نفس، وراحت تضغط عليّ في النهاية حتى جثمت على صدري. وقفت متسمراً، توقفت الشرايين في رأسي عن الخفقان، وتعطل القلب. لم أعد أتنفس، مات جلدي، وبارتياح لا إرادي أحسست كيف راحت حركة شجرة السرو تتولى مهام جهازي التنفسي، وتجعلني أترنح أنا أيضاً بداخلها، ثم تحرر نفسها مني، وكيف توقفت عن أن أكون مقاوماً، ثم انسحبت آخيراً بوصفي عنصراً زائداً في لعبتها الرقيقة. حينئذٍ زال أيضاً هدوئي القاتل، فسقطت من على السرير، شاعراً بالوهن، ومرتاحاً لكسلي. أين كنتُ ومتى سأكون في مكان آخر، كل ذلك كنت أشعر تجاهه بالرضى، وكان الوقت يمضي بسرعة. كان الليل قد حل سريعاً، فطرقت كلير بابي لكي تصطحبني.

كنا جالسين في حديقة وارن بارك في إنديانابوليس، نتبادل أطراف الحديث؛ كانت موظفة في فندق هوليداي إن قد وافقت على أن تتولى الاعتناء بالطفلة. الآن فقط ظهر القمر كاملاً هنا، والآرائك والشجيرات البيض أحاطت بنا كالأطياف. كان زجاج أحد المصابيح مكسوراً،

Twitter: @ketab_n

راحت فراشة ترفرف بداخله حتى احترقت. كان ضوء القمر شديد السطوع، إلا أنه مع ذلك لم يكن ساطعاً بما يكفي لكي يظن المرء أنه قد ينفجر. خفق قلبي خفقاناً مؤلماً، ظللت أئنّ كلما شهقت نفساً. ارتفعت الزهور ذات السيقان الطويلة على جوانب الطرقات، وتناثرت أوراقها البيض تحت ضوء القمر، ساكنة تماماً، في ذروة نوبة هيجان ـ لم يعد أحد كذلك يملك الطاقة لكي يجعلها تتحرك ـ كما كان برعم يقفز بين الحين والآخر مصدراً صوت طقطقة. كان حفيف يصدر من داخل سلة القمامة ثم يعود يهدأ بسرعة. كانت الحشائش شاحبةً، كأنها تذوي، وبدت ظلال الأشجار القصيرة بينها كآثار الحرائق. كنت أشعر بداخلي أيضاً بالسخونة، رغم أن الهواء كان بارداً. خلف أشجار الزنبق المشذبة والنخيل تلألأ سهم فندق هوليداي إن، وفوقه النجمة الخماسية.

قلت: «ألاحظ كيف صارت تتكرر بداخلي الآن ـ هنا في أمريكا ـ خبرات الطفولة. كل المخاوف، ومشاعر الحنين التي كنت أظن أنني تجاوزتها بالفعل منذ زمن تصير حاضرة من جديد. مرة أخرى ـ مثلما كان يحدث في طفولتي ـ يبدو لي كأن العالم قد ينفجر فجأة، ويتحول إلى شيء مختلف تماماً، إلى فم غول مثلاً. اليوم خلال الرحلة خبرت شعوراً بالرغبة في أن يكون لديّ حذاء يمشي بسرعة سبعة أميال في الساعة، لئلا يكون عليّ قضاء الوقت في قطع المسافات. فإن مجرد التفكير في أن هناك شيئاً آخر في مكان آخر، وأن المرء لا يستطيع الوصول إلى هناك على الفور، يكاد يصيبني بالجنون مرة أخرى، مثلما كان يفعل في طفولتي. لكنني كنت حينذاك أصاب بنوبة دوار عند التفكير في الأمر، أما الآن فأنا أتحدث عنه، وأقارن وأبدأ في التعلم. كان الأمر ليبدو لي مضحكاً إذا قررت تفسير الأفكار الملغزة؛ إنني أصيغها فقط

Twitter: @ketab_n

لكي لا أعود أشعر بالوحدة مثلما كنت أشعر آنذاك. وقد صرت أتصرف بلا حرج، أتحدث كثيراً، وأحب أن أضحك، وأريد أن أصير بديناً جداً حتى أتمكن من دفع بابِ دَوّارِ ببطني، وأفرح أنني لم أعد تدريجياً أنتبه لنفسي».

قالت كلير: «حتى هاينريش الأخضر لم يرد تفسير أي شيء. كان فقط يشهد كل شيء دون انخراط قدر الإمكان، ويراقب كيف تفسر كل تجربة الآخرى ثم تأتي التجربة التالية لتفسر الأخيرة بدورها. كان يدع الأحداث تقع أمامه، دون أي تدخل منه، وهكذا أيضاً كان الناس الذين يشاهدهم، يتراقصون أمامه فحسب. لم يكن يطلب منهم شيئاً، ولا يلهيهم عن رقصتهم الجماعية. لم يكن يريد فك شفرة أي شيء؛ فسوف يؤدي كل شيء إلى الآخر. تبدو لي أنت أيضاً كأنك تدع العالم المحيط يتراقص عابراً أمامك. إنك تدع التجارب تفرض نفسها عليك، بدلاً من أن تشتبك معها. تتصرف كأن العالم هبة، تخصك وحدك. لذلك فإنك تشاهد فقط بكل أدب، كيف يتم رفع الغطاء عن كل شيء؛ فلسوف يكون من الفظاظة أن تتدخل. أنت تدع الأمور تحدث فحسب، فإذا مسّك شيء، تقابله بالدهشة، تتعجب لأمره الملغز، وتقارنه بألغاز الماضي». تذكرت يوديت وأصابني الفزع، وتصببت عرقاً من شدة الخزي، واضطررت لأن أقف، وأتمشى هنا وهناك تحت ضوء القمر.

قلت وأنا كالعادة غير عابئ، غير منخرط، كأنني في مسرحية: «هذا صحيح. إنني حين أرى شيئاً وأبدأ في معايشته أفكر على الفور هكذا: «نعم، هذه هي! إنها الخبرة التي لاتزال تنقصني!» ثم أقتطعها بلا اكتراث. إنني لا ألبث أنخرط في شيء حتى أصيغه لنفسي وأعود أتراجع

Twitter: @ketab_n

خارجاً منه، فلا أعايشه للنهاية، بل أتركه يمر علي عابراً. «كان هذا إذن كل شيء!» هكذا يخطر لي ثم أنتظر ما سيأتي بعد ذلك».

قالت كلير بطريقة المداعبة نفسها: «ومع ذلك فإن هاينريش الأخضر لا يمكن ألا يستحق المحبة، حتى وإن كان المرء يودّ توجيهه في كل منحى. فهو لا يتفادي التجربة من باب الجبن أو عدم الثقة بالنفس، وإنما لأنه لا ينفك يخشى ألا ينطبق الأمر عليه، وأن يتم صدّه إذا ما تورط في الأمر، كما كان يتم صده بالفعل عندما كان طفلاً».

قلت: «ولكن ماذا يكون في هذه الحالة سوى جبان؟» قامت كلير واقفة، وتنحيت أنا جانباً. عدت واتخذت خطوة إلى الأمام، وفردت كلير ثوبها ثم جلست مرة أخرى، فجلستُ بجوارها. كوننا تحدثنا كل هذا الوقت، فإن ذلك قد جعلنا أقل مقاومة. لم نكن قد تعانقنا بعد، بل حتى لم نتلامس، لكننا أحسسنا بالتقارب كتبادل لمشاعر الودّ. شعرت ببعض تأنيب الضمير، لكنني مع ذلك عدت واثقاً بنفسي، كأن أحداً قد أطرى عليّ. أصابني الفزع إذ كانت كلير محقة، وفرحت في اللحظة التالية لأنها لم تكن محقة. كثيراً ما كان يحدث لي هذا حين كنت أنصت لأحد وهو يصفني؛ كان الأمر يخصني، وكان مع ذلك شائناً. وحين كنت أنا أصف شخصاً آخر، فإنني في الحقيقة لم أكن أكذب، لكنني كنت أبدو أمام نفسي كالفشّار. قلت لكلير: «والآن انتهت أسطورة هاينريش الأخضر».

تنهدت كأنها موافقةً، ومع هذه التنهيدة بدا الأمر كأن جسدها تمدد ببطء ولامسني. بالطبع لم تكن قد لامستني حقاً، بل إن الخيال فقط استبق الحدث، الذي كان ليشعرني بالتوتر الشديد، والذي كنت مع

Twitter: @ketab_n

ذلك أنتظره بفارغ الصبر. خطر ببالي الرجل الذي كان قد تبول أمامنا، من دون أن تزعجني صورته الآن. بدأت أرتجف من شدّة خوفي أن أخون ذاتي. قمت واقفاً، كنت مستثاراً، لكن دون أن ينفد صبري بعد، وبينما مسست ذراع كلير، فيما بدا كعلامة على رغبتي في أن نرحل، حاولت في الوقت نفسه أن أبتعد عنها. تمطت كلير قبل أن تقف، وخطوت أنا نحوها مرة أخرى، ساعدتها بإيماءة قصيرة، لكن دون أن ألمسها أثناء ذلك. قالت كلير: «إن عنقي يؤلمني، لأنني كنت في السيارة أنظر باستمرار إلى الأمام». جعلني مجرد ذكرها الآن جزءاً من جسدها أرتعد، كأنها هي التي أوقعت بنفسها الآن. سرت بخطى أسرع لكي لا يبدو عليّ كم أنا مستثار، وقد تبعتني كلير ببطء، وضوء القمر يعشي بصرها.

خطرت لي صورة من فيلم قديم لجون فورد، كان اسمه THE IRON HORSE، بينما سمعتها تتبعني: كان يحكي عن إنشاء السكك الحديدية العابرة للقارات عبر ولايتي ميسوري وكاليفورنيا بين عامي ١٨٦١ و١٨٦٩. قامت شركتان للسكك الحديدية بتركيب القضبان، شركة «Central Pacific» من ناحية الغرب، وشركة «Union Pacific» من جهة الشرق. قبل إنشائها بزمان كان رجل قد حلم بذلك وانتقل مع ابنه إلى الغرب، للبحث عن ممر في جبال روكي. كان قد انفصل عن جيرانه، وقام الابن الصغير أثناء الوداع ـ ببراءة شديدة ـ بتقبيل إبنة الجيران التي كانت تصغره في السن. هلك الأب، لكن لاحقاً وجد الابن ـ حين صار شاباً بالغا ـ الممر؛ أما الجار فقد صار هو مدير شركة «Union Pacific». بعد الأعوام الطويلة ـ التي كانت تمر على المرء أثناء الفيلم، حيث يتم عرض كل أعمال الإنشاء بشق الأنفس ـ تقابل أخيراً

Twitter: @ketab_n

خطّا السكك الحديدية في نقطة برومونتوري في ولاية يوتا، ودق المدير مسماراً من الذهب على القضيب الأخير. وبهذه المناسبة تعانق أيضاً كل من ابن الرجل الحالم وابنة المدير، للمرة الأولى منذ أن كانا قد انفصلا في طفولتهما. دون أن أجد تفسيراً للأمر صرت أشعر بالضيق أثناء المشاهدة، شعرت بألم متزايد في صدري، برغبة في البلع، بتقرّح، صار جلدي كله حساساً، وكدت أرتعش من البرد ـ لكن في تلك اللحظة حين تم دق المسمار، وارتمى كل منهما في أحضان الآخر، شعرت بهذا العناق أيضاً يمسني، وتمددت داخل نفسي بمنتهى الأريحية: لقد كانْ جسدي يتوق بشدة إلى أن يلتقي الاثنان مرة أخرى.

انتظرت كلير حتى لحقت بي، فسرنا جنباً إلى جنب معاً إلى فندق هوليداي إن. قالت موظفة الفندق إن الطفلة نائمة في سلام، وانتبهت أنا أنني صرت الآن أشعر بالجوع. أكلت، بينما جلست كلير تراقبني، متكئة إلى الخلف، ويداها مضمومتان بين فخذيها. لم تكن ترمش سوى نادراً، ثم بتردد كأن النعاس يغشى عينيها رغما عنها. بادلتها النظرات باهتمام، ثم فجأة عشنا التجربة مرة أخرى ـ كيف كنا نتضاجع ـ وفهمنا الأمر حينئذٍ. تولّدت مشاعر قوية جداً تجاه كلير، بحيث كان عليّ أن أحول نظري بعيداً عنها. ذلك **الزمن الآخر** الذي خبرته في بروفيدنس أثناء وميض الزهر الخاطف، كان الآن يتمدد بداخلي كأنه عالم آخر، كان عليّ فقط أن أخطو إليه لكي أتخلص أخيراً من طبيعتي المرتعدة، ومن ضيق أفقها. ومع ذلك فقد فزعت مرة أخرى من تلك الخطوة، حين تذكرت أنه قد يتعين عليّ أن أتحرك ـ متحرراً وخالي البال، من دون شكل خاص للحياة ـ داخل هذا العالم؛ استشعرت بقوة إحساساً فردوسياً عاماً بالحياة، بلا توتر ولا خوف، إذ لم أعد أنا نفسي ـ كما

Twitter: @ketab_n

في لعبة شجرة السرو ـ حاضراً على الإطلاق، وكان ما هالني بشدَّة في مواجهة هذا العالم، هو أنني استعدت في لحظة فزع، ذلك الرعب الهائل الذي كان يصيبني في طفولتي، حين كنت فجأة لا أعود أرى أي شيء، في الموضع ذاته الذي أكون لتوي قد رأيت فيه شيئاً ما. في تلك اللحظة فقدت إلى الأبد الرغبة في أن أتخلص من ذاتي، وخلال التفكير في مخاوفي ـ التي كانت في كثيرمن الأحيان طفولية ـ وفي استيائي من التواصل حقاً مع الآخرين، شعرت فجأة بالفخر تجاه قصور فهمي، تلاه شعور بديهي بالارتياح. كنت أعلم أنني لن أتمنى التخلص من مظاهر ضيق أفقي تلك أبداً، وأن الأمر صار منذ اللحظة يتعلق فقط بأن أجد لها جميعها ترتيباً ما، وأسلوب حياة يكون منصفاً لي، حيث يستطيع الآخرون أيضاً معاملتي بإنصاف. وقد خطر لي بشكل عفوي، كأن كل ما كان حتى الآن لم يكن سوى مجرد تجريب: «إن الأمر نافذ! آن أوان الجد!».

أحسست أن كلير كانت لاتزال تراقبني. «كم هي مسكينة معي!» ـ خطر ذلك ببالي، دون أن أدع تلك الفكرة تبعدني عنها. سابقاً كان يستحوذ عليّ دوار، وشعور بالاشمئزاز كلما تصورت أن شخصاً ما يختلف عني تماماً، إلا أنني في تلك اللحظة قررت أن أدع ذلك التصور يتشكّل لأول مرة حتى النهاية بهدوء، وبدلاً من أن أشعر بذلك الاشمئزاز الأناني، شعرت بتعاطف شديد تجاه كلير، لأنه لم يكن بوسعها أن تضع نفسها مكاني، ولأنها لا تستطيع أن تمر بالتجارب نفسها التي كنت أمر بها لتوي ـ كم يبدو الأمر مملاً أن تكون هي، كلير! ـ شعرت بعد ذلك بالغيرة، لأن العكس تماماً ينطبق عليّ. لكن تلك التصورات لم تضر بديهية، وإنما تحولت فقط إلى لحظات ظهور

Twitter: @ketab_n

واختفاء خاطفة، في مسار طويل للأحداث، يدور حول شيء مختلف تماماً. حكيت لكلير كيف شاهدت فيلم «The Iron Horse» للمخرج جون فورد، وما حدث لي حينها.

كانت قد شاهدته في أحد نوادي الأفلام في المعهد، وكانت لاتزال تذكر كيف كان العمال الأيرلنديون أثناء نقل القضبان يغنون الأغنية نفسها بملء حناجرهم. تقول فجأة: «لكنه كان فيلماً صامتاً!» تذكرنا معاً أن ما كان يظهر من الأغنية هو فقط النوتة الموسيقية مصاحبة للصور التي يظهر فيها العمال وهم يغنون. أطلنا الحديث، ولكن ليس عن أنفسنا، كنا فقط نحكي بعض الحكايات، ولم يرغب أحد منا في أن يدع الكلمة الأخيرة للآخر، رغم أننا بالكاد كنا نتحمل، ألا ننتقل إلى الغرفة أخيراً. في النهاية كانت كلير هي من صارت جادة جداً ـ أثناء حكيي لقصة الخنزير وعربة الحنطور، بينما تسارعت نبضات قلبي أثناء الحكي ـ وتغيرت ملامح وجهها على الفور، حتى لم يعد مألوفاً. في الماضي كان الأمر ليبدو لي كجيشان نوبة جنون، لكنني في تلك الليلة خبرت ذلك بمتعة ـ تكاد تكون منسية ـ تجاه المظاهر الاحتفالية السابقة، كإحدى لحظات الصدق، التي كانت فجأة تجعل جنوني ـ المتمثل في خشيتي من أن يجن جنون شخص آخر في المقابل ـ دائماً مثيراً للسخرية.

تضاجعنا بينما كاد النعاس يغلبنا، لم نكد نتحرك، كنا نتنفس، ثم نعقد أنفاسنا في النهاية. بعد منتصف الليل خطرت ببالي الطفلة، التي كانت تنام في الغرفة الأخرى، وقد أشفقت عليها بشدة لدرجة أنني قلت لكلير إن علينا أن نذهب إلى هناك لنطمئن عليها. قلت: «عندما أفكر في أن بنيدكتين وحدها، فإنني أحس بوحدة مؤسفة بالإنابة عنها. ليس لأننا

Twitter: @ketab_n

معاً هنا، وإنما لأنني أتعاطف بشدة مع الوعي الكائن بأنه «ليس بعد» هناك، حين لا يكون أحد معها، بوصفها حالة من الضجر الفظيع. يهيّأ لي أن عليّ أن أوقظ الطفلة على الفور، وأن أتحدث معها، وأن أزيح عنها ذلك الضجر. أستشعر كيف تعاني من حالة النوم والحلم المملة، وأودّ أن أستلقي بجانبها، وأن أواسيها لتخرج من وحدتها الطويلة. إنه لأمر غير محتمل ألا يصل المرء كذلك إلى مرحلة الوعي الكامل، فور مجيئه إلى الدنيا، وإنني أفهم فجأة القصص، التي تدور حول شخص يريد أن يحرر شخصاً آخر». حكيت لكلير عن الجندي الذي كان في فيلاديلفيا، وكيف كان في أمس الحاجة لأن يتحرر.

ذهبنا إلى الغرفة الأخرى، فأخذت أراقب كيف كانت الطفلة نائمة.

وبينما ذهبت كلير إلى السرير، أيقظت أنا الطفلة خلسةً. فتحت عينيها وتحدثت من داخل الحلم بكلام مشوّش. تثاءبت طويلاً، فحملقتُ في تجويف فمها الناصع، كان لسانها يرتعش عند سقف الحنك، ثم عادت لنومها. عادت كلير، واستلقينا متجاورين؛ ثم نامت هي الأخرى، كان السهم والنجمة الخماسية الخاصان بفندق هوليداي إن ينعكسان بحجم مصغّر على زجاج جهاز التلفاز اللامع ببعض الدكنة. نظرت مرة أخرى قبيل النوم إلى ساعة اليد: كان الوقت بعد منتصف الليل بكثير، وقد خطر لي أنني صرت الآن أبلغ الثلاثين.

لم أنم جيداً، وخزتُ دجاجة شديدة الطهو، فتفسخت عظامها على الفور، كانت سيدة بدينة وأخرى نحيفة تقفان متجاورتين، تجاوزت النحيفة البدينة، ثم انفجرت كلتاهما، كانت إحدى مربيات الأطفال تلعب مع طفل لعبة التوازن على نصل سكين عند باب مترو الأنفاق

Twitter: @ketab_n

المفتوح، المزيد والمزيد من رسائل البريد السريع، علامات على الرمال، راح بستاني أحمق يرويها مثل الزهور، نباتات، وكلمات راحت تكوّن رسائل غامضة على كعك الزنجبيل المخبوز على شكل قلوب، في أكشاك العرض أثناء احتفالات الكنيسة، غرفة فندقية في فندق نمساوي صغير، به أربعة أسِرّة، فراش واحد فقط بينهم هو الذي كان معدّا. استيقظت من هذه الكوابيس المخيفة وعضوي منتصب، دسسته على الفور داخل كلير الناعسة، أُنهِكت، ثم عدت للنوم.

Twitter: @ketab_n

«أمن العجب حقّاً، أنّ تغيير المكان، غالباً ما يحمل في طياته أشياءً كثيرة، لدرجة أنه يجعل ما لا نفضّل التفكير فيه ـ بوصفه حقيقيّاً ـ منسيّاً كالحلم؟»

كارل فيليب موريتس، من رواية «أنطون رايزر»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

II

الوداع الطويل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في ظهيرة ذلك اليوم وصلنا إلى سانت لويس. كنت خلال الأيام التالية دائم التواجد مع كلير والطفلة. أقمنا لدى الأصدقاء التي كانت كلير قد وصفتهم ب «العاشقين»، وظللنا طوال الوقت تقريباً في البيت الذي كان يقع في **روك هيل**، وهي ضاحية غربي سانت لويس، في منطقة أبعد، في قلب ولاية ميسوري. كان البيت عبارة عن منزل خشبي، كانا يقومان بإعادة طلائه، فساعدناهما في العمل. لم أعرف اسميهما أبداً، فقد كانا يناديان بعضهما كل مرة بكنيات جديدة. في البداية كنت حين أنظر إليهما أتذكر مشاعر الشوق المنحسر التي كانت كلير قد حكت لي عنها، ثم كنت أنسى مجدداً ما كان يمكن قوله عنهما في العموم حين أعيد النظر إليهما، ثم أنظر إليهما فقط بفضول، لمعرفة ما الذي يمكن أن يفصح لي عنه أسلوب حياتهما. كانت تصرفات المرأة، دائماً تنم عن الغموض، وتصرفات الرجل عن خيبة الأمل والشعور بالمهانة، لكن حين يمكث المرء وقتاً أطول عندهم، يلحظ أن المرأة لم يكن لديها أي أسرار، وأن الرجل كان يشعر حقاً بالرضى والسعادة. مع ذلك كان على المرء أن يتعود كل صباح من جديد على أن ملامحهم المشوبة بالغموض وخيبة الأمل لم تكن تنم أي شيء. كان الرجل يرسم الملصقات الدعائية للأفلام الجديدة بسانت لويس، وكانت

Twitter: @ketab_n

السيدة تساعده في ذلك، بأن تقوم بتلوين الخلفية. كان أيضاً يرسم لوحات زيتية لمشاهد استعمار الغرب، وللمناظر الطبيعية وما فيها من العربات ذات المظلات، والبواخر، ويقوم ببيعها لبعض المتاجر. كان انجذابهما لبعضهما شديد جداً، لدرجة أنه ما يلبث أن يتحول مرة بعد أخرى إلى لحظات استثارة وجيزة. كانا يشعران بتلك الاستثارة مسبقاً، فيهدّئان بعضهما، لكن تلك التهدئة هي تحديداً التي كانت تبعث على الاستثارة. ولكي يعودا لهدوئهما مرة أخرى، لم يكونا ينفصلان عن بعضهما ولا يتوقفان عن الحديث، بل كانا يبقيان متعانقين يدلل كلٌّ منها الآخر، محتلين معاً مساحة صغيرة، فيصيران أكثر استثارة، وأكثر سأماً، ثم يستمران في تهدئة بعضهما من خلال الكنيات ـ وقد كانا يستخدمان الكنيات عند الحديث عن خلافاتهما ـ حتى يسترخيا تدريجياً، فيكون بوسعهما الانفصال عن بعضهما. كانت تلك هي اللحظات الوحيدة التي يكون فيها لكلٍّ منهما نوع من الوقت الحر بمعزل عن الآخر. وقد عاشا بالفعل منذ عشر سنوات، لم يغب خلالها أحد منهما عن نظر الآخر ولا يوماً واحداً.

مع ذلك فهما لا يعرفان بعد كيف يرضي كل منهما الآخر حقاً. عندما كان أحدهما يقوم بعمل ما، لم يكن ذلك يعني بالضرورة، أنه سيكون مكلفاً به في المرة القادمة كذلك؛ ولكن لا يعني ذلك أيضاً أن الآخر هو من سيكون مكلفاً به. كل فعل جديد كان لابد من التفاوض بشأنه من جديد، ولأن كلاً منهما كان يريد أن يقوم بذلك العمل في كل مرة، فقد كانا يستغرقان وقتاً طويلاً قبل الإقدام على الفعل، حتى يتوافقا على قيام واحد منهما به. لم يكونا قد قسّما الأدوار بينهما بعد: عندما كان أحدهما يُعجب بما يفعله الآخر، سواء كان في تلك اللحظة يرسم،

Twitter: @ketab_n

أو يطهو، أو يقول شيئاً، أويتحرك ببساطة فقط، فإن ذلك لم يكن يعني أن الآخر سوف يرسم شيئاً مشابهاً، أو سيطهو الطعام نفسه، أو سيقول شيئاً مشابهاً، أو سيحاول تكرار الحركة ذاتها؛ ولم يكن أيضاً يفعل العكس، بل كان عليه فقط أن يبدأ في التعامل مع الآخر في كل مرة على حدة من جديد. أما حين كان شيء ما يثير استياء أحدهما تجاه الآخر، فلم يكن الأخير يتحاشى ذلك الأمر على الفور، وإنما كان يحاول أولاً أن يظهر أنه يعدّ جزءاً من أسلوبه في الحياة.

كانا مشغولين ببعضهما لدرجة أن أصغر الأشياء التي تراكمت خلال حياتهما معاً صارت لها قيمة كبيرة توازي قيمة أعضاء الجسد. كانا يكنزان الأدوات المنزلية والأثاث، كأن تلك الأشياء هي بدورها فقط التي سوف يشعران في ظلها بالأمان تجاه نفسيهما. حين كسرت الطفلة كوباً ذات مرة، بدا واضحاً كيف فزعا وشعرا بالألم. كنس أحدهما كسر الزجاج في صمت، بينما وقف الآخر بائساً بجواره. حين كانا يحكيان عن أشخاص أقاموا عندهم، كانا غالباً ما يحكيان أيضاً عما فعله هؤلاء الأشخاص: هذا اتكأ على الحائط فترك أثر نعل حذائه عليه، وذاك مزّق عروة منشفة اليد، والثالث ترك بصمته على لوحة زيتية لم تكن قد جفت بعد، ومرة أخرى استعار أحدهم كتاباً ولم يعدْهُ بعد حتى هذه اللحظة. أشارا أثناء ذلك إلى فجوة في رفوف الكتب، فصار من السهل صار فجأة واضحاً أن ملاحهما الغامضة الشاعرة بالإهانة كانت حقاً تتطابق تماماً مع حالاتهما الوجدانية، وتتوافق كذلك مع موقفهما موقفهما المعادي للعالم الخارجي، كما أمكن أيضاً مراقبتهما بأسى، كيف كانا ينظران إلى بعضهما مصدومين مرة أخرى، عندما سقطت قطع الزجاج المكسور في سلة القمامة. ولم يكن توجيههما اللوم للشخص بالتعبير

Twitter: @ketab_n

عن ذلك صراحة، وإنما بأن يبالغا في الانشغال ببعضهما فقط أمام عينيه، فيتجاهلان وجوده تماماً.

كانا ودودين مع الجميع، دائماً ما يستضيفان الزائرين، بشهوة للإصابة بالصدمة، والتمكن من التعلق ببعضهما من جديد. حين كان أحد يقترب من أي شيء، كانا ينذرانه على الفور، بأن يصفا له الدور الذي كان هذا الشيء قد لعبه في حياتهما، أو بأن يسبقاه إليه ويعطيا مثالاً ضمنياً لأفضل طريقة للتعامل مع ذلك الشيء. كانا يدللان أشياءهما جداً، لدرجة أنهما ـ بدلاً من أن يمتلكاها معاً ـ ينسبان كل قطعة منها لواحد منهما. كانت كل تفصيلة مصونة، إذ كانت منذورة لأحدهما على وجه التخصيص. لم يكن ذلك يقتصر فقط على خواتم تزيين مناديل السُّفرة، ونقوش الحروف الأولى من الأسماء على مناشف اليد، وأغطية السرير، بل ينطبق أيضاً على ما شئت من كتب، اسطوانات موسيقية، وعلى أية وسادة مزينة. كانت كل زاوية في البيت مقسمة، تخص أحدهما فقط أو الآخر وحده، ولا تخصهما مجتمعَين أبداً. بالطبع كانا يتبادلان كل شيء مع بعضهما، وكان كل منهما يستغل مساحة الآخر بشكل بديهي، إلا أن فكرة أن يستعمل كلٌّ منهما الأشياء المخصصة للآخر بدت أنها هي تحديداً التي تربط بينهما حقاً باستمرار. كانا قد وضعا لنفسيهما ـ من خلال تلك التقسيمات ـ ما يشبه الدستور، الذي يمكنهما من إيهام نفسيهما، بأنهما قد استطاعا محاكاة أسطورة إلدورادو، الولاية التي تبدو ظاهرياً عصية، بينما تمتاز داخلياً بالاكتفاء الذاتي التام.

كانا أيضاً يأخذان أعمالهما اليومية على محمل الجد، بحيث كانت تمر كمراسم احتفالية. كان كل منهما يبادل الآخر دور الخادم له. فإذا

Twitter: @ketab_n

كان الرسام ينوي رسم لوحة جديدة لأحد المتاجر، تقوم السيدة بإعداد كل المستلزمات: كانت تشد قماش اللوحة، وتصف أنابيب الألوان، وتنظم الفُرَش، وتزيح الستائر، بينما كان الرجل في تلك الأثناء يتجول فقط مكتوف الأيدي هنا وهناك؛ لكن حين كانت السيدة تعد الطعام، يكون الرجل قد جاء بكل ما هو ضروري لذلك، ووضعه في مساحة صغيرة جداً في محيطها، بحيث لا تحتاج سوى بضع لمسات مَلَكيّة من يدها. أية مساعدة بعد ذلك أثناء الفعل ذاته كانت تعد من وجهة نظرهما مزعجةً. لذلك لم يسندا لي من المهام أثناء طلاء المنزل سوى وضع السلالم الخشبية أو خلط الألوان؛ أي شيء غير ذلك بدا جارحاً لهما مرة أخرى.

كثيراً ما كانت طريقة وذهما المعوجّة تروعني. بدا سلوكهما كأنه يوجه لي الاتهام بأنني وحيد، وأنني كنت لأترك كلير وحيدة أيضاً. كنت أضطر حينئذٍ لأن أنظر إلى كلير، لكي أتذكر كم كان من الصعب تصوّر رؤيتها في أي وضع سوى وحيدة. كثيراً ما كنا نقضي الوقت معاً ثم نفترق مرة أخرى، دون أن نشعر بالغربة تجاه بعضنا، ولكن أيضاً دون أن يطالب أحدنا الآخر بشيء. أي شيء آخر لم يعد ممكناً من وجهة نظري، أما كلير فقد بدت كأنها لا تعرف أيضاً، أنه ثمة إمكانية لأي شيء آخر على الإطلاق. كانت تعدّ حياة العاشقَين عبئاً، لم تكن هي لتتحمل منه شيئاً أبداً. كثيراً ما كانت تبتسم، وكنا نحن الاثنين نشعر بأننا حرّان، حين كنا نشاهدهما.

كانت سكينتنا تتجاوز متطلبات كل منا من الآخر، ثم تعود متطلباتنا تتجاوز سكينتنا. كدنا لا ننتبه إلى ما كان يحدث خلال ذلك، كانت كل حركة تؤدي إلى الأخرى كما يحدث في الحلم. لم نكد نتلامس، لم

Twitter: @ketab_n

نكن نتبادل القبلات أبداً، كان كلٌّ منا فقط يداعب الآخر، إذ كنا نستلقي متجاورين، نشهق ونزفر. كانت الوسيلة الوحيدة لإظهار الودّ هي أنني كنت أتحدث كثيراً، وأن كلير كانت تنصت إلي، ثم تقول شيئاً هي الأخرى بين الحين والآخر.

كنت أتحدث كثيراً أيضاً مع الطفلة، أصورها كل يوم وأنظر حينئذٍ، إن كانت قد تغيرت بالفعل. لم أعد أعبأ الآن لكونهم يتندرون على ذلك الأمر: كنت أشير إلى الصور، لأريهم كيف أن أداء الطفلة ـ إذ يتم التقاط الصور لها ـ كان يتغير بالفعل يومياً. بالإضافة إلى ذلك فقد كنت مؤمناً بأنه كان بإمكاني أن أترك للطفلة ـ من خلال التصوير الفوتوغرافي ـ صوراً تتذكرها لاحقاً، وتصورت أنني بهذه الطريقة قد أخطر ببالها يوماً ما. بنفس المقصد كنت أتجول معها أيضاً كثيراً، كما استقللت معها الباص إلى سانت لويس حيث وقفنا طويلاً عند شاطئ نهر الميسيسيبي؛ ربما تساعد رائحة الماء ذهنها على التذكر فيما بعد.

حين كنت بصحبتها، وكنت أُسأل باستمرار عن أسماء الأشياء، لاحظت أيضاً، كيف كنت حتى ذلك الوقت لا أكاد أعنى بشيء سوى بنفسي، إذ لم تكن بقليلة تلك الأشياء التي كانت في هذا العالم المحيط بنا، ولم أكن أعرف ماهي. الآن فقط انتبهت إلى أن كلمات كثيرة كانت تنقصني، لكي أتمكن من وصف الحركات الاعتيادية من حولي. هكذا تعلمت تدريجياً ـ بدلاً من أن أنظر فقط وأدع خبرتي تقتصر على قول: «حسناً» ـ أن أشاهد الأحداث كذلك حتى النهاية. الأصوات خصوصاً هي التي لم أكن أعرف إلا نادراً كيف أسميها: في بعض الأحيان لم تسعفني ولا حتى الاختصارات التي كانت في رسوم الكوميكس، وحين كنت أظل صامتاً فحسب، كانت الطفلة تعود تشعر بالخوف وتبدأ في

Twitter: @ketab_n

الصراخ. حين كان أحد يتحدث إليها أثناء لعبها، كانت عادةً تنصرف عنه، ولا تصدر أي رد فعل؛ لم تكن تنتبه سوى حين تُنطق كلمة جديدة عليها. ذات يوم صار الجو بارداً في المساء، لكنني فشلت في أن أقنع الطفلة بأن تدعني ألبسها السترة: فقط حين قلت إنها ستصاب بـ«قشعريرة» أنصتت إلي وتركتني فجأة ألبسها إياها في هدوء.

كان من الغريب أن بنيدكتين لم تعد ترى الطبيعة تقريباً، بل صارت العلامات المصنوعة وكل مكونات المدنية الحديثة هي الطبيعة في نظرها. كانت تطرح أسئلة عن هوائيات التلفاز، وخطوط عبور المشاه، وصفارات إنذار سيارات الشرطة أكثر بكثير من الأسئلة التي كانت تطرحها عن الغابات والحشائش، كما بدت وسط عالم العلامات، والإشارات الضوئية، وإشارات المرور أكثر حيوية، وأكثر هدوءاً مع ذلك في الوقت نفسه. هكذا كانت تعدّ وجود الحروف والأرقام مسألة طبيعية، وتتعامل معها بوصفها أشياءَ بديهية، من دون أن تضطر لفكّ شفرتها أولاً. في المقابل لاحظت أنني أيضاً صرت أشعر بالملل حين لا توجد حولي بين المناظر الطبيعية سوى الطبيعة، فلا أكتشف وسطها شيئاً صالحاً للقراءة.

حين كانت الطفلة ترى شيئاً منقولا عن الطبيعة ـ كلوحة للرسام مثلاً ـ لم يكن مهمّاً بالنسبة لها معرفة ما إذا كان، وأين قد يكن لهذا الشيء النموذج الأصلي المنقول عنه، لأن الصورة المنقولة كانت قد حلت محله إلى الأبد. في المقابل تذكرت كيف كنت أنا في طفولتي أريد أن أعرف دائماً، أين كان الشيء المنقول موجوداً في الواقع. في منزلنا على سبيل المثال كانت هناك لوحة زيتية لمشهد جليدي، في الزاوية السفلى من اللوحة كان هناك كوخ، وطالما كنت على يقين تام أن ذلك المشهد

Twitter: @ketab_n

الجليدي وذاك الكوخ موجودان فعلاً في الواقع، بل كنت أعتقد أنني أعرف المكان الذي وقف عنده الرسام، ولم أستطع أن أصدّق أبداً، حين قيل لي أن هذه مجرد لوحة خيالية؛ عند التفكير في أن اللوحة كانت وحيدة، وأنني لا أستطيع أن أتصور شيئاً تابعاً لها، ظللت لفترة طويلة أشعر أنني سأختنق بالضرورة. بدا الأمر مشابهاً لذلك حين تعلمت القراءة: لم أستطع أن أتصور، أن يتم وصف شيء لا وجود له. المنطقة الموصوفة في كتاب القراءة المدرسي كانت منطقة بعينها، ربما ليست منطقتي الخاصة، وإنما منطقة مجاورة، وكنت بالفعل أستطيع تحديد تلك المنطقة. ولأن الكتب الأولى التي قرأتها من تلقاء نفسي كانت كلها قصصاً مكتوبة بصيغة المتكلم، كان مريعاً لي أن يقع في يدي كتاب، لا يريد المتكلم أن يظهر فيه. أثرت أشكال الإدراك تلك إجمالاً على خبراتي الأخرى بصورة كبيرة، حتى أنه بدا لي الآن، بعد مضي الزمن ـ بالصدمة نفسها التي كانت قد أصابتني حين وعيت ببطلان أشكال الإدراك تلك ـ أنه كان من الممكن أن يبدأ قسم جديد تماماً من حياتي في كل مرة. وقد كدت أشعر بالغيرة تجاه الطفلة، لقدرتها على رؤية الأشياء المنقولة، والعلامات المرسومة على الفور بوصفها شيئاً بحد ذاته.

بالمناسبة لم يكن الرسام كذلك يستطيع تصوّر أن يرسم شيئاً غير موجود: في لوحاته لم تكن المناظر الطبيعية فقط محاكاة دقيقة لمناظر حقيقية، وإنما كان لابد أن يكون الأشخاص المرسومون بداخلها أيضاً قد عاشوا بالفعل، وما كانوا يفعلونه في الصورة في تلك اللحظة، لابد أن يكونوا قد فعلوه ذات مرة في الواقع كذلك، وذلك خلال نقطة زمنية بعينها. لذلك أيضاً لم يكن يرسم سوى لحظات تاريخية وسط مناظر

Twitter: @ketab_n

طبيعية تاريخية، مثل عربة الحنطور الأولى التي عبرت جسر ميسيسيبي عند سانت لويس، وحادثة إطلاق الرصاص على أبراهام لينكولن في المسرح، وربما كان يضيف بعض الزخرف إلى الصورة على الأكثر؛ كل شيء آخر كان يبدو له تزييفاً. قال: «لذلك فإنني أيضاً لا أفضل رسم معركة ليتل بيغ هورن، لأن الهنود الحمر لم يتركوا فيها أمريكياً واحداً ينجو بحياته، ولأنه لا يوجد شاهد عيان واحد». خطر لي أنني لم أر حتى الآن في أمريكا ـ على الستار في فندق فروفيدنس، وفي فنادق أخرى ـ ولا صورة متخيلة واحدة، كانت كلها صوراً منقولة، معظمها من التاريخ الأمريكي. سألت الرجل إن كان ليرسم شيئاً آخر لو لم يكن يرسم لنوع معين من الزبائن، وإنما لنفسه. أجاب بأنه لا يستطيع تصور رسم لوحة لنفسه على الإطلاق، وقالت السيدة: «جميعنا هنا بدأنا الرؤية بالصور التاريخية. لم يكن أيٌّ من المناظر الطبيعية يعني شيئاً سوى لو أن حدثاً تاريخياً كان قد وقع وسطه. فإن شجرة بلوط ضخمة بحد ذاتها لم تكن لتمثّل صورة: كانت لتتحول إلى صورة فقط إذا كانت تمثّل شيئاً آخر: مثلاً إذا كان المورمونيون قد استراحوا تحتها أثناء ارتحالهم إلى البحيرة المالحة الكبرى. كل ما كنا نراه منذ طفولتنا كانت له حكايات، وكانت كل تلك الحكايات سِيراً بطولية: هكذا نرى المناظر الطبيعية، ليس كطبيعة، وإنما بوصفها أفعالاً قام بها هؤلاء الذين حولوها إلى ملكية خاصة لأمريكا، فكل منظر طبيعي هو بالقدر نفسه دعوة لنكون جديرين بهذه الأفعال. لقد تربينا على أن نرى الطبيعة في كل مرة مصحوبة بوابل من القيم الأخلاقية. وراء أي نظرة إلى أحد الوديان الضيقة يمكن أن تجد جملة من دستور الولايات المتحدة». ـ قال الرجل: «لقد قلنا كثيراً إن علينا أن نتوقف عن محبتنا لهذا البلد، ومع

Twitter: @ketab_n

ذلك فليس بوسعنا ألا نرى إحدى مواد الدستور في صورة كهذه. كل طائر يتحول إلى طائر قومي، وكل زهرة إلى مَعلم». ـ فقالت السيدة: «إنني كلما رأيت إحدى شجيرات القرانيا، شعرت بالتأثر رغماً عني. ليس لأنني ولدت في جورجيا، وإنما لأن شجيرات القرانيا تمثّل زهرة ولاية جورجيا». فقالت كلير فجأة: «لذلك تحديداً فإنكما تتأثران بأشيائكما الخاصة، ليس لأنكما اشتريتماها بأسعار باهظة، وإنما لأنها تمثل رموزاً لحياتكما المشتركة معاً». ضحك العاشقان، ثم أصابا الطفلة التي وقفت بجوارهما كذلك بعدوى المشاركة اللاإرادية في الضحك. قالا: «في أحلامنا ستتحول حتى أدواتنا المنزلية بمرور الوقت إلى أدوات منزلية تابعة للولايات المتحدة الأمريكية. حينئذٍ سوف يكون بوسعنا أخيراً أن نحلم نحن الاثنين بالشيء نفسه».

كنا جالسين أثناء ذلك الحديث على سطح باخرة **مارك توين** ننتظر أن تنطلق بنا السفينة عبر نهر الميسيسيبي. كان الكثير من السوّاح حولنا ـ أمريكيين فقط ـ ينتظرون مثلنا، وعلب البيرة، وأكواب الكوكاكولا، وأكياس الفشار في أيديهم، لا يكادون يتحدثون، عيونهم مثبتة على الحبال التي كان يتم للتو حلّها من على الأوتاد الخشبية المثبتة على كاسرات الأمواج، ثم على مدخنتَي التدفئة السوداوين المرتفعتين. تحركت السفينة رويداً إلى الوراء مبحرة عكس التيار. تأرجحت في مكانها قليلاً، سُمع صوت قرقرة الأبخرة المحبوسة يهسهس داخل صمامات الأمان، تصاعد دخان حالك السواد من المداخن فأعتم السماء على الفور. حينئذٍ أطلقت السفينة إشارة بالبخار، لم يستطع أيُّ منا ـ ولا حتى كلير ـ أن يصفها للطفلة التي دست رأسها على أثرها بين سيقاننا على الفور: لم يكن صوتاً، إنما هو الصخب الطويل المتكرر لآلة

Twitter: @ketab_n

الفلوت الغربية، كان يتعين على المرء تخيُّل أن شعباً بأكمله ينفخ في ثقبها؛ كان الصخب في منتهى البُغض والوحشية، وفي المقابل ـ مع منظر عمود الدخان الأسود المتصاعد بكثافة أعلى في الوقت نفسه، ونهر الميسيسيبي العريض الذي يصعب تجاهله ـ كان الأمر مؤججاً للعواطف ولمشاعر الفخر، بحيث لم أستطع مقاومة أن أتحرك وأنظر إلى الزاوية بينما يشعر جسدي كله بالتأثر. كانت الإشارة إلى هذا الحد من القوة، بحيث استشعرت لمدة ثوان ـ والفزع يمزقني، بينما كانت ترعد ـ حلماً عن أمريكا التي طالما حكوا لي فقط عنها. كانت تلك بمثابة لحظة قيامة تتولد بشكل روتيني، حيث يفقد كل شيء في العالم المحيط انفصاله عن الأشياء الأخرى، وحيث كان الناس والطبيعة، بل كل ما هو حي وكل ما هو ميت يتحرك في مكانه، وراحت قصة وحيدة مؤلمة وودرامية تتكشف دون غيرها. بأسلوب مسرحي كان نهر الميسيسيبي يجري الآن، وبأسلوب مسرحي راح الركاب يتنقلون من سطح إلى آخر، صعوداً ونزولاً، بينما أخذ رجل مسن، يروي بصوته العميق العريض، في مكبر الصوت تاريخ إبحار البواخر في الأنهار الكبرى: عن العصر الحديث للنقل والتجارة الذي أرسته؛ عن سباق تشغيل البواخر، عن العبيد الزنوج، الذين كانوا يحمّلون الحطب تحت ضوء القمر، عن انفجارات المراجل، وفي النهاية عن استبدال السكك الحديدية بالبواخر. ورغم سأمي عادة من الأصوات التي تصدر عن مكبرات الصوت أثناء الرحلات السياحية، إلا أنني لم أمل أبداً من ذلك الصوت الحماسي.

خلال تلك الأيام كنت أشعر لأول مرة في حياتي ليس فقط بشهية للحياة، لم تكن محمومة فحسب، وإنما أيضاً أطول أمداً. كنت جالساً،

Twitter: @ketab_n

وكنا نأكل ونشرب، وكنت راضياً عن نفسي. لكنني لم أكن أشعر بالنشاط، بل صرت بالأحرى خَمولاً، لم أكد أتحرك، لم أعد أولي اهتماماً لنفسي، ولم أركز ـ مثلما كنت أفعل في السابق ـ على الآخرين، كانت المشاهدات تحدث فقط، من دون انفعال، كنتيجة طبيعية للشعور العام بالحياة. حين كان الآخرون يرقصون، كنت فقط أشاهدهم، أوافقهم ـ دون أن أشعر بأي ضغط ـ على أن أشاركهم الرقص. لم أعد أفهم، كيف كنت في الماضي أدع أشكالاً أخرى للحياة تقمعني. لم أكن طيلة حياتي أشعر بالارتياح أبداً أثناء الرقص، كان المرء يبدأ، ويتوقف، ثم يكون عليه أن ينتظر، حتى يمكن البدء من جديد. الذي كان جميلاً هو كل حركة منفردة كانت تتتابع ببساطة ضمن مجرى الأحداث اليومية، إيماءة وداع يقوم بها المرء في اللحظة المناسبة، وعلى مسافة صحيحة تماماً، ملمح واحد كان يوفر على المرء رداً صريحاً، وكان مع ذلك مهذباً، ينم عن المشاركة، كذلك الإيماءة الناجحة التي كان المرء يلجأ إليها حين يترك النقود المتبقية للنادل؛ كنت في تلك الأثناء أكاد أفقد شعوري بالجاذبية الأرضية، ربما مثلما كان الآخرون يشعرون أثناء الرقص.

أكثرت من شرب الخمر، من دون أن أثمل، تدهورت حالتي ظاهرياً، لكنني كنت أتحرك بثقة، وحين رحلنا، جلسنا على مائدة طويلة، وتناولنا الغذاء، أما الطفلة التي جلست بيننا ـ تارة هنا وتارة هناك، بوجه ملطخ ـ فقد جعلت تناول الطعام أكثر بهجة واكتمالاً. كانت تحكي لنا أحياناً فيما بعد ـ في جمل مكتملة ومضبوطة ـ ما كنا قد فعلناه وشهدناه: «كنا في المطعم، أكلنا وشربنا، وتحدثنا وضحكنا». وأثناء ذلك، حين كانت قد انتهت من وصف كل تلك الأحداث من خلال

Twitter: @ketab_n

جملها المكتملة، ولم يكن مع ذلك بوسعها ـ بغض النظر عن اختلافاتنا ـ أن تكون قد خبرت أي شيء من ذلك مثلما خبرناه نحن، أصابني الفزع من جديد لتعاطفي معها، وقد بدا لي الأمر كأنها لم تكن معنا أثناء ذلك كله: مع ذلك بدا ما قالته ـ رغم صحته ومعقوليته، وتحديداً لأنها عبرت عنه بقدر كبير من العقلانية ـ كثرثرة مشوشة مجتزأة من سياقها، فتذكرت كيف ظللت أنا لسنوات طويلة ـ مع الأخذ في الاعتبار أنني كنت خلالها منفياً بين مجموعة من المحظورات ـ أتعلم كيف أصف الخبرات من دون أن يُسمح لي بتصور أحداث حقيقية كنت قد عايشتها، هذا فضلاً عن قدرتي على تحقيقها. ففي نظام المدارس الداخلية التي نشأت فيها، كان المرء معزولاً تقريباً عن العالم الخارجي، ومع ذلك فإن تعدد أوجه الحظر والحرمان ـ كان قد منحني فرصاً أكبر لاكتساب الخبرات، أكثر بكثير مما كنت لأتعلمه في العالم الخارجي، وسط الظروف الاعتيادية. هكذا بدأ الخيال يثرثر، حتى كدت أتحول إلى شخص غبيّ. وعلى الرغم من ذلك، ومع تأمل هذه الفكرة، أصابني شعور بالبؤس مرة أخرى، هل كانت المحظورات من خلال تكوينها *نظاماً*، ـ لاحقاً، حين أتيح لي اكتساب الخبرات ـ تعمل على أن أشهدها *بانتظام*، وأن أستطيع تصنيف كل خبرة، وأن أعرف أيضاً، أيّ الخبرات لا تزال تنقصني، وألا أعوّل على خبرة واحدة دون الخبرات الأخرى، وألا يجن جنوني فوراً على الأقل بهذه طريقة. كذلك استطعت بهذه الطريقة مواجهة فكرة الانتحار؛ في المقابل كنت في مرات أكثر أخشى انتحار الآخرين، الذين لم يكن بوسعهم مساعدة أنفسهم مستعينين بنظامي.

Twitter: @ketab_n

لم أعد أتحدث إلى نفسي، وصرت أسعد باليوم، كما كنت في الماضي أسعد بالليل؛ أظافري وشعري صارا ينموان بسرعة أكبر.

لكنني كنت لا أزال أرى الكوابيس، كنت أصحو فجأة مرتجفاً، فأظل مستلقياً، من دون أن ألاحظ أنني استيقظت بالفعل. «كان ذلك يشبه صوت بوق ساعي البريد، آتياً من أعماق أعماق الصدر» (من رواية هاينريش الأخضر)، هكذا كانت الصور المفزعة توقظني، ولاتزال تفعل. ذات مرة حلمت بأن فمي كان مفتوحاً، فاستيقظت بينما كان فمي محكم الغلق.

في سانت لويس حدث أيضاً أنني حكيت لكلير قصة يوديت. لم أعد أخاف عليها، كأنما أراد شخص أن يفك مسماراً حلزونياً ـ تمت محاولة فكّه بالفعل عدة مرات بلا جدوى ـ فيصير فجأة على يقين مسبقاً أن المسمار سوف يدور في المرة القادمة على الفور، هكذا استطعت في تلك اللحظة أن أبدأ في الكلام دون جهد. قلت: «كنت أخشى أن أضربها حتى الموت، ولازلت أخشى ذلك. ذات مرة خنقنا بعضنا في الشارع، بعدها دخلت إلى البيت وغسلت يديّ بمنتهى التلقائية. في مرة أخرى كنا قد التقينا مرة أخرى بعد فترة غياب طويلة، فتولد بيننا في البداية أيضاً شعور قديم بالودّ، لكن لم تنقضِ بضع دقائق، وبضعة أسئلة حتى راودني فجأة تصوّر كأن صندوق الطرد تم سحب المياه منه بداخلي، بينما لم تكد المياه تتجمع بداخل حاويته. صحيح أننا كنا لانزال نعيش معاً، لكن كان حالنا يرثى له، بحيث كان كل مناً ـ حين نذهب للسباحة على الشاطئ على سبيل المثال ـ يدهن ظهره بكريم الوقاية من الشمس بنفسه. أقصى ما كنا لانزال نتحمله هو أن نسير

Twitter: @ketab_n

متجاورين. ومع ذلك لم يعد أحدنا يكاد يترك الآخر وشأنه، بعد تلك المشاهد كان أحدنا يخرج إلى الشرفة على أقصى تقدير، ثم يخطو باتجاه الآخر في الغرفة مرة أخرى. كان كل منا لايزال يخاف على الآخر، وحين قمت ذات مرة بضربها في الظلام، بحثت عنها لاحقاً بعد مرور وقت قصير، عانقتها وسألت إن كانت لا تزال على قيد الحياة».

«كلما كنت أحاول أن أشرح لنفسي كيف آلت الأمور إلى ما آلت إليه، كانت التجارب تتحول إلى محض ظواهر وشواهد، ثم يبدو الأمر كأنني أنا من كان يظلم يوديت، بأن كنت ألعب سلفاً لعبة العلل المنظمة، حيث تكون كل تجربة موضحة مسبقاً، فتصير بذلك أيضاً غير واقعية. كانت مشاعر الكراهية بيننا حقيقية جداً، لدرجة أن تلك التفسيرات ـ حتى وإن كنا قد ظللنا في البداية نحاول ـ بدت لنا سخيفة/ وكأن فيها استهانة واستهزاء بتعاستنا. حين قلت ليوديت ذات مرة إن ميلها إلى الاحتفاظ لنفسها بكل معلومة صغيرة عن العالم المحيط، وبكل ما هو مطبوع في العموم ـ سواء كان على شكل نشوة دينية أم صيغة عالمية شاملة ـ ولترتيب أسلوب حياتها كله بناءً على هذا النوع من المعلومات، ـ عن الاختناق بتلوث الهواء وهوس الغذاء الصحي ـ كل هذا يمكن تفسيره بأنها لم تكتسب أبداً خلال عملية تربيتها أية معلومة بشكل صحيح، لذلك فهي الآن تحول كل الصغائر إلى أصنام تقدسها، لكنني عضضت على شفتي في نهاية الشرح، واعترفت أن يوديت كانت تسمي هي الأخرى أسلوبي في التفسير عبادة للأصنام، كنت أودّ من خلالها أن أبعد الانتباه عني. في العموم كانت التفسيرات في البداية ـ حين كنت لا ألحظ تغيرات يوديت سوى كل حين، من دون أن آخذها على محمل الجد ـ تنفلت بسهولة من فمي؛ بل إنني كنت فخوراً بها،

Twitter: @ketab_n

وكانت يوديت أيضاً تتفهمها، كنت فقط أتعجب من كونها لا تلتزم بها. بعد ذلك لاحظت كيف بدأت تكره التفسيرات، ليس لأنها كانت تبدو لها خاطئة، وإنما لكونها تفسيرات، وكيف أنها ـ حين كنت أجلس أمامها وأبدأ في التفسير ـ لم تعد ترغب في الاستماع إليّ. كانت يوديت تقول: «إنك غبيّ!» وكنت فجأة أشعر بأنني غبي حقاً. أخذ هذا الشعور بالحماقة يتمدد بداخلي، رحت أداعب به نفسي، بل وكنت أشعر بالارتياح أثناء ذلك. والآن أصبحنا أخيراً عدوّين إلى الأبد، لم أعد أفسر، بل صرت أتشاجر فحسب، كان بديهياً جداً، أننا لم نتحمل ذلك بعد فترة وجيزة، وكان كلٌّ منا يريد أيضاً أن يجرح الآخر جسدياً. عدت في تلك الأثناء ـ رغم أن صبري كان قد نفد فعلاً ـ أشعر بالابتهاج الشديد مرة أخرى أثناء التفكير فيما حققته من نجاح في أن أصير فظاً مثل الآخرين؛ لأنه حتى الآن كان أكثر ما يصيبني بالفزع هو أن الناس ـ الذين كانوا لتوهم يتصرفون مع المرء بحميمية ـ قد يصيرون فجأة أفظاظاً. كنت دائماً أسأل: «كيف يكون ذلك ممكناً؟!» والآن صرت أنا نفسي كذلك، لم أستطع أن أكون أي شيء غير ذلك، كان كلٌّ منا قد حوّل الآخر إلى مسخ».

«لم ننفصل، لأن أيّاً منا لم يكن يريد الاستسلام. مع ذلك لم يكن مهماً على الإطلاق، أن يتمسك أحدنا بحقه في أن يمتلك، بحيث يعاتب الآخر على شيء ما: كان الأهم ـ وهو ما كنا نكاد نترصد له ـ هو أن يدع كل منا الآخر يوقع نفسه بنفسه في الخطأ بناءً على هذا العتاب. حين كان أحدنا يُتهم بشيء، كانت كل حركة تصدر عنه بعد ذلك تتم مراقبتها، لكي يثبت التهمة على نفسه بنفسه. الأسوأ هو أن أحدنا لم يعد يوجه اللوم للآخر، بل كان كل منا يحرص في صمت

Twitter: @ketab_n

على وجود مواقف بعينها، حيث يشعر الآخر من تلقاء نفسه بالذنب. لم نعد نتشاجر، كان كل منا يريد فقط أن يلحق الخزي بالآخر. لذلك كان أحدنا يقوم بغسل الأطباق بعد أن يكون الآخر قد غسلها من قبل، أو يرتب المكان على الفور، بعد أن يكون الآخر قد غادره لتوه، أو يقوم سراً بعمل ما، كان الآخر قد اعتاد القيام به، أو يعيد شيئاً إلى مكانه الصحيح، حين يكون الآخر قد وضعه في المكان الخطأ. بدأت يوديت فجأة تحمل أشياءً ثقيلة من غرفة إلى أخرى، وتتخلص من القمامة كل يوم، دون أن تسمح لي بمساعدتها. كانت تقول: «لقد قمت أنا بذلك بالفعل». بهذا الأسلوب حاول كلٌّ منا أن يستبق الآخر، فأخذنا نصير أكثر دأباً، وأكثر صخباً باستمراراً. كان كلٌّ يبحث عما كان لايزال يستطيع أن يفعل، لم نكد ندع لأنفسنا مجالاً للراحة، لم تكن الحجج هي ما يحسم النزاعات، وإنما الحرب النفسية حول الأفعال المختلفة، التي كنا نتحول عنها بعد ذلك على الفور. ولم يكن أي شيء، مما يفعله أحدنا، هو ما يحسم المخرج من تلك الحرب النفسية، وإنما التسلسل الذي كان كل منا يتبعه خلالها. أي خطأ في الإيقاع، أي طريق غير ضروري، أي تردد قبل الإقدام على الفعل القادم، كان يوقع بصاحبه في الخطأ على الفور. كان المنتصر دائماً هو من يجد ـ لما كان قد اختاره لنفسه ـ الطريق الأقصر من دون تفكير. هكذا كان كل منا يتحرك عابراً أمام الآخر من فرط الكراهية، كأننا نتحرك داخل لوحة راقصة، بتجانس مدروس متناهي الدقة، فإذا ما نجحنا ذات مرة نحن الاثنين في كل شيء، كنا نعود نتعامل معاً بندية لفترة طويلة مرة أخرى».

قلت: «مثلما يفعل العاشقان هنا كنا قد حددنا ملكية كل الأشياء حولنا، ونسبنا لكلٍّ منا شيئاً من الأشياء المحيطة بنا، لكن ليس من باب

Twitter: @ketab_n

المودّة، وإنما من باب العداء، فقد كنا نسقط ذلك العداء على الأشياء. على سبيل المثال ـ رغم أن الأمر كان معروفاً على أية حال ـ كان أحدنا يقول للآخر: «كرسيك يصدر صريراً»، «تفاحاتك المقضومة تملأ المكان»».

«كان كلٌّ منا أحياناً يصف تصرفات الآخر. حينئذٍ كنا نصاب بالهلع، ثم يبدو كلٌّ منا للآخر مثيراً للسخرية. فإذا حدث وافترقنا في مرة من المرات، كان كل شيء يبدو على الفور غير حقيقي. إلا أننا كنا قد استسلمنا تماماً لعصبياتنا. لم يعد ينفعنا كذلك أن كنا نريد التغاضي عن أنفسنا».

«كانت هناك لحظات تصالُح تحدث عن طريق الصدفة: كنا نضطر أن نمر عابرين أمام بعضنا مصادفةً، حين يكون هناك شيء ما واقفاً في طريقنا، فكنا نتعانق على الفور، دون أن نعرف كيف تأتى هذا. أو كانت هي تنحني باتجاهي، لكي تضع شيئاً جانباً، وفجأة أكون قد سحبتها إلى الأسفل، من دون أن أكون قد تمنيت ذلك بالفعل: حينئذ كنا نظل لفترة متعانقين، بينما شعور بالفراغ كان يتنامى بداخل كلينا؛ وفي النهاية كنا ننسل عن بعضنا مستثارين. كانت تلك المهادنات تحدث هكذا بالصدفة، مثلاً كما تنشأ داخل طفلتك الرغبات: في السيارة كانت قد ترنحت إلى الناحية ذات مرة خلال أحد المنعطفات، فتولدّت بداخلها على الفور الرغبة في أن تستلقي. وقد رقدت بالفعل، إلا أنها ما لبثت أن وقفت ثانية، إذ لم تكن تشعر بالإرهاق من الأساس. كذلك تكن لدينا نحن أيضاً أية رغبة في التصالح».

«ومع ذلك كان شعوري بالتحرر يتزايد، وكنت أعتقد أن نفس الشعور يعتريها. شعرت بارتياح لأننا لم نعد نستطيع أن نتحالف ضد

Twitter: @ketab_n

الآخرين، بواسطة مظاهر خصوصيتنا القديمة، لأننا لم نعد بحاجة لإثارة بعضنا، ولأننا لم نعد بحاجة لأن نلجأ إلى لغة الأزواج السرية التي لا يفهمها سواهما لاستبعاد الآخرين من الأحاديث. لم نكد نتحدث إلى بعضنا، ومع ذلك فقد بدا لي أنني كنت صريحاً ومنفتحاً. حين لم نكن ننفرد بنفسينا، أي حين كنا نلعب أدواراً، يعدها الآخرون ـ المضيفون في المطعم، والمسافرون في المطار، ورواد دار السينما، والضيوف، وغيرهم ـ تجسيداً لأدوار بعينها، كنا نعود نتوافق مرة أخرى، لأننا كنا نعيش تلك التجربة على اعتبار أننا نؤدي ممثلي أدواراً بعينها، كنا نكاد نفخر بالتلقائية التي صرنا نؤدي بها تلك الأدوار. كنا بطبيعة الحال نقي أنفسنا من الاقتراب من بعضنا، كان كل منا يبقى وحده، أو يلكز الآخر عابراً أثناء مروره أمامه على الأكثر. اتضح أيضاً بالإضافة إلى ذلك ـ تحديداً بعد آخرسخافات المواقف الفظة بيننا، حين لم يعد بوسعنا سوى الوقوف في المكان مرتعشين شاحبين ـ أن شعوراً بالحساسية تجاه يوديت صار ينتابني، كنت أشعر به أقوى من شعوري بالحب تجاهها في الماضي، وأثناء انشغالي بشيء آخر، كان شعور بالطمأنينة يتجلى بداخلي، حيث يذوب التوتر في ألم لذيذ».

قلت: «هكذا كنت لأستطيع الاستمرار في الحياة. كان ذلك اغتراباً حسيًّاً، كنت خلاله أصف يوديت في تعبيري عن كرهي لها بال شيء، وفي تعبيري عن الطمأنينة بالكائن. كنت أؤمن بأن حال يوديت يشبه حالي، لكنني بعد ذلك انتبهت إلى أنها كانت قد صارت باردة فحسب. كانت ترتعد حين يوجه أحد الكلام إليها. كانت تلعب وحدها ألعاباً يفترض أن يشترك فيها آخرون. كانت تحكي لي أنها تمارس العادة السرية؛ إلا أنني لم أقل لها، أنني أيضاً كنت قد بدأت أستمني. عند تصوّر أننا كنا ننام في غرفتين منفصلتين، وربما كان كل منا يمارس

Twitter: @ketab_n

العادة السرية في اللحظة نفسها، كان يخالجني شعور بالهزل والبؤس معاً. لكنني لم أستطع مساعدتها، فقد كنت أسير الكراهية والغلظة، متسمراً في خدري. لم أعد أحلم ولا مرة واحدة، بأن أكون على علاقة بأية امرأة. حتى أثناء ممارسة العادة السرية لم أكن قادراً على تخيّل أية امرأة: كنت أضطر لأن أدع عينيّ مفتوحتين، وأن أنظر إلى صورة عارية».

«كان كلٌّ منا أحياناً يخدش الآخر فحسب. كانت يوديت تدير وجهها فقط، إلا أنها لم تعد تبكي كما كانت تفعل في السابق. كانت تنفق أموالها على الفور، تشترى كل ما يمكن شراؤه، فراء دب قطبي، جهاز جرامافون، من النوع الذي كان لابد من تشغيله يدوياً، آلة فلوت، تكون قد أعجبتها فقط لأنه كان على ثقب النفخ فيها شبكة عنكبوت. كانت لا تشتري سوى الأطعمة الفاخرة والأطباق المخصوصة. كانت أحياناً تعود من دون أي شيء، لأنه لم يكن هناك شيء شكله بالضبط كما كانت قد تخيلته مسبقاً، وكانت البائعات الغبيات تثرن استياءها. كنت صبري قد نفد، ومع ذلك كنت أشعر بالخوف عليها. عندما كانت تنحنى خارج النافذة، كنت أقف وراءها، كأنني أريد أن أنظر أنا أيضاً إلى الخارج. كنت أراها طوال الوقت تتعثر وتصطدم بزوايا المنزل. ذات مرة أصابني الذعر حقاً ـ لدى النظر إلى حامل الكتب التي كانت قد نجّرته قبل أعوام ـ إذ كان الحامل لايزال سليماً، وفي مكانه، وفي تلك اللحظة اتضح لي فجأة، أنني صرت أعتبر أنني خسرت يوديت بالفعل. أخذ وجهها يبدو مهموماً أكثر فأكثر، لكنني لم أعد أستطيع ملاحظة هذا التعبير عن حمل الهم. والآن تعرفين مثلاً لماذا أنا هنا».

كنت قد اتصلت بالفندق في فيلادلفيا بعد وصولنا مباشرة، وأعطيتهم عنواني ورقم هاتفي في سانت لويس. بعد ذلك ـ أثناء حديثي عن

Twitter: @ketab_n

يوديت ـ نسيتها تدريجيّاً، ولم أعد أفكر في أنها ربما تكون على مقربة من هنا. بدا لي كل شيء منتهياً. ذات يوم كنا جالسين في شرفة المنزل، كانت الطفلة قد نامت بالداخل في سريرها بالفعل، كانت تتحدث إلى نفسها بصوت عالٍ، كنا نستمع إليها أو نتبادل الحديث أحياناً بصوت خفيض فحسب، كان العاشقان جالسين على إحدى الأرائك، لافّين وشاحاً حول أكتافهما، كانت كلير تقرأ في رواية هاينريش الأخضر، أما أنا فلم تكن لدي رغبة في القراءة خلال تلك الأيام، فرحت أشاهدها، بينما رن في المنزل جرس الهاتف. أوقفت الكرسي الهزاز، كنت قد عرفت مسبقاً ـ أثناء دخول السيدة ـ أن المكالمة كانت لي. جاءت السيدة إلى الباب وأشارت إليّ في صمت نحو السماعة. كنت شبه واقف، فتوجهت إلى داخل المنزل على أطراف أصابعي، كأنما كان عليّ أن أعتذر. رددت على المكالمة هامساً تقريباً، لكن أحداً لم يجب: أعدت قول إنني هنا، لم يخطر ببالي أن أسأل، عمّن كان يريد التحدث إليّ. لم أسمع شيئاً، مرة واحدة فقط سمعت صخب شاحنة كانت قد مرت بسرعة، ثم رنة جرس، تخيلت على الفور أنه جرس إنذار في إحدى محطات الوقود. لم أزد في القول، وضعت السماعة بهدوء على التحويلة. كذلك لم أكن أريد أن أعرف مِن السيدة مَنْ الذي كان يطلبني.

بعد يومين جاءتني بطاقة معايدة، مطبوعة عليها تهنئة بعيد ميلادي: بين كلمات «عيد ميلاد سعيد» كانت كلمة «أخير» مضافة بخط اليد؛ كان الخط يشبه خط يوديت، إلا أنه مع ذلك بدا غريباً جداً؛ ففي واقع الأمر كانت يوديت لا تكتب سوى بقلم الحبر، لم تكن تستخدم الحبر الجاف مطلقاً. كانت صورة بولاروید ملصوقة على ظهر البطاقة، ظهرت فيها لقطة عن قرب لمسدس، تبرز من ساقيته رصاصة لم يتم دفعها بعد إلى الداخل. رويداً رويداً أخذت تختمر بداخلي فكرة أن تكون تلك البطاقة

Twitter: @ketab_n

بمثابة تهديد، وفجأة صار واضحاً لي تماماً أن يوديت كانت تريد قتلي. صحيح أنني لم أكن أعتقد أنها ستفعل ذلك بي فعلاً، ولكن مجرد أن تكون النية لديها، فقد كان ذلك يجعلني فخوراً بنفسي. كنت أظن أنه على الأقل لا يمكن أن يصيبني أي شيء الآن؛ بدا لي التهديد، كصيغة حماية في مواجهة أية مخاطر أو مصائب أخرى. «الآن لم يعد من الممكن أن يصيبني أيُّ شيء». هكذا خطر لي، فقمت كذلك بتبديل كل شيكاتي السياحية بأوراق نقدية.

كنت قد عرفت كذلك أن يوديت كانت قد لحقتني تحديداً بهذه النية. كان كل منا بالفعل يهدد الآخر أحياناً بالقتل، ليس لرغبة أحدنا أن يرى الآخر ميتاً، وإنما لأن كلاً منا كان يريد إلغاء الآخر والإتيان عليه. كان ذلك ليشبه نوعاً من القتل اللذيذ، حيث يعذب القاتل الضحية ويزدريها، لكي تشعر هي من تلقاء نفسها بأنها عديمة القيمة. لكن كم كنا لِنُصاب بالفزع حين يفكر أحدنا في نفسه فجأةً بوصفه قتيلاً!

كانت مسألة كتابة يوديت لهذه البطاقة وإرسالها، أمراً ملائماً لها، ومتوافقاً تماماً مع طريقتها في اتخاذ وضعيات بعينها عندما يساورها الشك. كانت جالسة، وقد ظهر مقطع جانبي لوجهها، متكئة إلى الوراء، والمسدس على حِجرها، ومن خلفها ستار شبه مفتوح مسدَل، في عتمة إحدى غرف الفنادق، تدير الخواتم حول أصابعها. كنت قد شهدت موتي ذات مرة في الحلم: كان هناك بضعة أشخاص أمامي، يقفون بين الحين والآخر على أطراف أصابعهم؛ ثم اتخذ كلٌّ منهم تدريجياً مكانه، وصمت الجميع؛ انضم آخرون إليهم كذلك، لكنهم ظلوا واقفين على مسافة بعيدة صامتين؛ بعيداً جداً في الخلفية كانت هناك طفلة تركض باتجاههن. لم تعد تفعل شيئاً سوى كونها متململةً، ثم نامت وهي واقفةً، وكنت أنا قد متّ. مع أنني لم أعد أفكر في موتي

Twitter: @ketab_n

منذ ذلك الحين، وكنت فقط أشعر ببعض الانزعاج بين الحين والآخر، فقد صارت صورة يوديت ومن خلفها الستار شبه مسدل لذلك أيضاً تمثّل لي صورة الوداع، وقد تأكدت أننا لم تعد تربطنا أية علاقة منذ هذه اللحظة. لم أحلم ولا مرة واحدة بها، حتى رغبتي الخاصة في القتل، كنت قد نسيتها. أحياناً كنت أشعر أنني مراقب، لكنني لم أكن ألتفت إلى الوراء. حين كنا في الماضي لا نلتقي لفترة، كان أحدنا قد يكتب للآخر: «ينتابني الفضول بشأن أحوالك». لكنني لم أعد أشعر بالفضول.

بما أن الرسام ـ حين كان يرسم الملصقات الدعائية ـ كان يحصل أيضاً على تذاكر مجانية للأفلام، فقد كنا نذهب كثيراً للسينما. كنت غالباً ما أتوق للخروج من دار العرض، وكنت أتنفس الصعداء عند الخروج. كانت متابعة أشياء بعينها تجهدني، وكان إيقاع الصور يشعرني بالضيق، ويصيبني بالألم أثناء التنفس. نسيت نفسي مرة واحدة فقط عندما كنت مع العاشقين ـ بينما كانت كلير قد اصطحبت الطفلة لتريها المنطقة التي كانت فيها أرض المعرض الدولي، الذي أقيم في سانت لويس ـ لويزيانا عام ١٩٠٤ ـ أشاهد فيلم «Young Mr. Lincoln» للمخرج جون فورد، كما صارت المشاهدة في الوقت نفسه تشبه الحلم. وسط صور الماضي، خلال سنوات شباب أبراهام لينكولن، كنت أنا أحلم بمستقبلي، ومن بين الأشكال التي تظهر في الفيلم، كنت أحلم سلفاً بالأشخاص الذين لازلت سوف ألتقيهم فيما بعد. كنت كلما أطلت المشاهدة، كلما اشتدت رغبتي في أن ألتقي فقط بأناس مثل الذين ظهروا في الفيلم، وفي ألا أضطر للتصنّع، بل أن يكون بوسعي أن أتحرك كما يتحركون هم بين أقرانهم، وأن أنخرط معهم، ولكن في المساحة التي تخصني أنا وحدي، مع احترام المساحة التي تخص الآخرين. في طفولتي كنت أودّ محاكاة كل شيء، الإيماءات،

Twitter: @ketab_n

والتصرفات، والترقين، أما الآن فقد اتخذت لنفسي من هؤلاء الأشخاص ـ الذين بذلوا كل ما بوسعهم ليعبروا عمّا بداخلهم ـ مثالاً لي: لم أكن أريد أن أصبح مثلهم، وإنما أن أبذل أقصى ما باستطاعتي مثلهم. قبل فترة ليست ببعيدة ربما كنت لأحاول محاكاة اللهجة الجنوبية التي كانوا يتحدثون بها، كأنما أرادوا أن يذكروا بعضهم بشيء ما بهدوء، أو تقليد ابتسامة هنري فوندا الخارجة من القلب، التي يصعب تقليدها، والتي لم تكن مقصودة بحد ذاتها، وإنما كانت موجهة بتفان دائم إلى الآخرين، وقد كان لا يزال شاباً، عندما لعب دور المحامي الشاب أبراهام لينكولن قبل ثلاثين عاماً؛ ـ حينئذٍ كنت قد تخلصت من هذا الحنين المصطنع، وأخذت أحملق في الشاشة بالأعلى بلا اكتراث.

كان أبراهام لينكولن هناك يتولى الدفاع عن أخوين غريبين، كانا متهمين بقتل نائب المأمور. وكان النائب الآخر ـ واسمه بالمر كاس ـ قد ادعى أنه رأى تحت ضوء القمر، كيف طعن الأخ الأكبر الرجل. فادعى الأخ الأصغر حينئذٍ، أنه هو الذي فعل ذلك. كانت أم الأخوين قد شهدت الوقعة من عربة الحنطور، إلا أنها لم ترد أن تقول، أيّاً من أبنائها هو الذي كان قد فعلها. كانت هناك محاولة للزج بالاثنين دون محاكمة حقيقية، إلا أن لينكولن تصدّى لذلك، بأن ذكّر السكارى بنفسه بصوت خفيض، وبكيف كان يمكن أن تكون مصائرهم، وبما كانوا قد نسوه، ولم يترك هذا المشهد ـ وهو يقف على الدرَج الخشبي أمام السجن، مهدداً والعارضة الخشبية بين ذراعيه ـ أيّ مجال للتصرف، استمر لوقت طويل جداً، حتى صار بإمكان المرء أن يرى، كيف استمتع ـ ليس السكارى وحدهم، بل الممثلون الذين لعبوا دورهم كذلك ـ بالإنصات إلى ليكولن، ثم خرجوا من المشهد، وقد تغير شيء ما بداخلهم إلىٰ الأبد، كما ساد شعور عام في دار العرض بأن

Twitter: @ketab_n

المتفرجين كذلك صاروا يتنفسون بطريقة مختلفة، وأن حياة جديدة سوف تُبعث فيهم من جديد. خلال المرافعة أثبت لينكولن أن كاس لا يمكن أن يكون قد استطاع رؤية القاتل، إذ كان القمر هلالاً ليلة وقوع الجريمة. منذ تلك اللحظة صار ـ بدلاً من أن يسميه ج. بالمر كاس ـ يطلق عليه اسم جون ب. كاس، وقد حوّل أصابع الاتهام نحو ذلك ال جون ب. كاس، وادَّعى عليه بأنه هو الذي قتل زميله، الذي كان قد جُرِح فقط أثناء الشجار مع الأخوين. من داخل عربة الحنطور التي كانت العائلة ستكمل ارتحالها بها غرباً، سلمت أمُّ الأخوين الحاصلين على البراءة لينكولن الواقف بالأسفل أتعاب المحاماة في سُرّة: «فلتتفضلوا بأخذها، إنها كل ما أملك!» فأخذها لينكولن: «Thank you, Ma'm!». انصرف بعد ذلك عن السكان المستوطنين، وصعد وحيداً أحد التلال. كان قد ظهر مرة خلال الفيلم لفترة طويلة مع صياد حيوانات الفراء على ظهر حمار، معتمراً قبعة اسطوانية، بينما كادت قدماه تتجرجران على الأرض، وقد امتطيا حماراً وسط الطبيعة في فصل الربيع، بينما أخذ يعزف على آلة المزمار طوال الوقت. سأله الصياد: «ماهذه الآلة؟» فأجاب أبراهام لينكولين: «إنها قيثارة اليهود». فقال الصياد: «شعب غريب بموسيقاهم تلك. لكن لها جرس جميل». واحد ينفخ في المزمار، والآخر يتمايل برأسه، هكذا ظلا على ظهر الحمار لفترة طويلة وسط الطبيعة.

قلت لكلير حين ذهبنا لإحضارها من أرض المعرض الدولي: «سوف أذهب لزيارة جون فورد. سأسأله عن ذكرياته عن الفيلم، وإن كان لا يزال يلتقي في بعض الأحيان بهنري فوندا، الذي صار يمثّل الآن في المسلسلات العائلية. سأقول له إن هذا الفيلم قد عرفني على أمريكا، وإنه علمني الوعي بالتاريخ من خلال مشاهدة البشر وسط الطبيعة، وإنه

Twitter: @ketab_n

كان يجعل مزاجي أكثر ابتهاجاً. سأرجوه أن يشرح لي، كيف كان هو نفسه في الماضي، وكيف تغيرت أمريكا منذ أن توقف عن التمثيل في الأفلام السينمائية».

تمشينا جميعنا لبعض الوقت هنا وهناك، كانت الطفلة تمشي أمامنا، وكانت المصابيح تتلألأ تحت الشمس المنخفضة، كأنما تمت إضاءتها بالفعل، راودتني رغبة في رمي شيء ما، فرميت قطعة من حلوى الجيلاتين عبر سور حديقة الحيوان، جاء بعض الناس في مواجهتنا، كانت عيونهم محمرّة من أثر رحلة الإبحار ـ مع وضد التيار ـ في مجاري الأنهار الداخلية، جلسنا نحن أيضاً حينئذٍ مع الطفلة في إحدى العربات، وبينما سرنا بها على الطريق، غربت الشمس خلف مساحات الملصقات الدعائية، وأخذت تومض قليلاً من بينها؛ لم يكن المرء يراها عندئذٍ سوى حين وصلت العربة بالأعلى على القمة، في المرة التالية كانت قد اختفت عند منطقة ميسوري.

كنا واقفين وقت الغسق في الحديقة أمام الكوخ الخشبي، لا نكاد نفعل شيئاً، لم نكن نلبث نقدّم قدماً على الأخرى حتى تغطس إحداهما في الوحل، كأن لنا قدماً واحدة، كان أحدنا بين الحين والآخر يأخذ رشفة من كأس النبيذ، الذي بدا منسيّاً بين يديه. أحياناً كان يراود أحدنا شعور بالخوف من أن يفقد القدرة على الإمساك به، إلى هذا الحد كان إحساسنا بأنفسنا قد تلاشى! لم تعد العصافير تغرد، بل كانت تثب فقط بين الشجيرات. كان المرء يرى في المحيط بضعة أشخاص يسيرون من سياراتهم إلى منازلهم. لم يكد أحد في الشارع يتحرك، بين النسمات أخذت تخف رويداً، كانت أزهار الماجنوليا المتساقطة لاتزال تتطاير هنا وهناك، إذ دفعتها الرياح الأولى التي هبت بعد غروب الشمس مباشرة إلى الخارج نحو الأرصفة. بدا انعكاس الألوان على نافذة أحد المباني

Twitter: @ketab_n

المجاورة، بحيث كانت الألوان تتبدل بين ثانية وأخرى: في البيت الذي كان فيما عدا ذلك مظلماً في أغلب الأوقات، كان التلفاز الملون قد تم تشغيله. في بيتنا أيضاً كانت هناك نافذة مفتوحة في الطابق السفلي؛ كان نور الغرفة مضاءً، لم يكن شيء يُرى سوى سطوع الضوء على الجدار الخلفي، الذي كانت كلير تعبر أمامه بين الحين والآخر، إذ كانت للتو قد وضعت الطفلة في سريرها: ظهرت الطفلة عاريةً على ذراعها تارة، ثم جاءت وحدها من الناحية الأخرى، وزجاجة الشاي معها، ثم صار الجدار خالياً مرة أخرى، ظهر فقط أثر خفيف من ظل كلير، التي كانت في مكان ما في الغرفة تنحني فوق الطفلة؛ وأخيراً لا شيء سوى الجدار الخالي، الذي كان قد بدأ ـ كلما اشتدت الظلمة من حوله ـ يسطع أكثر بنفس القوة، تغطيه صُفرة داكنة، وضوء متساوٍ، لم يكن يستقبله، بل بدا أنه هو نفسه الذي يشعّ به. قال الرسام: «لا يوجد ضوء بمثل هذه الصُّفرة، سوى في اللوحات الزيتية الغربية التي ترجع إلى القرن الماضي. وحتى هذه لا يأتي الضوء فيها من مكان آخر ـ من السماء مثلاً ـ وإنما يخرج تلقائياً من الأرض. ففي لوحات كاتلين وريمنجتون تكون السماء عادة باهتة، وشاحبة، ومُدْخِنة، بحيث لا تُرى الشمس مشرقة أبداً، يسطع من الأرض فقط ضوء أصفر غريب الدكنة، يشرق من الأسفل كأنه خارج من الوجوه. الأصفر هو اللون الطاغي على هذه اللوحات عموماً: إطارات العربات، وغبار البارود الذي يصدر عن الأسلحة، وقضبان السكك الحديدية، كل شيء كان يومض باللون الأصفر، من الداخل إلى الخارج؛ بذلك يتم إبراز كل الأشكال، فيما يشبه شعار النبالة. حالياً ترى ذلك الأصفر أيضاً، إذ يتم تقليده في كل مكان: لافتات مواقف السيارات، والأشرطة الحدودية للطرق، وأسطح مباني سلسلة مطاعم HOWARD - JOHNSON، وصناديق البريد التي

Twitter: @ketab_n

توضع بالخارج أمام الحدائق، والقمصان القصيرة التي تطبع عليها رموز الولايات المتحدة الأمريكية». ـ قلت: «والأسهم المحيطة بفندق **هولياداي إن**». أراني الرسام وصديقته كفوف أيديهما: لم تكد يدا السيدة التي كانت ترسم له السماء دائماً تُرى، أما يدا الرجل فقد التمعتا بالصُفرة وسط الظلمة التي كانت تصبغ كل ما عداهما. قال الرجل: «إنه لون يجعل المرء يبدأ على الفور في التذكر، كما أنه يستدعي ذكريات من الماضي الأبعد، كلما أطال المرء النظر إليه، حتى تستحيل العودة بالذاكرة أبعد من ذلك فجأة. تكون تلك إذن لحظة وقوف المرء أمام اللون حالماً». ـ «In the years of gold» هكذا قالت فجأة السيدة التي كانت في تلك الأثناء قد ابتعدت. انطفأ نور الغرفة، أخذت صورة تلوية وامضة تعشي البصر أينما نظرنا. خرجت كلير من البيت، وفي فمها كسرة خبز، كانت قد تبقت من عشاء الطفلة. بعد ذلك جلسنا ثانيةً في الشرفة، وأخذ العاشقان يتبادلان تدوير الاسطوانات الموسيقية القديمة. أخذ كلٌ منهما يذكر الآخر بما كانا قد مرّا به معاً حين صدرت تلك الاسطوانات. «I Want To Hold Your Hand»: ـ «حينذاك شربنا من أباريق البيرة المثلجة في المطعم المكسيكي بجوار لوس أنجلوس». ـ «Satisfaction» ـ أتذكرين كيف كانت المراتب الهوائية تنزلق على الشاطئ آنذاك؟ ـ «Summer in the City»: ـ «كانت تلك آخر مرة حصلنا فيها على بعض المال من آبائنا!» ـ «Wild Thing»: ـ «كنا نعيش وقتها مثل الشبيحة». ـ «The House Of The Rising Sun»: ... أخذ حماسهما يشتد، ثم قالت كلير فجأة: الآن صار لديكما أناشيد لحياتكما كاملةً، ولن يكون هناك أبداً ما يستدعي القلق. كل ما سوف تمرون به، سيتحول بعد ذلك بدوره تباعاً إلى تجربة». قلت إن ما كنت قد مررت به لا يتجلى في ذاكرتي، بل يتدافع بداخلي حقاً بقوة. «حينئذٍ يصير الطريق الطويل

Twitter: @ketab_n

أطول، وتبدأ صفعة على الوجه تلتهب أكثر. لم أعد أكاد أتصور كيف تحملت كل هذا».

«كان أبي شارب خمر» قلت بنبرة ما وكأنني أردت أن أستبدل ب «My father was a gambling man» أغنية «The House Of The Rising Sun»: وحين كنت أستلقي على سريري، كثيراً ما كنت أسمع قرقرة في الغرفة المجاورة، كلما صبّ بعض الخمر في كأسه: عند تذكر ذلك، تنتابني الرغبة في أن أهشّم رأسه على الفور بدرّاسة الحبوب، وقتها كنت فقط آمل أن أغط في النوم بسرعة. لم يحدث من قبل أبداً أن أثارت الذكريات المشاعر الإيجابية بداخلي؛ فقط حين أسمع أشخاصاً أخرين يستعيدون ذكرياتهم، يحدث أحياناً، أن أشعر بالتحرر من ذكرياتي الخاصة وأتوق إلى زمن من الماضي. على سبيل المثال كنت قد سمعت امرأة أثناء مرورها بجواري ذات مرة تقول: «كان ذلك في الماضي، أيام كنت أقوم بأشياء أكثر بكثير من مجرد تعليب الخضروات...»، وكدت أضطر للبكاء أثناء الاستماع لتلك الكلمات. كما سمعت امرأة أخرى ـ لم أنظر إليها أبداً، لأنني لم أشهدها أبداً إلا وهي تلف سلاسل السجق اللزجة على ذراعها في متجر اللحوم التابع الخاص بها ـ تقول: «حينذاك عندما أصيب أبنائي بالسعال الديكي، وكان عليّ أن أسافر معهم كثيراً بالطائرة...»، ثم فجأة صرت أحسدها على ذاكرتها وشعرت بالحنين إلى الزمن الماضي، حين أصبت أنا نفسي بالسعال الديكي، وحين أقرأ الآن عن رحلات الطيران، يبدو لي أنني قد فوّت على نفسي شيئاً، لن أستطيع تعويضه أبداً. لذلك فإنني أنجذب تحديداً إلى كل ما هو غريب عني تماماً.

قالت كلير: «لكنك حين تتحدث عن هاينريش الأخضر، تبدو مؤمناً بأنه ربما يكون بإمكانك تعويض مغامراته. وأن باستطاعتك تكرار هذا

Twitter: @ketab_n

الزمن مع شخصية من زمن آخر، ومعايشته مرة تلو الأخرى ببساطة مثله، بل وأن تصير أكثر ذكاء من تجربة إلى أخرى، لتصبح في نهاية حكايتك تامّاً ومكتملاً».

أجبتها: «أعرف أنه ما باستطاعة المرء أن يظل يعيش باستمرار مثل هاينريش الأخضر. إنني حين أقرأ عنه، يكون حالي مثل حاله تماماً، حين كان ذات مرة: «مستلقياً في هدوء تحت الأشجار على أطراف الغابة، شاعراً بمسرّة قلبية ساذجة تجاه أحد القرون الماضية»؛ هكذا شعرت أنا أيضاً عبر حكايته بمسرّة تجاه تصوّراتي عن زمن آخر، حيث كان المرء لايزال يعتقد أن عليه أن يتغير باستمرار، وأن العالم ينفتح لكل شخص منفرداً. بالمناسبة فإن العالم يبدو لي منذ بضعة أيام منفتحاً حقاً، وأنني أشهد تجربة جديدة مع كل نظرة. فمادمت أشعر بهذه المتعة تجاه قرن مضى من أجلي، لطالما سوف أودّ أن أتعامل معه بجدية وأن أختبره».

قالت كلير: «حتى ينفد مالك». وبما أنني كنت أنا أيضاً أفكر في ذلك لتوي، فقد أريتها رزمة الدولارات، التي كنت قد استبدلتها بالشيكات السياحية. ابتسم العاشقان حينئذٍ لحديثنا، والتزمنا نحن الصمت، رحنا نستمع إلى الاسطوانات، وإلى الحكايات التي كانا يحكيانها حولها، مع الاختلاف حول بعض التفاصيل أحياناً. حينئذٍ فقط ـ عندما خشي الاثنان على اسطواناتهما من الندى ـ قمنا وذهبنا لننام.

في ظهيرة اليوم التالي ـ تحديداً حين أردنا أنا وكلير ترك الطفلة عند العاشقين، لكي نشاهد العرض الأول لفرقة المسرح الألمانية «دون كارلوس» ـ جاءني طرد بالبريد السريع. كان عبارة عن علبة صغيرة مربوطة بعناية بشريط محكم، كان العنوان مكتوباً بأحرف كبيرة، كأنها

Twitter: @ketab_n

مكتوبة باليد اليسرى. ذهبت خلف البيت، قصصت الشريط بمقص الحديقة، وأزحت ورق التغليف بحذر. كانت العلبة حينئذٍ ملفوفة بسلكين، يلتقيان عند ختم بالشمع الأحمر. حين فضضت الختم، تشنجت يدي؛ أمسكت مرة أخرى بالسلكين، فتشنجت يدي ثانيةً. حينئذٍ فقط أدركت أنني أتلقى صدمات كهربائية ضعيفة منهما. ارتديت قفازات مطاطية، كانت موضوعة على مفترق جذعي شجرة، ونزعت السلكين عن العلبة. حين أردت أن أضعهما جانباً، انتبهت إلى أنهما مربوطين بداخل العلبة. دون قصد مني كنت قد جذبتهما، فسقط الغطاء، من دون أن يحدث أي شيء آخر. نظرت داخل العلبة فلم أجد بداخلها سوى بطارية صغيرة، كان السلكان موصولين بها. كنت أعرف أن يوديت تتمتع بما يكفي من الذكاء، لكي تصنع ما هو أخطر من ذلك بكثير، فلم أستطع أن أضحك. صرت فجأة *أسمع* تلك الصدمة البسيطة التي أرسلت بها إلي، مثل نشيج رقيق بصوت خفيض، بعد أن كنت قد أوشكت على أن أستدير. دست على قدمي. ماذا كان ذلك فعلياً؟ بماذا كان الأمر يتعلق؟ أي بؤس؟ ألم يكن كل شيء قد انقضى؟ لم أكن أودّ التفكيرفي الأمر الآن، لم أعرف سوى أن عليّ أن أغادر قريباً. كان العشب من حولي قد فتحَ لونه، لكنه أخذ الآن يعود لدكنته، مرة أخرى عادت السحالي تزحف عند زاوية رؤيتي، الأشياء من حولي تتآكل لتتحول إلى أحرف هيروغليفية، نكست رأسي متفادياً حشرة، بينما لم يكن يُسمع سوى أزيز دراجة بخارية على مسافة بعيدة، جاء حفيف بين الشجيرات ينم عن شدة الخوف. رميت العلبة في مجرى القمامة، وعدت إلى كلير، التي كانت بالفعل قد جلست في السيارة. لم أدرك أنني كنت لا أزال أرتدي القفازات المطاطية، سوى حين وضعت يدي على مقبض باب السيارة. «أليست صفرتها جميلة؟» ـ سألتها وأنا أنزعها

Twitter: @ketab_n

عن يدي بسرعة. لم تكن كلير فضولية. حين أغلقت الباب تشنجت أصابعي مرة أخرى عندما لمست المعدن.

كان المسرح عبارة عن مبنى من عصر الروّاد. كانت اللوحات الجدارية في الغرف الداخلية تشكل خدعاً بصرية، إذ توهم بوجود غرف أخرى بداخلها، في الرواق كان المرء يرفع ساقه لصعود درجات السلم الذي لم يكن سوى رسم على الأرض، ويضع قدماً على قاعدة عمود ملونة، ويودّ تلمس زخرف، تتراجع تفاصيله البارزة للوراء عند لمسه. كانت غرفة الجمهور الحقيقية صغيرة للغاية، لكن كانت هناك بجوارها وفوقها مقصورات كثيرة، حيث يرى المرء في الظلام خلف الأبواب مناظير الأوبرا تبرق. سُمح لنا باصطحاب المعاطف والقبعات معنا إلى الداخل. قبل أن يبدأ العرض، قدم عميد الجامعة ـ من أمام الستار ـ الكاتب المسرحي، عضو فرقة التمثيل الألمانية، الذي كان في الوقت نفسه هو مشرف الرحلة. شيء ما فيه لفت انتباهي، أمعنت النظر إليه مرة أخرى وتعرفت ـ في النظرة الثانية ـ على وجه صديق، كنت في الماضي أحب الحديث إليه. تبع الاثنين بضعة أشخاص متنكرين في زي سكان المستعمرة الألمانية سانت لويس، عرضوا ـ أولا بالغناء الجماعي ثم بالصور الحية ـ كيف جاء أجدادهم إلى أمريكا واستقروا هنا. قبل الهجرة كان هؤلاء لايزالون يعيشون في الدويلات الألمانية الصغيرة قبل عام ١٨٤٨، كان كلٌّ منهم يشكل للآخر عقبة في طريق العمل والمتعة، كان تقييد حرية التجارة يمنعهم من استغلال عدّتهم؛ في الصور الأمريكية كانوا حينئذٍ قد انفصلوا عن بعضهم، وكعلامة على أن كلاًّ منهم كان قد استطاع ممارسة العمل الذي أراده، راحوا يتبادلون العدّة فيما بينهم. أما المتعة فقد صارت لديهم أيضاً مساحة لها. في آخر صورة حية كانوا يرقصون، الرجال بشرائط على القبعات، مائجة فوق رؤوسهم، وقد

Twitter: @ketab_n

رفعوا رُكَبَهم إلى صدورهم، بينما وقف واحد منهم فقط فاتحاً ساقيه، ويداه على الأرداف، ثم جاءت النساء بخطى واسعة على أطراف الأصابع، كانت أجسادهن تتلوى، ماذات يداً إلى يد الرجل، بينما لملمن بالأخرى أثوابهن قليلاً، أما رفيقة الرجل ذي الساقين المفتوحتين فقد واجهته، العينِ في العين، رافعة طرف الثوب بيديها الاثنتين بتبجح أمامه. وقفوا جميعاً في سكون أمام الستار، يتمايلون قليلاً بين الحين والآخر، كانت حبات العرق تجري من تحت شعر الرجال، والنساء ترتعشن على أطراف الأصابع، ثم أطلقوا بعد ذلك الصيحات، على الطريقة الأمريكية الصاخبة، وبدأوا في الرقص حينئذٍ حقاً، أرجحوا قبعاتهم مرة أخرى، وبالتزامن مع ذلك هب من بينهم ثلاثة موسيقيين من أعضاء الأوركسترا،وقد زادت نشوتهم، إذ كانوا قد بدأوا بالعزف فعلياً، كان اثنان منهم يعزفان على الكمان، وقد انتفخت شرايين عنقيهما؛ وكان الثالث منكباً على نفسه، يداعب أثناء ذلك أوتار آلة الكونترباص على مهل. ثم ارتد الموسيقيون مع آخر سحبة قوس إلى مقاعدهم، وانحنى الراقصون، ووثبوا في رقصهم، دافعين بعضهم إلى الناحية، بينما كان الستار في الوسط قد انفتح بالفعل، ليظهر رويداً الأمير كارلوس، بصحبة أحد الرهبان على خشبة المسرح.

بعدها قلت للكاتب المسرحي: «مثلي مثل جميع من كانوا حولي كنت في البداية أودّ التأكد من أن الستار سوف يُزاح إلى الجنبين بالتساوي ـ فإلى هذا الحد من الميكانيكية كان الراقصون فيما سبق يتحركون. كما أننا شعرنا بالضيق لأن الممثلين حين كانا يتقدمان نحونا، لم يضعا أقدامهما معا بخطى منتظمة بالتزامن مع بعضهما. فقد دخلاً كأنهما يطآن أرضاً مجهولة، وكانا يمثّلان بحذر، وبسرعة، كأنما لم

Twitter: @ketab_n

يكن مسموحاً لهما بالتمثيل هنا أصلاً. لم تكن خشبة المسرح مجرد مكان للتمثيل، بل كان بمثابة أرض غريبة».

قال الكاتب المسرحي «لذلك كان الممثلون يتعثرون. كانوا يشعرون بأن عليهم أن يتحركوا بطريقة مختلفة من الأساس. كثيراً ما كانوا يبدلون خطوتهم في وسط أحد المشاهد، لأنهم كانوا لظنهم أنهم قد أطالوا على المشاهدين باتخاذ الخطوة نفسها. ثم كانوا يثبون فجأة أثناء المشي. أو كانوا يعهدون إلى أنفسهم ـ لظنهم أن الوقت قد حان ـ بغناء شيء ما فجأة. كانوا يعرفون أن هذا الجمهور يشاهدهم بإيقاع مختلف، إلا أنهم لم يستطيعوا الإمساك بهذا الإيقاع».

قلت: «كانوا يتجمعون حول بعضهم كذلك مرة تلو الأخرى، لأن المتفرجين لم ينصتوا إليهم بطريقتهم المعتادة على الإطلاق».

قالت كلير: «لقد اعتدنا هنا على أن نرى الشخصيات التاريخية منفردة في الصور الثابتة فحسب. لذلك فإننا ـ بدلاً من أن نؤدي أدوارهم ـ نعيد رسم صورتهم، في واقع الأمر بالاستعانة بالإيماءات التي اشتهروا بها. كما يبدو الأمر مضحكاً لنا إذا رأيناهم يفعلون شيئاً آخر، غير أفعالهم المعروفة. فليس لهم عندنا تاريخ خاص، ولا تهمنا حياتهم، فهم فقط رمز لما قاموا به، أو على الأقل لما وقع في زمانهم. نتذكرهم من خلال الأنصاب التذكارية وطوابع البريد. أما في المواكب والاستعراضات العسكرية، فلا يتم تصويرهم من خلال البشر، بل من خلال الدمى الصامتة، التي تتحرك بطريقة ميكانيكية. ولايتم تمثيل شخصياتهم سوى في الأفلام السينمائية على أقصى تقدير، وغالباً ما يظهرون فيها كشخصيات هامشية. الاستثناء الوحيد هو أبراهام لينكولن، لكن تاريخه يهمنا، لأنه هو تاريخنا الخاص المتاح. أما أن نراه كشخصية

Twitter: @ketab_n

مسرحية تتصرف على طبيعتها، تظهر ببطء في البداية، ثم تخرج من المسرح مثل الملك فيليب، فهذا ما لا يخطر ببال أحدنا. لذلك فإننا أيضاً لا نفكر في شخصياتنا التاريخية بوصفها شخصيات بطولية، لأنهم جميعاً منتخبون، ولأننا لم نضطر لأن نشعر تجاههم بالرهبة والمهابة. الأبطال هم في أعيننا فقط أولئك الذين مروا بالمغامرات، هؤلاء البشر الذين حملوا أعباء الحياة على أكتافهم، إنهم المهاجرون الأوائل والرواد».

«(دون كارلوس) هي بالأحرى مجرد مغامرة أوروبية، فإن شيلر لا يصف الشخصيات التاريخية من خلالها، وإنما هو يجسد نفسه، باستخدام أسمائهم فحسب داخل المغامرات التي مرّوا بها، بلا كرامة، ولا انسجام، فإنه يصف كم كان هو ليتعامل بطريقة أكثر وعياً بنفسه، وبدوره. ولأن الأمراء فقط هم فقط من كانوا يمثلون الشخصيات التاريخية آنذاك في أوروبا، ولأن الشخصيات التاريخية فقط هي التي كانت لديها الفرصة للعب أي دور، ولمعايشة المغامرات، فقد كان شيلر ـ بالكتابة لهم ـ يضرب لهم الأمثلة في الوقت نفسه لما كان عليهم فعله أثناء مغامراتهم».

ضاقت شفتا كلير قليلاً وقد ابتسمت: «إن الأبطال في نظر المتفرجين هنا هم الرواد، ولذلك فإن المغامرات عندهم هي دائماً مغامرات جسدية. إنهم لا يريدون مشاهدة أدوار، بل وقائع، لأنهم يعتقدون أنه فيما عدا ذلك يمكن لكل شخص أن يلعب دوراً، وأن أيّاً من هذه أدوار لا يُعدّ مغامرة. إذن فإنهم حين يرون يداً على قائم مقبض السيف فقط ـ بينما لا يسمعون سوى حديث مستمر ـ يفقدون صبرهم. فهم يودون أن يشار إلى الأشخاص فحسب، أما الأحداث فيريدونها مفصلة. أما أن يطلق الرصاص على ماركيز بوزا خلف الكواليس، فإن

Twitter: @ketab_n

هذا يُعدّ صدمة لهم. وحين يسلّ دون كارلوس سيفه أخيراً، فإنهم يريدون الصياح. مغامرة! لكن بما أننا لا نستطيع محاكاة هذه المغامرة على خشبة المسرح، لاسيما أننا لا نستطيع محاكاة مغامرات الروّاد تحديداً على الإطلاق، ولأن شخصياتكم التاريخية بالإضافة إلى ذلك لا تعني لنا شيئاً، فإننا عادة ما نجسد ـ لاسيما على المسرح ـ شخصياتنا نحن، وفي هذه الحالة كأناس يملكون سوى أن يحلموا بالمغامرة ليس إلا».

سأل الكاتب المسرحي: «لكن لماذا ـ إن لم تكن توجد مغامرات في مسرحياتكم ـ يشعر الناس بالانزعاج عند مشاهدة «دون كارلوس»؟»

أجابت كلير: «لأن اليد الموضوعة على السيف تمثل لهم وعداً بشيء ما، لا يمكن أن يحدث فعلاً على المسرح». أشارت خلال ذلك إلى موضع طعنة في حائط المقهى الفرنسي الذي اصطحبتنا إليه بعد العرض: كان المأمور جاريت قد أطلق الرصاص هنا تحديداً على اللص الصغير بيلي. كان الاثنان قد وجها سلاحيهما إلى بعضهما في حجرة ليلية كبيرة بها موقد ومنضدة؛ كان بيلي الصغير يحمل بالإضافة إلى ذلك في اليد الأخرى سكيناً؛ لم تخرج الطلقة من مسدسه، أما قذيفة مسدس المأمور المدوّية فقد كادت تصيبه. كان ضوء القمر الكامل يسطع من خلف النافذة المسيجة إلى الداخل، وكان ثلاثة كلاب يركضون حول الرجلين. كان المأمور يرتدي حذاءً شتوياً أسود لامعاً، بينما كان بيلي الصغير حافياً.

فجأة سألني الكاتب المسرحي، أثناء تناوله حبة دواء، أخرجها من حقيبة الأدوية المتنقلة: «أين يوديت؟ لقد قابلناها في واشنطن. جاءت إلى الكواليس وسألتني، إن كان بإمكانها أن تمثّل معنا في العرض. وبما

Twitter: @ketab_n

أن إحدى الممثلات كانت في الواقع تودّ العودة إلى أوروبا، فقد كنت سعيداً بذلك جداً. اتفقنا على أن نلتقي في سانت لويس. كنا نريد أن نتدرب هنا قليلاً، وكان من المفترض أن تلعب دور الأميرة إيبولي بعد غد في مدينة كنساس. لكنها اليوم أرسلت تلغرافاً تقول فيه أنها لن تأتي».

«أين تم تسليم هذا التلغراف؟» ـ كانت كلير هي من سألت عن ذلك.

قال الكاتب المسرحي: «أنا لا أعرف تلك المنطقة، إن اسمها روك هيل».

روك هيل هو اسم المنطقة التي كنت أسكن فيها في الأيام الأخيرة قبل المجيء إلى سانت لويس.

قلت: «أنا لا أعرف أين يوديت. لقد انفصلنا».

تناول الكاتب المسرحي حبة دواء أصغر، لابد أن يتم تناولها ـ حسبما قال هو ـ مع الأولى، لتجنب الآثار الجانبية الضارة للحبة الأولى، وسأل إن كنت قد أكملت كتابة نصي المسرحي.

فأجبت: «صار من الصعب عليّ كتابة الأدوار المختلفة. فأنا حين أرسم ملامح شخصية ما، يبدو لي كأنني أسلبها كرامتها. كل ما هو متفرد في الشخصية يتحول فيما بعد إلى شيء تقليدي. أستشعر أنني لا أستطيع أن أكون منصفاً تجاه الآخرين، كما أفعل مع نفسي. حين أدع أشخاصاً يتحدثون على المسرح، فإنهم لايلبثون يستحوذون عليّ بعد الجمل الأولى مباشرة، فيُختصرون في معنى واحد إلى الأبد. لذلك ربما يكون الأفضل أن أكتفي بكتابة الروايات..

ـ «يُختصرون في أي عنى؟»

قلت: ربما تعرف أناساً، يريدون اختصار كل ما يرونه على الفور ـ

Twitter: @ketab_n

حتى أكثر الأشياء إثارة للدهشة ـ في معنى واحد، يريدون حصاره داخل صياغة بعينها، والتوقف بذلك عن معايشته. يكون عندهم لكل شيء كلمة. لذلك يصير ما يقولونه غالباً مدعاةً للضحك، لأنه لا توجد بعد في الواقع كلمات تعبر عنه، فيتحول إلى نكتة، حتى وإن لم يكونوا قد صاغوه بهذه النية. لذلك يبدو لي في النص المسرحي ـ حين يكون أحد الأشخاص لم يكد يقول شيئاً، أوربما كان قد أومأ فقط ـ كأن كل شيء يتم اختصاره في معنى واحد، ولا أستطيع الاستمرار في تخييل الشخصيات. لقد صرت أفكر مؤخراً، في أن أجعل ظهور كل شخص مصحوباً بظهور آخر معه، شخصية الخادم، الذي يفسر بالتساوي العالم المحيط الجديد للآخرين. المقصود أن يكون بمثابة شخصية موازية للمراقب الحكيم التقليدي، الذي يعلق على القصة ويمسك بخيوطها في يديه. لأن كل ما يبتدع له هذا الخادم قافية ـ وهو يصنع يبتدع قافية لكل شيء ـ يتضح بعد ذلك أنه غير صحيح. ما يتنبأ به لا يصيب أبداً، كل تأويلاته لغو غير معقول. إنه يأتي بمثابة مدد غيبي، حيث لا حاجة لأي شخص آخر. ليس هناك حاجة سوى لأن ينظر شخصان فقط مصادفة في اتجاهين مختلفين، فما يلبث هو أن يتدخل ليوفق بينهما مرة أخرى.

سألني الكاتب المسرحي: «ما عنوان النص المسرحي؟»

فقلت: «هانز موزر وعالمه الخاص».

حكيت لكلير إن هانز موزر يفترض أنه كان مُمثِّلاً نمساوياً، كان في الواقع لا يلعب سوى دور الخادم، إلا أنه مع ذلك هو من يوجه كلاًّ إلى مكانه خلال مجرى الأحداث. «كان يمثّل بمنتهى الاهتمام، وبمنتهى الجدية، لأنه دائماً ما كان ينهمك فيما يفعل، أحياناً فقط ـ حين كان

Twitter: @ketab_n

يشبك خيوط شيء ما ـ كان يبتسم ابتسامة خبيثة. في أفلامه كان الناس دائماً ينتظرون أن يعاود الظهور أخيراً».

كنت قد أطلت الحديث، فصرت أدرك مجدداً ما كان يدور من حولي. على الطاولة المجاورة كان يوجد في منفضة السجائر غطاء سيجار من السيلوفان. لابد أن ذلك السيجار كان طويلاً جداً! ضحكت. نظرت كلير إليّ سريعاً، وقد شعرنا برغبة في الاقتراب من بعضنا. كانت السيدة الواقفة وراء البارتضرب بقلم الحبر الجاف المقلوب على مفاتيح الآلة الحاسبة، اندفعت الماكينة نحو بطنها! كان الكاتب المسرحي ينظر ناعساً، بمقلتين صفراوين، كنت أحب أن ألف ذراعيّ حوله، لكنني لم أرد أن أفزعه. قال: «لقد أعجبها الأمر، حين احتشد الصندوق بداخلها». كنت بالفعل أودّ أن ألفت انتباهه، حينئذٍ لاحظت أنه كان فقط يستشهد بشخصية مسرحية فحسب.

أفرطنا في شرب الخمر، قررت كلير دفع ثمن الويسكي، وشربت هي أكثر من مجموع ما شربناه نحن الاثنان. في الشارع سرنا نترنح يميناً ويساراً، لم تكد تكون هناك سيارات، في كل مكان كان هناك ما يلفت أحدنا انتباه الآخرين إليه. في شارع جانبي تحدث الكاتب المسرحي مع فتاتي ليل سوداوين. كان ينظر إلينا بين الحين والآخر؛ كان يقف على بعد خطوة من الفتاتين، يحاول إقناعهن بشيء ما، وحين كانتا تبادلانه الحديث، كان يميل برأسه باتجاههما، كمن يعير أحداً السمع. من خلال هذه الإيماءة، حيث كان ينحني إليهن ويدعهن تهمسان في أذنيه، من دون أن يقترب منهن، شعرت أنا فجأة، كم كان قد تقدم في السن، كما بدا لي أنه يستحق المحبة، كما لم أشعر تجاهه من قبل. مد إصبعين يتنزع بهما الشعر المستعار من على رأس إحدى الفتاتين، فضربته على يده موبخة إياه، ثم عاد إلينا وحكى ما قالته له: «Don't touch me! This

Twitter: @ketab_n

«is my country! Don't touch me in my country! حكّ صدره بسرعة، في إيماءة لم أكن قد رأيتها منه أبداً من قبل. بدا كأن تلك الإيماءة هي سبيله الوحيد لإنقاذ نفسه من حيرته.

«أنا منقطع تماماً عن الحياة»، هكذا قال لنا في حانة فندقه: «لم يعد ذلك يخطر لي سوى عند المقارنة بأحوالي النفسية. لم أكن قد رأيت أية سمكة منزوعة القشر منذ زمن بعيد، لكنني عندما صحوت في الليلة السابقة في حالة فزع، رأيت فجأة قشور سمك تلمع حولي في كل مكان. كذلك تماماً لم أكن قد تواجدت وسط الطبيعة منذ زمن بعيد، ومع ذلك فقد شعرت الآن ـ حين مددت يدي إلى الكأس ـ بأنني متجسد تماماً، مثل جسد عنكبوت لم يلبث أن قُتِل لتوه، بينما لايزال يتهاوى إلى الأرض متشبثاً بأحد خيوطه كأنما لا يزال حيّاً. الأحداث اليومية ـ كاعتمار القبعة على سبيل المثال، واستخدام السلالم المتحركة، أو تجرع الثلج الأيس كريم المذاب حتى آخر قطرة، لم أعد أنتبه لها جميعها، هي فقط تجعلني لاحقاً أستحضر وضعي في كل مرة على حدة في شكل صور مجازية». خرج ثم عاد بعد قليل، وحكى أنه تقيأ. كانت شفتاه لاتزالان مبللتين من شرب الماء بعد ذلك. صَفَّ أمامه بعض أقراص الدواء مختلفة الألوان، التي تناولها بترتيب معيّن شديد الدقة. قال: «في البداية بدا لي الأمر كأنني دسست إصبعي في صنبور الماء، فانفجر الهواء بداخله». انحنى أمام كلير وطلب مني أن أسمح له بالرقص معها. فرحت أشاهدهما: وقفت كلير هناك، كانت تتحرك على مهل في مكانها، وأخذ هو يروح ويجيء أمامها مبدّلا خطاه، وقد كانت موسيقى فرقة Creedence Clearwater Revvival الحزينة تدوّي في الغرفة المنخفضة: «Run Rheough The Jungle». صعدنا معه بعد ذلك لنوصله

Twitter: @ketab_n

إلى غرفته. قلت: سأقود أنا السيارة ماتبقى من الطريق غداً. عندما خطوت حينئذٍ مع كلير إلى الخارج تراجعت مرتبكاً، إذ كان الظلام دامساً لدرجة الشعور باختفاء الأرض من تحتك. عدنا إلى السيارة، أخذنا نقترب من بعضنا أكثر، مرة تلو الأخرى. كان الهدوء مخيّماً، بحيث لم نسمع سوى ما يشبه صوت الأشباح؛ من جهة نهر الميسيسيبي على ما أعتقد. مشينا في موقع بناء، جلست على صندوق، وجذبت كلير من فوقي إلى الأسفل. وضاجعتها على الفور، بدا لي كأنني سمعت شيئاً ينسحق أثناء ذلك. لم نعد نسمع بعضنا، شعرت بألم، وكنت أنزف، ثم خف الألم، ودار لحن في رأسي لم يرد أن يغادرها، وأخذت تلك كلمات تتكرر: «Peppermint - steak on Sunday».

في طريق العودة إلى روك هيل قلت لكلير: «أشعر كأنني بين اليقظة والنوم: لقد صحوت تدريجياً، وفي الصحو أخذت مشاهد الحلم تصير أبطأ؛ ثم توقفت وتحولت إلى مشاهد ما بين اليقظة والنوم الهادئة الجميلة. لم أعد أشعر بالخوف كما كنت في الحلم، وإنما تركت الصور تتولى تهدئتي».

حين نزلنا من السيارة ومررنا بأحد المصابيح، حلق ظل طائر ليلي كبير في صمت فوق الشارع المضاء بقوة. قالت كلير: «ذات مرة حلقت فوق رأسي ـ في أدغال لويزيانا أثناء رحلة بحرية ـ بومة ليلية. حدث ذلك آنذاك حين كنت حبلى».

في اليوم التالي أوصلتني بالسيارة إلى المطار. وقفت مع الطفلة في الشرفة، بينما ذهبت أنا إلى ماكينة BRANIFE AIRLINES ذات اللون الأصفر الفاقع، المتجهة إلى توسون/ أريزونا، فلوح ثلاثتنا، حتى لم نعد نرى بعضنا.

Twitter: @ketab_n

وصلت إلى توسون ـ بعد توقف قصير في دنفر / كولورادو ـ مشدوهاً، ومعنوياتي مرتفعة. تقع المدينة وسط الصحراء، تهب فيها ريح ساخنة طوال اليوم؛ كانت سحب من الرمال تتدافع تتطاير فوق مهبط الطائرات في المطار، وقد أزهرت على جانبي المهبط نباتات الصبار الصفراء والبيضاء. أثناء انتظاري للحقيبة داخل مبنى المطار، أعدت الساعة ساعة إلى الوراء. خلال ذلك أومأت بإيماءة ذات معنى مزدوج بطريقة أو بأخرى، فتلفتُّ حولي كمن ضُبط أثناء اقتراف فعل ممنوع، ورأيت حقائب مختلفة حولي في كل مكان، تدور على سيور نقل الحقائب ببطء هي الأخرى، مثلها مثل عقارب الساعة. هدأت نفسي فانتظمت أنفاسي مرة أخرى. ماذا كنت أفعل في توسون؟ كان موظف مكتب السياحة قد كتب لي اسم هذه المنطقة على بطاقة السفر، لاعتقاده أنه رأي فيّ شخص سريع الإحساس بالبرودة. قال: «لقد بدأ فصل الصيف هناك بالفعل». ماذا كنت أفعل في فصل الصيف؟ منذ كنت في الطائرة وأنا لا أستطيع تصوّر، أنني سوف أشعر بالفضول تجاه أي شيء هنا. كل ما كان قد يخطر للمرء، كنت قد رأيته مسبقاً، خلال رحلتي إلى هنا في اللوحات. والآن ظهر على أطراف موقف الطائرات صبار الأغاف الذي كان على ملصق زجاجة التكيلا في بروفيدنس! شعرت بالحرارة، وقد راودني خاطر كأنني أنا المذنب في ذلك، أو في شيء آخر. رغم أن القاعة كانت مكيفة، كنت أتصبب عرقاً، ليس بسبب تصوري أنني سوف أخرج إلى الطقس الحار على الفور، وإنما لأنني لم أنجح في تصور ذلك أصلاً. إنه التيبس الذهني مرة أخرى! دخلت أشعة الشمس غائمة من خلال ألواح الزجاج المعتم الكبيرة، وكان المسافرون يقفون فيما يشبه كسوف الشمس. ظللت أروح وأجيء متململاً، أتلفت

Twitter: @ketab_n

حولي بين الحين والآخر بحثاً عن حقيبتي، التي دارت وحيدة على سير الحقائب الخاص بشركة Braniff Airlines. أحضرت لنفسي علبة بيرة من الماكينة الأوتوماتيكية، وجلست بها في ركن، حيث كان يمكن مشاهدة فيلم على شاشة صغيرة مجاناً. كان الناس يمرون أمام ذلك الركن، فيظلّ أحدهم واقفاً ينظر إلى الداخل، إذ كان بالأغلب ينظر إلى المشاهدين أكثر مما ينظر إلى الفيلم. لم يكن هناك فضلاً عني غير رجل مكسيكي جالس بالداخل ضاماً قدميه إلى صدره على المقعد، وركبتاه مرفوعتان إلى أعلى، بحيث كان عليه وضع رأسه أعلى كتفيه لكي يتمكن من رؤية الشاشة من خلالهما. كانت قبعة معلقة على إحدى ركبتيه وعليها شريط فاتح اللون، حيث وضع المكسيكي عليها. دار فيلم دعائي عن إحدى مزارع البرتقال في توسون. أين كانت اليد الأخرى؟ نظرت مرة أخرى إلى الرجل المكسيكي ولاحظت، أن يده كانت تختبئ ساكنة تحت المعطف، الذي كنت قد وضعته بجواري. قمت واقفا، ثم أمعنت النظر إلى سلة مكدسة بالبرتقال، كانت برتقالة قد تدحرجت منها لتوها. حملت المعطف أثناء ذلك ورأيت من زاوية عيني مرة أخرى... قبضة يد الرجل المكسيكي الساكنة؛ بين السبابة والوسطى، كان قد دس شفرة حلاقة بين الوسطى والبنصر. أما الرجل نفسه فقد بدا الآن نائماً، فخرجت أنا على أطراف أصابعي.

على سير الحقائب الخاص بشركة طيران مختلفة كانت حقيبة أخرى تدور وحيدة كذلك. كنت قد تجاوزتها بالفعل حين انتبهت لذلك. خطوت نحوها: كانت تلك حقيبة يوديت البنية المصنوعة من الجلد الطبيعي. كانت بعض ملصقات أرقام الحقائب الخاصة بشركات طيران مختلفة معلقة على المقبض. كانت الحقيبة آتية من مدينة كانساس على

Twitter: @ketab_n

متن خطوط FRONTIER AIRLINES الجوية. تركتها تدور دورة أخرى، ثم رفعتها، حاولت قطع ملصقات الحقائب، إلا أنها كانت مربوطة بأشرطة مطاطية، كانت تتمدد أثناء محاولتي ذلك، بحيث تراجعت مرتبكاً. أعدت الحقيبة إلى مكانها، دارت مرة أخرى، فتتبعتها، ثم حملتها ثانيةً، وأعدتها مرة أخرى. أخذت حقيبتي من على سير شركة Braniff Airlines، ووقفت حاملاً إياها لبعض الوقت داخل القاعة. سُمع همسٌ خلفي عند أحد الأبواب، ثم التقطت سيدة أنفاسها فزِعة. صدر صوت غريب حلق شخص ما، ثم اختنق أحد. بين حشائش الأهوار ترنحت العثة البيضاء. لم أكن أسمع شيئاً، صارت أذناي فجأة ثقيلتين معلقتين على رأسي، كما حدث ذات مرة، حين استيقظت في عتمة الفجر وأنا بجوار جدتي، التي كانت قد ماتت لتوها. نظرت إلى باب الخروج، كان هناك شخص يتنهد أو يلهث: أي نعم، أمام مصراعي الباب ـ اللذين كانا على الأرجح قد فُتحا لتوهما أمام شخص ما ـ عادا وأغلقا تلقائياً، بفعل ذلك اللهاث. بالخارج: رجل على رأسه قبعة ملفوفة بشريط عريض فاتح اللون، كان قد أحكم عليه بقبضة يده، ذهب باتجاه إحدى السيارات، وكانت الريح شديدة جداً، فراحت حافة قبعته تنقلب مرة تلو الأخرى. بالداخل في القاعة: امرأة من دورة المياه المخصصة للنساء. كانت تضع الكثير من مساحيق الزينة، ترتدي حُلّة بسروال ذي طيات حادة، يمكن رؤية الطيات القديمة بجوارها! هندية حمراء: هندية حمراء خطت إلى داخل القاعة، انغلق الباب من ورائها، تلفتت باحثة عن طفلة، ظهرت في الخارج حينئذٍ فقط تجري باتجاه القاعة. أومأت للطفلة لكي تدوس على الرقعة المطاطية أمام الباب. فوثبت عليها، لكنها كانت أخف من اللازم، فبقي الباب موصداً.

Twitter: @ketab_n

خرجت الهندية الحمراء من أحد أبواب الخروج مرة أخرى، ثم دخلت بعد ذلك بصحبة الطفلة، وهكذا هدأ كل شيء تدريجياً.

خلال ذلك اليوم الأول في توسون لم أترك الفندق. استغرقت طويلاً في الاستحمام، وأطلت قدر المستطاع في ارتداء ملابسي، استغرقت فترة حلول الظلام كاملة لغلق أزرار القميص، وشدّ السحّابات، وربط الحذاء. في سانت لويس كنت قد تعودت الانفصال عن ذاتي تماماً، لدرجة أنني لم أعد قادراً على التعامل معها. صرت عندما أكون وحدي، أشعر أن ذاتي تفيض بي. صار الأمر مضحكاً، حين أكون وحدي. كنت لأفضل سحق نفسي، فإلى هذا الحد صرت أضجر منها. لم أكن أنشد جماعة، إلا أنني وددت لو أزحت نفسي عن طريقي. كان مجرد الاقتراب منها يشعرني بالضيق، حتى أنني كنت أبقي ذراعيّ بعيدتين عني. صرت بمجرد أن استشعر بدفء جسدي على إحدى الأرائك أنتقل إلى الأريكة الأخرى. ثم أظل واقفاً فقط، إذ يبدو لي أن كل مواضع الجلوس تحمل دفئي. تأثرت بشدة حين تذكرت أنني كنت في وقت ما أمارس العادة السرية. صرت أتجول هنا وهناك مبعداً ساقي عن بعضهما، لم أكن أريد أن أسمع حك ساقي السروال ببعضهما. لم أرد لمس أي شيء! ولا رؤية أي شيء! فلتطرقوا الباب أخيراً! إنها لفكرة بشعة، أن أدير التلفاز الآن فأسمع أصواتاً وأرى صوراً! توجهت للمرآة، ورحت أغيّر تعبيرات وجهي. وددت لو وضعت إصبعي في حلقي لأظل أتقيأ طويلاً حتى لا يتبقى مني شيء. أن أجرح نفسي وأبترها! أخذت أروح وأجيء، أتقدم وأتأخر. هذا فضلاً عن أن أضطر لفتح كتاب وقراءة أية جملة مقززة! أن أنظر خارج النافذة وأعود أتواصل مجدداً مع SNACKBAR، وTEXACO، وICECREAM! أوصدوا كل شيء،

Twitter: @ketab_n

أهيلوا عليه الأسمنت! استلقيت على السرير، دسست رأسي بين الوسادات جميعها. عضضت ظهر يدي ورفست بقدميّ في كل اتجاه.

«هكذا كان الوقت يتسرب!»[1].

خطرت لي هذه الجملة من إحدى قصص أدالبرت شتيفتر. ضبطت جلستي وعطست. فجأة بدا لي كأنني تجاوزت مسافة زمنية كاملة. تمنيت في تلك اللحظة أن يصدمني شيء ما بأسرع ما يمكن.

في الليل رأيت أحلاماً كثيرة. إلا أن تلك الأحلام كانت من القوة، بحيث لم أعد أتذكر منها سوى الألم الذي شعرت به أثناء الحلم. أحضر لي نادل هندي أحمر الفطور إلى الغرفة. قمت بعدٍّ النقود المتبقية معي أمامه ـ كانت تزيد عن النصف بكثير ـ وفكرت فيم كان يمكنني أن أفعل بها. ظل الهندي الأحمر قبيل خروجه واقفاً، عندما رآني أعدّ، لكنني أكملت العدّ. كان وجهه ملتهبا، وعلى جبهته نقاط سود صغيرة. كانت الريح قبل بضعة أيام شديدة ـ كما حكى الهندي الأحمر ـ لدرجة أن جعلت حبات الرمل وجهه ينزف دماً. قال إنه يسكن خارج المدينة في بيت أبويه، بجوار كنيسة سان زافيير ديل باك، حيث البيوت منخفضة جداً، وإنه يضطر للسير عبر بعض الشوارع لمسافة بعيدة حتى يصل إلى الباص. قال النادل الهندي الأحمر: «لم يخرج أبواي من المستعمرة طيلة حياتهم. بدا أنه يتحدث بصعوبة، كان اللعاب يغطي أسنانه. قال إنه رغم كون حمام السباحة يقع في الفناء الداخلي للفندق، إلا أنه لابد من تنقية مياهه من الرمال كل يومين.

---

(١) إقتباس من قصة للكاتب النمساوي آلبرت شتيفتر بعنوان «حكايات آدبياس»، كانت قد صدرت عام ١٨٤٢.

Twitter: @ketab_n

في الظهيرة استقللت سيارة تاكسي إلى المطار، لكي أؤكد لنفسي أن حقيبة يوديت المصنوعة من الجلد الطبيعي لم تعد تدور على سير الحقائب. توجهت إلى مكتب الأمانات، نظرت من بعيد فقط على الرفوف، من دون أن أسأل عن أي شيء. عدت إلى المدينة ثانيةً، وتجولت فيها هنا وهناك. لم أكن أعرف إلى أي ناحية أتجه، فظللت أتلفت حولي. كنت أنتظر حين تكون الإشارات حمراء، لكنني ـ حين كانت تخضرّ ـ كنت أظل واقفاً، حتى تعود تحمرّ مرة أخرى. بنفس الطريقة كنت أظل منتظراً أمام محطات الباصات، ثم أترك الباص يمضي. وقفت داخل كابينة الاتصالات، وسط كومة رمال كانت الريح قد حملتها إلى الداخل، وكنت قد أمسكت بالسماعة بالفعل، بل ووضعت النقود المعدنية أمام الفتحة المخصصة لها. حينئذٍ شعرت أنني أريد أن أشتري لنفسي شيئاً، فغادرت مرة أخرى، بينما لم أكد أرى سلعة واحدة في المتجر. اقتربت من كل ما يخطر بالبال، لكنني كنت أفقد الرغبة تماماً بمجرد وصولي إلى هناك. شعرت بالجوع، لكنني كنت كلما رأيت قائمة الطعام أمام المطاعم، ذهب عني الجوع. في النهاية استقر بي الحال في مطعم يعمل بأسلوب الخدمة الذاتية. هناك ـ حيث كان مسموحاً للمرء بالدخول من باب مفتوح عبر سلاسل الكرات الزجاجية ببساطة، ويضع لنفسه شيئاً يؤكل دون تكلف على الصينية، ثم يحضر بنفسه أدوات الطعام والشراشف ـ شعرت أنني في المكان الصحيح. وحين وصلت عند الخزينة، ولم تنظر إليّ الموظفة، وإنما أخذت فقط تعدّ الأطباق على الصينيات بالترتيب، تجدد شعوري بالرضى عن كل شيء. هل نسيَت مراسم الاحتفال بالطعام ـ التي كانت قد بدأت ـ أن تتحول إلى رغبة ملحة بداخلي؟ أنا أيضاً لم أنظر إلى السيدة، بل نظرت إلى ورقة الحساب التي كانت قد وضعتها لي على

Twitter: @ketab_n

الصينية، مددت لها يدي بالنقود تلقائياً. ثم جلست على إحدى الطاولات وأكلت بلا اكتراث قطعة دجاج مع البطاطس المقلية وصلصة الكاتشاب.

سان زافيير ديل باك هي أقدم كنيسة تبشيرية أسبانية في أمريكا. تقع جنوبي مدينة توسون على أطراف إحدى مستعمرات الهنود الحمر. كنت لا أزال أشعر بأنني لا أعرف كيف أتصرف مع نفسي عندما أكون وحدي، وراودني لأول مرة شعور بالرغبة في زيارة أحد المعالم السياحية. كانت الشمس ساطعة جداً في الأماكن المفتوحة، وكانت أغطية إطارات السيارات تومض فتعشي الأبصار. اشتريت لنفسي نظارة شمسية، وحين قرأت في إحدى النشرات، أنهم كانوا يحتفلون في ذلك الوقت بأسبوع قبعات القش، اشتريت بالإضافة لذلك قبعة من القش، يمكن ربطها من تحت الذقن لكي لا تطيّرها الريح. على طريق توسون الرئيسي مر موكب أثناء الاحتفال بيوم القوات المسلحة. كان ذلك هو يوم السبت الثالث من شهر مايو، وكان الكثير من الناس يجلسون ممددين سيقانهم على جانبي الشارع، وكان الأطفال يلعقون الأيس كريم، ويركضون بأعلام أمريكا الصغيرة في أيديهم، كان الجميع يرتدي قمصاناً قصيرة عليها الشعارات المناسبة لذلك اليوم: **أحِبّ أمريكا أو اتركها! منظمة «المتفائل الدولي»** .بجوار الموكب مرت مجموعة من الفتيات ترتدين تنورات قطنية، كن تبِعن ملصقات، عليها شعارات مشابهة، يمكن لصقها بجوار لوحات أرقام السيارة. مر بعض المحاربين القدامى من الحرب العالمية الأولى محمولين على عربات حنطور، أما محاربو الحرب العالمية الثانية، فقد لحقوا بهم سيراً على الأقدام، وكان بينهم أيضاً هندي أحمر من إحدى الألوية المهاجمة، التي كانت تتقدم القوات، كفرق استطلاع آنذاك، خلال غزو سواحل الأطلنطي. رافق

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الفرسان الذين يُفترض أن يذكّروا بسلاح الفرسان خلال الحرب الأهلية؛ كان الطقس شديد الحرارة، وفي كل مكان أطلقت صيحات الحماسة والضحكات الرنانة، لدرجة أن صهيل الأحصنة لم يكد يكون مسموعاً. كان الخيّالة يحملون رايات كبيرة، أخذت ترفرف بقوة مع الرياح، وتصيب الخيل تجعل تستثير الخيل بين الحين والآخر. وصلت الأحصنة عند علامات تخطيط الشوارع المزدوجة في الوسط، والتي كانت قد طليت المطلية حديثاً، وكلما كان الخيّالة يحاولون الحياد بها عنها، ظهرت بضع من آثار حوافر على الأسفلت. لم أجد سيارة تاكسي سوى في أحد الشوارع الجانبية، اصطحبتني إلى سان زافيير.

كان المكان هناك ـ بعد كل ما سبق من صخب ـ هادئاً جداً، بحيث ظن المرء أنه يحلم حتى راح يفرك عينيه. كدت أتلفت حولي قبل كل خطوة. من خلف أحد الأكواخ المصنوعة من الصفيح الممووج، سيتراءى لي قرين فجأة، يكاد يريد أن يطاردني! سوف لن يكون لي حق تمثيل نفسي، سأكون فقط قد اختبأت؛ كان الآن قد عاد ليتخذ مكانه مرة أخرى. ولسوف أنسلخ عن ذاتي حتى أختفي تماماً. من إحدى مداخن الأفران التي كانت تستخدم كمدفأة، تصاعد الهباب فجأة من نافذة أحد الأكواخ، كان كلب يزحف على بطنه عند زاوية أحد البيوت. كنت مخادعاً، نصّبت نفسي مكان شخص آخر. أين أخفيت نفسي؟ كنت فائضاً عن الحاجة؛ كنت قد زججت بنفسي في شيء ما، فضُبطّت حينئذٍ في حالة تلبُّس. كان لايزال من الممكن إنقاذ الذات، *بقفزة واحدة*. لكنني تسمرت في مكاني، قابضاً يدي، مموهاً بالقبعة القش. لكن إحساسي بأنني الشخص الخطأ، لم يدُم طويلاً، بدا لي الأمر بعد ذلك مباشرة محض حالة مزاجية. لاحقاً فقط تذكرت كم كنت في طفولتي أتمنى أن يكون لي قرين، شخصٌ يشبهني تماماً؛ وتذكرت أنني

Twitter: @ketab_n

في تلك الأثناء صرت أتراجع فزعاً أمام تصوّر أن يكون لي قرين، وقد صرت مرة أخرى أعدّ ذلك علامة جيدة. كنت لا أزال أشعر بالاشمئزاز عند تصوّر أي شخص بإمكانه أن يصير مثلي تماماً. فإنه لمن الفجاجة أن أرى شخصاً يقوم بحركاتي نفسها. حتى الخطوط المحددة لظلي صرت أرى فيها فجاجة. يصعب تصوّر نسخة أخرى من ذلك الوجه العبوس! كان عليّ أن أسير بضع خطوات.

من جهة أخرى لم تكن لدي رغبة أيضاً في مقابلة شخص آخر. كان يكفيني أن أتحرك وأن ألقي نظرة بداخل أكواخ الهنود الحمر. لم يتحدث أحد إليّ، حتى أنني دخلت من باب أحد الأكواخ، أما السيدة التي كانت جالسة بالداخل ـ في حجرها كوز من الذرة، وفي فمها الغليون ـ فقد ابتسمت فقط. كانت نار الموقد مشتعلة، رغم حرارة الشمس بالخارج، وفي حوض غسل الأطباق، كانت أدوات الطعام المعدنية قد وضعت مكدسة فوق بعضها، سال عليها من الصنبور خيط مياه بلا صوت. ساعدتني هذه المناظر، وأسكتت بداخلي ذلك الشعور المزدوج بذاتي. حين أكملت السير رأيت خلف باب آخر سعف منفضة على عصا تظهر ثم تختفي ثانية؛ عند البيت التالي رأيت أثناء مروري باروكة شقراء خلف النافذة، راحت تترجرج ثم تعاد إلى مكانها. تابعت كل ذلك بمنتهى التبجيل، بنفس النظرة التي كنت أنظر بها لكل ما يرتبط بالمقدسات، ولصور القديسين. وكأن حالة الورع الغريبة تلك صارت مرة أخرى علامة على أنني لازلت لا أستطيع الانهماك سوى في النظر إلى الأشياء دون الأشخاص! هل كنت لا أزال كما أنا لم أتغير؟ ضربت الأرض بقدمي. بطفولية! وصلت إلى الكنيسة حائراً، ومع ذلك هادئاً.

خلعت النظارة الشمسية وقبعة القش داخل الكنيسة. كنا في ساعة متأخرة من الظهيرة، كانت التسابيح تتلى في تلك اللحظة. حين كان

Twitter: @ketab_n

الصمت يخيم على المكان، كان صوت الرمال وهي ترتطم بباب الكنيسة بالخارج يصير مسموعاً. اصطفت بعض النساء أمام كراسي الاعتراف. حين نظرت إلى المذبح، رأيت بعين الذاكرة مشهد طائر السنونو يطير أمامه. استغرقت مرة أخرى في متابعة كل المناظر. منذ زمن لم يعد الدين يعني لي شيئاً، ومع ذلك شعرت فجأة بالحنين إلى أن أستند إلى شيء. لم أعد أحتمل أن أكون وحيداً، ووحدي مع الذات فحسب. كان لابد من وجود علاقة مع شخص آخر، لا تكون شخصية، تحدث مرة واحدة بالمصادفة فحسب، ولا ينتمي فيها الواحد للآخر من خلال حب مقموع وكاذب، وإنما من خلال سياق ملحٍّ، وغير شخصي. لماذا لم أستطع أبداً أن أشعر تلقائياً بالودّ تجاه يوديت، كما أشعر الآن تجاه قبة الكنيسة تلك، أو تجاه قطرات الشمع على الأرض الحجرية؟ كان بغيضاً أنني لم أستطع تحرير ذاتي من مثل هذا الشعور. فكان علي أن أبقى واقفاً، غير منخرط سوى في الأشياء والأحداث، في حالة ورعٍ ممل.

حين خطوت خارج الكنيسة، رش وجهي رذاذ الماء المنهمر من ري الحشائش. ذهبت إلى المقابر وجلست هناك على قاعدة أحد شواهد القبور. كانت عيناي ملتهبتين، فوضعت وجهي بين يديّ. بدا لي كأن مخي ينزلق من مقدمة رأسي عند الجبهة. في تلك اللحظة بدأت الأجراس المسائية تدق، فرفعت نظري مرة أخرى. طائر بطنه أبيض كان قد خرج لتوه محلقاً بين ظلال الكنيسة، فتلألأ حينئذٍ أمام السماء. مع كل دقة جرس بدت الأبراج كأنها تتراجع خطوة للوراء، ثم تعود تترنح عائدة إلى مكانها مرة أخرى، كل هذا كنت قد رأيته بالفعل ذات مرة من قبل! نظرت إلى الصورة خلسة، ورأسي مائل، ورحت أتنصت على الذكرى. كانت هناك ذكرى، لكن حين كنت أقترب منها، كان عقلي

Twitter: @ketab_n

يتقهقر مبتعداً مرة ثانية. صرت أشعر بالاغتراب تجاه الكنيسة، وتجاه ذاتي. كان هذا كافياً، فرحلت بعيداً.

كانت إشارات المرور معلقة على أسلاك فوق الشارع، راحت تتأرجح بقوة، بحيث لم يعد المرء يعلم في أي اتجاه يشير اللون الأخضر. على أعمدة التلغراف المطلية باللون الأسود، غير المتساوية في ارتفاعاتها، راحت بعض الفواصل الخشبية تصدر أزيزاً. سرت بأقصى سرعتي شمالاً باتجاه توسون، وربطت منديلاً على وجهي للوقاية من الرمال.

استجداني شحاذ هندي أحمر. أعطيته ورقة من فئة دولار واحد، فتبعني ووضع يده على كتفي. بدأت أركض، فجرى ورائي، ثم توقفت، فمر على مقربة مني مبتسماً. استوقفت سيارة تاكسي ونزلت منها ثانيةً عند المباني الأولى. كانت مباني خشبية من طابق واحد، يسكنها مكسيكيون؛ كان للكثير منها شرفات بارزة. تارة خفق بعض الأطفال أرض إحداها بنعالهم، إذ كانوا يركضون معي بالأعلى، بقدر ما اتسعت الشرفة. تارة أخرى دق جرس؛ ثم مرت شاحنة في صمت خارجة من بين بنايتين، وظلت واقفة بعرض الشارع. سحب السائق الفرامل بقفازات سميكة، إذ كان المعدن قد صار ساخناً جداً بفعل حرارة الشمس. مرة أخرى رأيت الصورة، كأنني في الوقت نفسه أتنصت عليها. كنت قد رأيت تلك الصورة من قبل. ولسوف يميل الشارع فجأة تحت قدميّ، وستصبح الصورة على الفور على مسافة بعيدة تحتي، وسوف أنقلب بداخلها حتى يرتطم رأسي. كان طفل قد مر الآن أمام الشاحنة ثم اختفى بين المباني، كأنه شخص ما من حلم آخر. انعطفت وأكملت السير في شارع جانبي آخر.

Twitter: @ketab_n

لم يحل الظلام، ظل الهواء ساخناً كما يكون عادة في وقت الظهيرة. مع غروب الشمس كانت الباصات تمر على مسافة بعيدة، وظلال الركّاب على زجاج النوافذ المترب. عندما أردت أن أطلب الكوكاكولا في أحد البارات، انتبهت إلى أنني كنت لا أزال أضع المنديل على وجهي. نفضت الرمال من الحذاء وجيوب السروال تحت المنضدة. حتى الاسطوانات في علبة الموسيقى كانت الرمال قد خربشتها. كنت قد رميت بقطعة نقود معدنية فيها، لكنني لم أضغط على أي زر. في الشارع كان بعض الناس لا يزالون يسيرون برايات مرفرفة عائدين من العرض العسكري إلى بيوتهم. كنت جالساً هنا، أنظر مع كل رشفة إلى الساعة. مرة جاء إلى الداخل طفل، أشقر تماماً، إلى حد الجزع.

انهمكت في النظر إلى شريحة الليمون التي كانت على طرف الكوب. ثم حل الليل فجأة. خرجت إلى الشارع حائراً، عبرته إلى الناحية الأخرى، ثم عدت مرة ثانية. كان الظلام حالكاً بين البيوت، لكن حين كان المرء يرفع رأسه، كان يرى في السماء خيوط الدخان المتكاثف صادرة من طائرة نفاثة، كانت أشعة الشمس لاتزال تنعكس عليها. من خلفي بدأ السمن يطشُّ. تبعتني سيارة ببطء من الخلف، مصدرة ضجيجاً، يشبه صوت طشيش السمن. لكنني نسيت ذلك، حين جاء بعض المراهقين باتجاهي ـ ومعهم الطفل الأشقر ـ يستجدونني بعض النقود لشراء تذكرة للباص. بقيت واقفاً، وهم يحاصرونني في دائرة، ويسألونني من أي بلد أتيت. قلت إنني من النمسا. فضحكوا وأعادوا نطق الكلمة بطريقتي، كانوا جميعهم ـ ماعدا الطفل الأشقر ـ من المكسيك، كان أحدهم يرتدي حذاءً رياضياً فاتح اللون، عليه أشكال تشبه الجراثيم. ملس على خدي، فتراجعت خطوة إلى الوراء واصطدمت بشاب آخر، كان قد وقف خلفي. وضعت يدي في جيبي

Twitter: @ketab_n

بحثاً عن قطعة نقود معدنية، فأحكم أحدهم قبضته على يدي، ثم رأيت سكيناً عند بطني. كان له مقبض قصير، لم يكد يبرز من قبضة يده. وقف الطفل الأشقر على مسافة أبعد قليلاً، أخذ يتقافز بين أقدام الواقفين، موجها بعض الضربات في الهواء نحوي بقبضة يده. مدّ أحد المكسيكيين ساقه أمامه، فسقط الطفل على ركبتيه. ابتسمت متحرجاً. على الناحية الأخرى من الشارع، سار بعض الجنود، لكنني خجلت من أن أصرخ. اختُطِفت القبعة من على رأسي. بحركات سريعة انتزعت مجموعة من الأيادي حشو جيوبي، من دون أن تلمسني، زحف الطفل الأشقر ليجمع ما كان قد سقط على الأرض. طالتني كذلك لطمة، ركضوا بعدها جميعاً إلى السيارة التي كانت تتتبعني، إذ كانت أبوابها قد فُتحت لهم بالفعل. قفزوا بداخلها، فانطلقت السيارة، وراحت الأبواب تُغلَق، باباً باباً، وقرأت كلمة **قلب** على واحد منها. كنت قد رأيت يوديت أمام عجلة القيادة، كان وجهها شاحباً، وعيناها مثبتتين على عجلة القيادة، سقط عود كبريت ـ كان عالقاً على شفتيها المفتوحتين ـ حين انطلقت العربة.

خطوت بضع خطوات رَوحةً وجيئة. أمر مضحك! خرجت البطائن من جيوبي جميعها. أعدتها إلى الداخل مرة أخرى، ثم جذبتها ثانيةً إلى الخارج، وكأن ذلك كان ليثبت شيئاً. حتى الجيوب الداخلية كانت مقلوبة إلى الخارج، لم ألحظ ذلك إلا في تلك اللحظة. نظرت إلى نفسي بالأسفل: كانت بطانة جيب المناديل البيضاء تنتفخ قبالتي. تذكرة القطار من نيويورك إلى فيلاديلفيا كانت ملقاة على الرصيف. «*رصيف خشبي!*» هذا ما خطر لي. ثم قلت ذلك بصوت عالٍ. اعتمرت القبعة مرة أخرى، ودفعت بطانة جيوبي إلى الداخل مرة أخرى، وابتعدت؛ **ابتعدت.**

Twitter: @ketab_n

لم أعد أعرف الطريق إلى الفندق. ثم خطر لي، أنني كثيراً ما أدس بعض الأوراق النقدية في جيب قميصي: فكانت فيه بالفعل ورقة من فئة العشرة دولارات. فاستقللت سيارة تاكسي إلى الفندق. كان لابد أن أضحك، بعد أن أقفلت الغرفة عليّ بالفعل، هذه المرة لم توجد آثار خدش على فخذي. استلقيت على السرير. أخيراً! زاد شعوري بالفخر تدريجيّاً. من الجيد أنني كنت قد تركت تذكرة الطيران في جيب المعطف؛ كما عثرت على بعض النقود بداخلها كذلك، في المجمل ما يزيد عن مائة دولار؛ جميعها من الفكّة التي كانت تتبقى بعد دفع الحساب في كل مرة، فقد كنت أدفع أوراقاً نقدية كبيرة في كل مكان، بقبضة يد واحدة، لكي أدخل يدي مرة واحدة في جيبي قدر إذا أمكن؛ الآن صار لتلك الحالة من الغرور قيمة. ازداد شعوري بالحيوية، قمت واثباً أبحث عن النقود بين أشيائي كلها. سُمعت خشخشة بين القمصان، أينما مددت يدي ـ حتى في إحدى سيقان السراويل ـ كنت أجد قطعة نقود معدنية من فئة الربع دولار مخبّأة. كوّمت النقود على الطاولة وانهمكت في النظر إليها، وكما حدث في الظهيرة أثناء النظر إلى خيط الماء المنسرب بلا صوت. أخذ الستار يتمايل قليلاً هنا وهناك أمام النافذة مع الهواء الخارج من جهاز التبريد. كان هناك أيضاً نظام تدفئة مركزي! له خمس فتحات! كانت تميل على بعضها البعض! لم ألحظ ـ سوى بعد النظرة الثانية ـ أنني كنت قد نسيت مسألة المنظور.

اتصلت بأمي في النمسا. كان نهار اليوم التالي في ساعاته المبكرة هناك. قالت إن السماء كانت تبرق وترعد لتوها. عاصفة في الصباح الباكر! قالت إنها كانت قد خرجت بالفعل وأحضرت الغسيل. وإنها صارت تخرج الآن كثيراً وتنسى الوقت أثناء ذلك. أما عن الانتخابات الرئاسية، فقد أعيد انتخاب المرشح الاشتراكي الديمقراطي مرة أخرى،

Twitter: @ketab_n

كان المرشح المنافس قد رفض المزاعم حول كونه اشتراكياً قومياً أو حتى يهودياً. بدا لي الأمر كأن أمي تمزح. سألتها عن عنوان أخي، الذي كان منذ سنوات يعيش في الشمال ويعمل نجاراً في ولاية أوريغون. لماذا؟ قلت: «يجب أن أذهب إليه». سجلت العنوان: كانت المنطقة تسمى إستاكادا. قررت أن أغير تذكرة سفري وأطير غداً إلى هناك.

نزلت وجلست قليلاً في الفناء الداخلي للفندق بجوار نخلة على حمام السباحة. كانت الريح حينئذ ساكنة، كان عامل البار من خلفي يخلط مشروباً بين الحين والآخر، وكانت ماكينات الكوكاكولا وبيرة الزنجبيل في كل مكان حول حمام السباحة تصخب أحياناً، إذ كانت العلب بداخلها تصلصل كلما سكن محرك التبريد. كانت المياه خالية، مضاءة بكشافات من القاع، وكانت تموج بهدوء كما يحدث في أعقاب الريح الخافتة. النجوم فوق الفناء الداخلي؛ كانت تتلألأ ساطعة، لدرجة تجعل العين ترفّ؛ وكان الهواء صافياً، بحيث لم يكن المرء يرى الهلال المضيء فقط، بل يبصر الجزء المظلم من القمر كذلك. لاحظت أنني حتى ذلك الحين لم أكن قد رأيت ولا شخصاً واحداً في أمريكا منهمكاً في أي شيء. كان كافياً أن يلحظ أحدهم شيئاً ما، ليعود يوجه نظره إلى شيء آخر. من كان منهم يطيل النظر إلى شيء، كان كذلك يومئ بتعبير العارف على الفور. كذلك لم تكن المستعمرات منخرطة وسط الطبيعة أبداً، وإنما كانت تُشَيّد بالأعلى فوقها، لترتفع عنها، وتبدو كأنها لم تنشأ سوى بالمصادفة. لم يكن هنا سوى بعض المخمورين، ومدمني المخدرات، يحملقون أمامهم في تبلد تام. هل كنت ثملاً؟ زحزحت كأساً بالقرب من حرف الطاولة، حتى سقط أخيراً من تلقاء نفسه من على الحافة المدوّرة في حمام السباحة.

سُمع بالخارج ـ عندما كانت إشارات المرور تبدل لونها ـ صوت

Twitter: @ketab_n

بضع سيارات فقط، كانت لا تزال تمر في الشارع. خلفي على البار أخذ رجل يتحدث إلى فتاته بداخل كأسه الفارغة، وكان أثناء ذلك يحك أسنانه بين الحين والآخر بحافة الكأس. لم أعد أتحمل ذلك، فابتعدت مرة أخرى.

في الغرفة أنهيت بعد ذلك قراءة هاينريش الأخضر. كان قد أدرك ـ من خلال تمثال صغير من الجبس، لم يستطع نقل صورته بالرسم ـ أنه حتى هذه اللحظة لم يكن قد شُغل بالبشر بالقدر الكافي أبداً. سافر عائداً إلى أمه التي كانت حتى ذلك الحين تسانده، فوجد مستلقية، ترتعش وجنتاها على سرير الموت. ظل بعد ذلك طيلة أعوام يستشيط غضباً، ظل عبوساً وسئماً. لم يبدأ في استعادة إحساسه بالحياة سوى حين عادت من أمريكا السيدة التي كانت تحبه، لأنها كانت تحسده على أفكاره. حينئذٍ تحولت قصته إلى أسطورة، وحين وصلت إلى المقطع التالي: «تناولنا الطعام معاً بسعادة ورضى في مطعم فندق النجمة الذهبية الصغير»، كان عليّ أن أدير وجهي كي لا أبكي. ومع ذلك بكيت فعلاً، بهيستيريا شديدة، لكنني نسيت الوقت أثناء ذلك.

استلقيت في الظلام ـ ثم فجأة ـ وأنا نصف نائم، أصابني شعور بالحزن لأن النقود كانت قد سرقت مني. لم يكن شعوراً بالشفقة، وإنما كان فقط ألماً جسدياً غير معقول، لم أكن أستطيع تبريره لنفسي بأي شيء: كان شيء ما قد انتزع مني؛ مساحة فارغة كانت بحاجة لأن تلتئم من جديد. لم أعد أريد التفكير في أي شيء آخر. في الحلم وقع شخص ما في وعاء كبير، حيث كانت بعض حبات الطماطم قد زُرِعت لتوها. اختفى ذلك الشخص تحت الطماطم، فنظرت داخل الوعاء ـ الذي كان بالمناسبة قد وُضِع على خشبة مسرح ـ في انتظار أن يظهر مجدداً. قلت

Twitter: @ketab_n

في الصباح التالي في أوريغون هطل المطر. وقفت على باب الخروج في مطار بورتلاند ـ رغم كون ذلك ممنوعاً ـ معتمراً قبعة القش، وحاولت أن أستوقف سيارة تاكسي متوجهة إلى إستاكادا[1]. كنت قد جئت إلى هنا بطائرة تابعة لشركة طيران WESTERN AIRLINES عابراً البحيرة المالحة الكبرى، بنفس الشعور المتكرر بأنني قرين شخص آخر، وبأنني أتحرك في الفراغ. كنت قد قرأت ذات مرة، أن الأشخاص المصابين بالفزع، تتولد لديهم تدريجيّاً حركات مضغ غير مبررة: بطريقة مماثلة ـ كما بدا لي ـ كنت أنا أيضاً قد جئت إلى هنا، إلى أوريغون.

عربة الخضروات التي كانت تحمل السلاطة الكاليفورنية إلى الجبال، أخذتني في النهاية معها إلى إستاكادا. كانت هناك مسّاحة زجاج على ناحية السائق فقط، بحيث لم أكد أستطيع رؤية ما كان بالخارج. وقد كان ذلك مناسباً لي، فقد كنت أشعر بصداع شديد. كنت أنسى الألم أحياناً، ثم أتذكره ثانيةً كلما تنفست. كان السائق يرتدي قميصاً من قماش المربعات، مزرّراً على قميص داخلي من تحته. لا بد أن لحناً ما كان يدور طوال الوقت في رأسه، إذ كان باستمرار يعدل جلسته ويطبّل بأصابعه على عجلة القيادة. لكنه كان يبقى أثناء ذلك صامتاً، إلا أنه صفّر مرة واحدة فقط، حين وصلنا إلى ارتفاع أعلى وتحول المطر تدريجياً إلى ثلج. كان الثلج ينزلق من على النافذة، ثم يعلق بها.

---

(١) إستاكادا تقع على ارتفاع يزيد عن الألف متر، ويبلغ عدد سكانها حوالي خمس عشرة ألف نسمة، يعيش معظمهم على أعمال النجارة.

Twitter: @ketab_n

انتبهت إلى أنني رحت على الفور أبحث عن لافتات الطوارئ، والإسعافات الأولية، والإطفاء، والشرطة. على مدخل المنطقة، حيث لم يكن هناك سوى شارعين متقاطعين، حجزت غرفة لليلة واحدة في فندق موتور إن، الذي أشارعليّ به السائق. كان ثمنها خمسة دولارات. نمت، حتى المساء، ثم تركت نفسي ببساطة أسقط من على السرير. حين شعرت بالبرودة الشديدة على الأرض، ارتديت معطفي وظللت أروح وأجيء أمام التلفاز الذي كان دائراً. كانت الصور مشوّشة، لأن إستاكادا كانت تقع وسط الجبال. سألت في مكتب الاستعلامات عن الطريق إلى أحياء النجارين العُذّاب. كان لابد من السير عبر الثلوج المرتفعة، لأنه في هذا التوقيت المتأخر من العام لم تعد كاسحات الثلج تمر هنا. لم تكد تكون هناك أشجار في المنطقة، على هذه الناحية أو تلك فقط كانوا قد تركوا إحدى شجرات التنوب، التي كانت تفزع المارة، كلما هبطت الثلوج فتدافعت أغصانها. كانت مجموعة من أشجار التنوب مصفوفة حول نصب تذكاري لأحد الروّاد، سمعت أثناء مروري عاشقين خلفها يتهامسان. ستائر مسدلة في كل مكان، كانت الأبخرة تتصاعد من فتحات تهوية مطاعم الوجبات الخفيفة، ومن قنوات الصرف، التي كان الثلج قد ذاب بالفعل من حولها. الصيدلية مفتوحة: شخص بإبهام مربوط كان يشرب القهوة.

المصباح المعلق فوق مدخل كوخ غريغور كان محروقاً، ربما بسبب تماس كهربائي، على أثر سقوط قطرات الثلج الذائب بداخله. نفضت كتل الثلج عن حذائي، لكن أحداً لم يخرج إليّ. لم يكن الباب مقفلاً، فدخلت وقد كاد المكان يكون مظلماً، لم يكن هناك سوى شعاع نور مصباح الشارع يضيء في الغرفة. انحنيت لأحضر ورقة من على الأرض، حسبت أنها رسالة، وأضأت النور أثناء ذلك. كان تلغرافاً من

Twitter: @ketab_n

شركة WESTERN UNION، كنت قد أرسلته أثناء رحلتي في الطريق إلى أخي.

على الطاولة كانت هناك بطاقات لعبة الأوراق موضوعة، بطاقات ألمانية مزدوجة ملونة، بجوارها منبّه، بدا أنه سقط أثناء رن الجرس. على أحد المقاعد رباطا حذاء طويلان ملطخان بالطين الجاف، على المقعد الثاني سروال لباس النوم، الذي كان غريغور قد أخذه مني ذات مرة؛ عليه منديل، مطرزة عليه أرقام ٢٤٨، وهي أرقام حقيبة الغسيل الخاصة بي في المدرسة الداخلية، لابد أن هذا المنديل يعود إلى أكثر من خمسة عشر عاماً.

كانت الخزانة مفتوحة؛ كان هناك حبل ممدود بين خُطّاف على ظهر الباب من ناحية وأنبوب الموقد على الناحية الأخرى، ألقيت عليه بعض السراويل والجوارب. أمسكت بها، كانت قد جفت، وكانت متيبسة. على الموقد البارد كان هناك صحن فنجان، عليه كتلة زبدة زنِخة، عليها بصمة إبهام. في الخزانة بعض الشماعات الخالية، المصنوعة من الأسلاك، مثل التي يحصل عليها المرء في المغسلة، كان عليها بعض القمصان المغسولة غير المكوية، مفتق دَرْزها من تحت الإبطين.

السرير مغطى، على الملاءة بقع رمادية من أثر العث المدهوس عليها، كانت عثة واحدة لاتزال بين طيتين؛ كانت تحت السرير علب بيرة فارغة.

على عارضة النافذة مسحوق غسيل؛ وفي الجوار آثار حوافر قطة.

على الجدار روزنامة حائط من النمسا، عليها صورة ملونة لحقل أزهار النرجس، في المقدمة امرأة ترتدي القبعة التقليدية؛ تحت الصورة ختم متجر السلع المتنوعة المحلي في بلدتنا.

Twitter: @ketab_n

الصورة على روزنامة الحائط ـ

في طفولتنا لم نكن قد مررنا سوى بالقليل من التجارب، ولم يكن هناك سوى القليل مما يمكن رؤيته، لدرجة أننا كنا نفرح كل مرة بصورة روزنامة الحائط الجديدة. في الخريف كنا ننتظر بشغف وكيل شركة التأمين، الذي يأتي لتحصيل القسط السنوي، إلا أنه في المقابل كان يحضر معه روزنامة العام الجديد الخاصة بشركة التأمين، وعليها صورة جديدة.

والآن، أكان أخي حتى اليوم يطلب إرسال روزنامة ذات الصورة الجديدة إليه في أمريكا؟

كانت الفكرة غير محتملة على الإطلاق، حتى أن شعوراً آخر طغى عليهه على الفور، وقد أراحني بعد ذلك. وضعت التلغراف على الطاولة، بينما مددت يدي الأخرى كذلك بحذر، لكي لا أكسر شيئاً.

قبيل خروجي رأيت أيضاً بجوار وعاء الغسيل حذاءً برقبة قصيرة، بداخله جوارب بالية، تكاد تضمر داخل الحذاء. «مصابة بالهزال» هكذا يقال. كان حذاءً ذا طرف مدبب جداً، فيما يشبه صيحات الأزياء قبل عشرة أعوام. كان الأطفال يركضون ومعهم البالونات عند أحد السلخانات، حمل أحد الجزارين طفلاً من فوق جثة خنزير ميت. سرت دون أن أتلفت ـ منزلقاً بين الحين والآخر على الجليد ـ صعوداً عبر شارع إستاكادا الرئيسي.

كان المكان هادئاً جداً، بحيث تكرر وقوفي أكثر من مرة. كانت الأبخرة تتصاعد من اللافتات الضوئية المكتوب عليها PIZZAERIA وGASOLINE (مطعم البيتزا ـ ومحطة الوقود). على مسافة بعيدة كان من الممكن رؤية شاشة لسينما السيارات، ليس عليها سوى ضوء وظل،

Twitter: @ketab_n

لم يكن أي صوت مسموعاً. دخلت إلى صالة القمار، لكن لم تكن لدي أية رغبة في اللعب. مع ذلك أخذت أروح وأجيء من ماكينة إلى الأخرى، وأدع الكرات تدور دورتها بلا اكتراث.

لاحظت أن كل أنواع اللعب صارت تزعجني، وكان من المستحيل أن أتصور، أن أظل واقفاً أمام مثل هذه الآلة بعد هذه اللحظة، أو أن أخلط الأوراق، أو أرمي الزهر. فجأة انتهى أمر ذلك تماماً. جلست متعباً على كرسي مرتفع بجوار شخص مخمور، كان قد غط في النوم، مستنداً على الحائط. كان وجهه كله متعرقاً، وقميصه مفتوحاً، على نحره تجمع العرق وانهمر أحياناً. فتح عينيه، كان عليه أن يرمش أولاً، حتى ظهرت مقلتاه، كجلد الأرنب المسلوخ، فخرجت أنا.

في الفندق الصغير أردت غسل يدي في الحمام على الفور. حين مددت يدي إلى صنبور الماء الدافئ، لاحظت أنه كان ساخناً. هل كان الماء قد تدفق منه للتو؟ تراجعت بضع خطوات وأدرت مقبض الصنبور. في البداية خرج منه بعض الهواء، ثم تبع ذلك هزّة، فخرج رذاذ سائل مغلي في الحوض، رذ الصنبور بعض القطرات على سروالي، فالتهمت نسيجه مخلّفةً على الفور ثقوباً صغيرة بحواف سوداء. يكفيني هذا! هززت رأسي كأنني موافق. رأيت خدوشاً على مقبضي، وأدرت مقبض صنبور المياه الباردة كذلك بحذر، قفزت للوراء وتركت الحمض يسيل منها. أثناء غسلي يدي بعد ذلك أدركت أن السيلوفان الذي كان يغلف الأكواب قد تم تمزيقه، فيما يشبه الدعوة لأنه لا مانع من أن تمد يدك إليها. حملقت فيها: أشياء من عالم آخر، من كوكب آخر.

أثناء الليل تركت باب غرفتي مفتوحاً. تارة كنت أظن أنني سمعت أحداً يمر أمام النافذة. لكنها لم تكن سوى فراشة ليلية كبيرة كانت قد

Twitter: @ketab_n

علِقت بين زجاج النافذة وبين الستار. لأول مرة منذ زمن لم أحلم بأي شيء. صحوت كأنني في فضاء غريب عني. في وقت مبكر من الظهيرة ذهبت إلى ورشة النجارة التي كان أخي يعمل بها. كان الهواء كدِراً، صدر من قنوات الصرف صوت غرغرة الثلج المذاب، كنت أتحرك في الفضاء الغريب كأنني محمل بأفكار شخص آخر. كان عليّ أن أركض مرة أخرى، لم يعد بوسعي أن أمشي. كما كنت فيما عدا ذلك أبحث عن الكلمات، أخذت أبحث عن صورة، تعيدني إلى نفسي. جذوع أشجار متفحمة، جبال تكاد تكون قد جُرّدت تماماً من الأخشاب، سلّات نفايات محترقة، قشّ أخذ يخشخش على ناحية أخرى، وسط أحد الحقول في قيظ الظهيرة. لم أعد أريد أن أتصوّر أي شيء مما يتعلق بي، لكنني سمعت نفسي حينئذٍ أتحدث بصوت مستعار من البطن، لعب الصوت الباطني الدور بدلا مني، وتنبأ لي بما لم أكن أريد إدراكه. جاءت فتاة تحمل زجاجة حليب في مقابلتي، كانت نحيفة للغاية، حتى أنني شُغِلت بشعوري تجاهها بالاندهاش.

كانت ورشة النجارة تقع على منخفض، يمر عبره نهر الكلاكاماس. ميّزت أخي على الفور من على مسافة بعيدة، بين الرجال الذين كانوا يقومون بتقشير لحاء شجرة تنوب غليظة، بجوار مستودع صاخب لتجفيف الأخشاب. كان في تلك اللحظة واقفاً على الشجرة، يدفع قضيباً حديدياً ما بين اللحاء والجذع. ظللت واقفاً على تلة مرتفعة أنظر إليه من فوقها إلى الأسفل. كان يرتدي قفازات ويعتمر طاقية من الصوف. كان يضغط على القضيب، فتنزلق قدمه الخلفية أحياناً من على جذع الشجرة الذي كان قد تم تقشيره بالفعل. كان عامل آخر قد دس قضيباً مثله وراء اللحاء، وكان يشدّ من الناحية الأخرى، حتى ينسلخ

Twitter: @ketab_n

اللحاء في هيئة ألياف طويلة عن جذع الشجرة. كانا يرفعان تلك الألياف ببلطات، ويرميان اللحاء فوق إحدى الكومات.

تنحى غريغور الآن جانباً. ظننت أنه قد رآني، وتقدم خطوة إلى الأمام. ظل واقفاً عند بعض الشجيرات يتلفت حوله، لكن دون أن يرفع رأسه. بجوار الشجيرات كان لايزال هناك بعض الثلج. أنزل سرواله وانحنى شبه جالس. رحت أشاهد كيف كان البراز يخرج من مؤخرته العارية ويسقط ببطء في الثلج. ظل جالساً، حتى بعد أن كان قد انتهى من قضاء حاجته. ثم ارتدى ـ أثناء الوقوف ـ ملابسه الداخلية، والسروال في آن واحد وسار ـ ضارباً كفيه ببعضهما ـ عائداً إلى جذع الشجرة. استدرت ومشيت ـ كأنني جئت إلى هنا فقط لأشاهد ذلك ـ حتى وصلت إلى الفندق الصغير مرة أخرى.

كانت الرسالة حينئذٍ في انتظاري هناك: بطاقة بريدية عليها صورة ملتقطة من طائرة، لمنطقة **توين روكس** على المحيط الهادئ، على بعد أكثر من مائة كيلومتر غربي إستاكادا. ظهر الشارع الساحلي المطل على المحيط، يمتد أمامه في صورة قوس بعيد، من الماء برزت صخرتان، أرغى الماء حولهما. رغم الارتفاع الشديد كان من السهل تمييز خطوط الشوارع. في موضع معيّن، حيث كان الشارع ينعطف ـ على ما يبدو باتجاه برج مراقبة أو ربما فقط إلى محطة باصات، كانت هناك دائرة مرسومة بقلم الحبر، بخط غليظ، لدرجة أن أثره كان مرئياً على الناحية الأخرى من البطاقة. قلت لموظفة الاستقبال، التي كانت مشغولة في تلك اللحظة بتصنيف النقود المعدنية التي كنت قد دفعت بها الحساب: «إذن فقد دبرت لنفسها في تلك الأثناء قلم الحبر». رفعت نظرها إليّ واضطرت لبدء العدّ من جديد. كانت تعدّ بيد واحدة فقط، أما اليد الأخرى فكانت قد بسطتها بعيداً عنها لتدع طلاء الأظافر يجف؛ بين

Twitter: @ketab_n

تجاعيد رقبتها رأيت ندبة حمراء طويلة، كنت قبيل ذلك قد رأيتها وظننت أنها بقايا مساحيق التجميل الذائبة مع العرق. لم أرد أن أشوش أفكارها مرة أخرى، فلم أسأل، كيف وصلت إلى تلك البطاقة.

بالأموال الأخيرة المتبقية معي استقللت سيارة تاكسي، تجولت بها عبر ولاية أوريغون. كان اليوم غائماً، كأنما خُلِق للارتحال، لم يشرق الضوء سوى بين الحين والآخر أثناء هطول المطر. كنت أضع الكاميرا على ركبتيّ، وكان هناك الكثير مما يمكن رؤيته، بالأعلى وبالأسفل، ويميناً ويساراً، لكن حزني كان أكبر من أن ألتقط الصور.

كنت أغط في النوم بين الحين والآخر؛ حين كنت أستيقظ كانت وديان أنهار تمتد، هناك حيث كنت قد رأيت لتوي مخاريط صخور جرداء، ثم عندما كنت أصحو في المرة التالية، نكون سائرين مرة أخرى بين غابات الصنوبر المعتمة، كان عليّ أن أنحني خارج النافذة، لكي أرى شيئاً من السماء. كان سائق التاكسي يقول: «لا تفتح النافذة، وإلا سوف يتعطل جهاز تكييف الهواء!» لم أكن أتحمل اليقظة وعيناي مغمضتان، لأن كل ما كنت قد شاهدته في النظرة الأخيرة، كان في تلك الأثناء يقترب جداً حتى يجثم على صدري؛ فقط حين كنت أفتح عيني، كان يتراجع عائداً إلى مكانه. مرة أخرى هطل سيل من المطر، صار زجاج النوافذ غائماً، لابد أنني كنت قد نمت، لأن زجاج النوافذ كان في اللحظة التالية قد صار جافاً وصافياً، كانت أشعة الشمس ضعيفة، أمام النافذة ارتفع حائط صخري رمادي عملاق. شددت قامتي، وهززت نفسي، فتمدد الحائط الصخري، حتى لامس الأفق، كان هذا هو المحيط الهادئ. أدار السائق الراديو؛ لم يصدر منه سوى بعض طنين. بعد بضع دقائق توقفنا عند توين روكس، حيث كانت طيور النورس تجلس على سطح محطة الوقود الوحيدة. فلنخرج! «في هذه

Twitter: @ketab_n

المنطقة يسكن ما لا يتعدى المائة شخص». لكن حتى مثل هذه الجمل لم تعد تنفع. كنت أريد التخلص من حقيبة السفر، إلا أنني مع ذلك حملتها معي ما تبقى من الطريق. كانت الشمس هنا مشرقة للغاية؛ حين كانت تظهر من بين السحب، كانت الكتابة على لوحات السيارات تلتمع. تارة وقفتُ هناك دون أن أترك حقيبتي، ثم رأيت في إحدى النوافذ طفلاً، كان يراقبني، ويقوم بمحاكاة كل إيماءاتي، كالتائه في الحلم. ابتعدت، وكانت طيور السنونو تدور فوقنا في كل مكان محلقة بسرعة شديدة، بحيث لم يكد المرء يرى منها سوى حركاتها، مثل الخفافيش في وقت الغسق.

جالسون على الأريكة،

ننتظر مجيء أمنا،

فإذا جاء الحمَل الأسود،

أوقعنا،

وإذا جاء الخفاش الأبيض

رفعنا جميعاً مرة أخرى[1]

كانت صورة البحر قد انعكست بالفعل على زجاج نوافذ البيوت الأخيرة. حقّا: سلات نفايات محترقة عن آخرها! أمام أحد البيوت أخذت اسطوانة ملونة بالأبيض والأزرق تدور حول نفسها: صالون تجميل. سيدة وحيدة جلست بداخله، تحت غطاء رأس يصل حتى عينيها، جلست عاملة الصالون القرفصاء، وراحت تطلي لها أظافر قدميها. كانت قد باعدت ما بين أصابع القدمين التي كانت معوجّة

(١) من ذاكرة الأدب الشعبي للأطفال.

Twitter: @ketab_n

ومشوّهة، وكان بها جلد ميت على الكعوب؛ هذا ما جعلني أدركت أنها يوديت: كانت وهي شابة صغيرة تعمل بائعة، وقد تشوهت منذ ذلك الحين قدماها. والآن رأيت على الخزانة أيضاً حقيبتها المصنوعة من الجلد الطبيعي؛ شبه مفتوحة، كانت يوديت قد أخرجت منها معطفها الفاخر، الذي كانت في تلك اللحظة قد علقته على كتفيها. كان مصنوعاً من القماش المطرز، وكان يسطع بشدة تحت أشعة الغروب. فكرت بصوت عالٍ: «أحقاً سافرت إلى أمريكا ومعها هذا المعطف الفاخر؟» بينما راحت عاملة صالون التجميل في تلك الأثناء تطلي أظافر يديها كذلك، أخذت أنا أراقب كيف أطبقت يوديت إصبعي إحدى قدميها على الإصبع الكبير من القدم الأخرى. حلمت أنني أستيقظ في الصباح وأبصق دودة الأرض من فمي. لم أستطع أن أبعد نظري. تحركت يوديت من على الكرسي مهتزة في غضب، كأنها كانت تتوقع شيئاً ما. راودتني حالة تذكر غير مبررة، إذ سمعت صرير سِدادة من الفلّين ثاقباً، كان أحدهم ينزعه بفمه عن إحدى الزجاجات. رفعت عاملة صالون التجميل عينيها، وقد كف بصرها من فرط قرب الأصابع التي كانت قد أمسكتها على مقربة شديدة من وجهها، خطوت بسرعة خارج مرمى نظرها. هياكل أسماك بين قناوات الصرف؛ قطع إسفنج بين بعض الشقوق في كتل الأخواخ؛ كان بعض الناس يخطون إلى الخارج أمام البيوت، ينظرون إلى السماء ثم يدخلون مرة أخرى؛ أنصاب تذكارية هذه المرة على شكل براميل فيها صابون سائل وشحم خنازير أمام متجر السوبر ماركت، عليها نقوش تروي قصة إنشاء المنطقة. انعطف شخص مخمور ـ كان سحّاب سرواله مفتوحاً، يبدي لحمه العاري ـ وجاء عبوساً بإصرار باتجاهي. أفسحت له مكاناً، فتعثر في المكان الذي كنت أنا واقفاً فيه لتوي، وسقط على بطنه في بركة مياه الأمطار.

Twitter: @ketab_n

أضيئت أنوار الشوارع الفلورية، رغم أن الظلام لم يكن قد حل بعد؛ أخذ أحد الأنابيب يهتز نوره. كانت في فمي شعرة لم أستطع أن أتخلص منها. أشعرني ذلك أيضاً بالارتياح، إذ ارتسمت على وجهي أثناء المشي إيماءة، أمكنني أن أشغل نفسي بها. كنت أجري بين الحين والآخر. سرت بطول الشارع الساحلي، حيث لم تعد هناك بيوت، حتى رأيت في الماء الصخرتين السوداوين. هنا عبرت الشارع، ثم استقررت على حقيبتي عند المنعطف، الذي كانت تلك العلامة قد رُسِمت عليه في البطاقة البريدية. كانت الشمس قد غربت لتوها، وصارت الرياح شديدة. كان المنعطف بمثابة برج مراقبة للمنطقة بأكملها، وفي الوقت ذاته محطة للباصات. نادراً ما كانت سيارة تمر. نظرت إلى الشاطئ الذي كان يقع بالأسفل على مسافة بعيدة جداً تحتي. كان صخرياً، كانت بعض العصي الخشبية تسبح وسط المياه الرغوية. كان برج المراقبة مؤمناً بواسطة سياج حديدي. كانت هناك امرأة تقف هناك ومعها طفل أخرق، ظل يتسلق الحاجز مرة تلو الأخرى. أمسكت به السيدة، فظل يصيح على البحر بالأسفل مراراً وتكراراً، ثم تركها تحمله. توقف باص، عليه ملصق دعائي مكتوب عليه BAY CITY، فاستقلاه وبقيت أنا وحدي.

مددت بصري إلى المحيط الهادئ الهادئ. رغم أن المياه كانت لاتزال تلمع من أثر أشعة الشمس، إلا أنها كانت حالكة الدكنة. كنت أودّ أن أكرر الانطباع الأول عنه، ذلك الحائط الصخري الشاهق: لكنه ظل ممدّداً أمامي مثل البحر المنبسط، حتى تيبس عقلي.

الانطباع الأول عن يوديت: لماذا لم أعد أستطيع أن أرد له المكالمة؟ حاولت ذلك: رغبة حلوة ارتقت بي وجعلتني خفيفة كالريشة. ألم يكن ذلك هو المعيار، الذي كان على كل منا أن يعامل الآخر على

Twitter: @ketab_n

أساسه؟ كنت قد نسيت، فلم يعد بوسع أيٍّ منا أن ينظر إلى الآخر إلا بملامح متكلفة.

منظر البحرمرة أخرى: كان المكان خالياً تماماً، حتى بدا لي كأنه يلتهمني. كتل من الضباب أخذت تنسحب فوق الشاطئ. من فرط التعب تفسخت كل الأجزاء المتماثلة من جسدي عن بعضها، فأشعرتني الفراغات بينها بالغثيان. كنت متعثراً، ومتسخاً، وخرباً. عدّ ما شئت من أشكال ممكنة للاغتراب، ففي جميعها صرت أشعر بالارتياح؛ كنت قد اتخذت لنفسي مسافة منها جميعها، بأن كنت أدعها تتحول إلى «كائن»: *هذا الكائن الحي*، كنت أقول ذلك عن يوديت، *هذا الشيء: هذا، هذه، تلك*. دسست يدي الاثنتين بين فخذي، وانكببت على ذاتي. طائرة هليكوبتر حلقت على مستوى منخفض فوق الشارع، رمت بضوئها على الأسفلت.

خيم الهدوء على المكان. سُمع صوت طائرة على مسافة بعيدة جداً؛ كان أزيزها خفيضاً، لدرجة تجعلك تشعر بألم في رأسك أثناء محاولة اختلاس السمع إليه.

تلفت حولي ورأيت يوديت ومعها الحقيبة، بين مجموعة البيوت الأخيرة في توين روكس، كانت مقبلة باتجاهي. ظلت واقفة على الجهة الأخرى من الشارع، نظرت إلى اليسار وإلى اليمين، ثم عبرت الشارع باتجاهي. كانت تضع وشاحاً على رأسها، ربما لم يكن شعرها قد جف بعد. كان الظلام قد خيم من ورائها بالفعل، كانت قد وجهت المسدس ناحيتي. خطر ببالي: «إنها تأخذني جادة بشأني! إنها جادة بشأني! حقاً، إنها جادة بشأني!» ضغطت على الزناد. كان الصوت خفيضاً جداً، لدرجة أنه لم يُسمع سوى في الخيال فحسب، بحيث لا يريد المرء

Twitter: @ketab_n

تصديقه أصلاً. كنت قد احترقت حتى صرت رماداً، لكن جسدي كان لايزال كاملاً، إلا أنه كان ليتهاوى من أبسط لمسة. كان هذا إذن كل شيء! وفي المقابل بدا لي أنني ولدت! قمت من على حقيبتي بخيبة الأمل وسرت باتجاهها. بوجهين جامدين كوجوه الأصنام المتحجرة اقترب كل منا من الآخر؛ فجأة أدارت وجهها عني وصرخت، بصوت حاد للغاية، حتى تقطعت أنفاسها، مثلما يحدث مع طفل يجعجع. كتمت نفسي، حتى تنتهي هي من صراخها، واضطرت هي لاستكمال الصراخ على الفور، بصوت عالٍ مرة أخرى؛ لكنها بقيت صامتة، كان صوتها قد تحشرج فقط، وأصابها الغثيان، فأخذت المسدس من يدها.

كنا قد وقفنا متجاورين، ثم تقدمنا بالقدم تلو الأخرى، حائرَين يائسين. قذفت بالمسدس في البحر، فسقط على صخرة، خرجت طلقة، هسهست في الماء، فضغطت يوديت على شفتيها بقبضة يدها إلى أسنانها.

سرنا هنا وهناك؛ حين كان أحدنا يتحرك، كان الآخر يظل واقفاً. حل المساء، وجاء باص ـ ضوؤه ساطع ـ يترنح داخل المشهد؛ كان تابعاً لشركة جراي هاون؛ به ركاب قليلون، يسندون رقابهم على الوسادات. لوح السائق لنا. سألته إلى أين هو ذاهب، فقال: «إلى الجنوب». ركبنا، وفي الصباح التالي كنا قد وصلنا بالفعل إلى كاليفورنيا.

كان المخرج السينمائي جون فورد آنذاك يبلغ من العمر ستة وسبعين عاماً، ويعيش في منزله في BEL AIR، ليس بعيداً عن لوس أنجلوس. لم يكن قد قدّم أي أفلام منذ ستة أعوام. كان منزله مبنياً على الطراز الكولونيالي، وكان هو يجلس معظم الوقت أمامه في الشرفة، يبادل

Twitter: @ketab_n

الأصدقاء القدامى الأحاديث. كانت الشرفة تطل على أحد الوديان بالأسفل، حيث كانت بعض أشجار السرو وأشجار البرتقال. كانت هناك مقاعد أرائك من الخوص مخصصة للضيوف، وكانت مصفوفة بجوار بعضها البعض، أمامها مساند صغيرة لوضع الأقدام، عليها أغطية هندية. حين يجلس المرء عليها، لا يلبث يبدأ في سرد حكاية للشخص الجالس بجواره.

كان شعر جون فورد أبيض، ووجهه مليئاً بالتجاعيد، عليه زغب لحية بيضاء. كان يضع عصابة عين سوداء على إحدى عينيه، وينظر إلى الأمام بالعين الأخرى نظرة ضجرة، بين الحين والآخر كان ينتف شعر ذقنه عند اللغد. ارتدى سترة لونها أزرق داكن وسروالاً لونه الكاكي، كان في قدميه حذاء من القماش الفاتح، له كعوب مطاطية سميكة. حين كان يتحدث ـ حتى وإن كان جالساً ـ كان يضع يديه في جيوبه؛ لم تكن تصدر عنه أية إيماءات. بمجرد أن يكون قد انتهى من سرد إحدى القصص، كان يدير رأسه بالكامل إلينا أنا ويوديت، حتى يتمكن من رؤيتنا بتلك العين الواحدة. كان رأسه كبيراً، وكانت ملامحه حادة، لم يكن يبتسم أبداً، كان المرء يتحول لشخص جاد في حضرته، حتى وإن كان عليه أن يضحك على حكاياته. في بعض الأحيان كان يهب واقفاً، ليملأ بنفسه كأس يوديت بالنبيذ الكاليفورني الأحمر. أما أنا فقد سمح لي بأن أصب لنفسي ما شئت من زجاجة البراندي. جاءت من داخل المنزل لاحقاً زوجته ماري فرانسيس، التي كانت أصولها ـ مثله ـ من الساحل الشرقي، من الولاية الشمالية ماين، كما كانت ـ مثله ـ ابنة مهاجر أيرلاندي، وكانت ـ مثلنا ـ تنصت إليه. كنا نشاهد من الشرفة المظللة الضوء ساطعاً في كل مكان خارجها؛ تصاعدت سحب الغيوم من كل اتجاه.

Twitter: @ketab_n

حكى جون فورد: «في قرية والدي في أيرلاندا كانت هناك بقالة واحدة، وهي التي طالما كنت في طفولتي ـ حين أشتري شيئاً ما ـ أحصل منها عوضاً عن بقية النقود على الحلوى، التي تكون موضوعة مسبقاً في دلو بانتظاري. قبل بضعة أسابيع ذهبت ثانيةً إلى هناك، لأول مرة منذ أكثر من خمسين عاماً، وأردت أن أشتري سيجاراً من ذلك المتجر. فماذا حدث؟ مد البائع يده في دلو تحت الخزينة، وأخرج لي ورقة نقدية ومعها بعض الحلوى!»

كرر جون فورد كثيراً مما سمعته خلال رحلتي مع كلير والآخرين عن أمريكا؛ لم تكن آراؤه جديدة، لكنه كان يضيف بعض الحكايات عنها، كما أطلعنا على كيفية التوصل إلى تلك الآراء. كثيراً ما كان يقوم بقفزات ذهنية ـ حين كان يُسأل عن شأن عام ـ ويحكي عن تفاصيل بعينها، لاسيما عن أشخاص بعينهم. عند سؤاله عن أمريكا، كان يظل يتذكر المزيد من الأشخاص، الذين كان قد تعامل معهم. لم يكن يُصدر بشأنهم أية أحكام أبداً، بل كان ينقل فقط حرفياً ما كانوا قد قالوه، وما مر به من تجارب معهم. كما أنه لم يعيّن أسماءً سوى أسماء أولئك الذين كانوا فعلاً أصدقاءَ له. قال جون فورد: «إنه لأمر غير محتمل أن يكون بينك وبين شخص ما عداوة. فجأة يصبح الآخر بلا اسم، مجرد هيكل، يتراجع وجهه إلى الوراء في الظل، ويصير غامضاً، ومشوهاً، ولا يتسنى لنا أن ننظر إليه إلا عابراً، من الأسفل إلى الأعلى، مثل الفأر. الحق أننا نعادي ذواتنا حين تكون عدوّاً لنا. ومع ذلك فقد كانت عدوّاً دائماً لنا».

سألته يوديت: «لماذا تقولون «نحن» بدلاً من «أنا»»؟

فأجاب جون فورد: «نحن الأمريكيين نقول «نحن»، حتى عندما

Twitter: @ketab_n

نتحدث عن أمورنا الخاصة. ربما يرجع ذلك إلى أننا نعدّ كل ما نفعله جزءاً من العمل الجماعي العام. أما الحكايات التي تحكى بصيغة المتكلم فهي موجودة فقط، حيث ينوب الواحد عن الكل. أما في بلادكم فحتى البائعات اللاتي لا تفعلن أكثر من بيع الأشياء، التي لا يمتلكنها أصلاً، تقلن: «لقد نفد من»*عندي*«هذا *وذاك* لتوه!»أوإن *«عندي»* هناأيضاً هذا القميص ذو الياقة القوزاقية!» هذا ما حدث لي أنا نفسي هناك، لقد شهدت ذلك حقاً. من جهة أخرى فإنكم تقلدون بعضكم في كثير من الأشياء، وتختبئون باقتدار وراء بعضكم، حتى أن الخادمة ترد على الهاتف منتحلة صوت سيدة المنزل. إنكم دائماً ما تقولون «أنا»، وتشعرون مع ذلك بالفخر حين يتم الخلط بينكم وبين شخص آخر. ثم تريدون رغم ذلك أن تصيروا متفردين. لذلك فإنكم تتجهمون طوال الوقت، وتشعرون بالإهانة، فكلّ واحد منكم هو شيء متفرد بحد ذاته. هنا في أمريكا لا يوجد تجهّم، ولا أحد ينكب على ذاته. إننا لا نجد ذواتنا في أن نعيش وحيدين؛ بل إننا ننظر باحتقار لمن يبقى وحيداً، يستكين إلى نفسه، وساعتها ـ حين لا يعود المرء يتحدث سوى مع نفسه فحسب ـ فإنه أيضاً لا يلبث أن يتوقف بعد الكلمة الأولى عن الحديث».

سألت يوديت: «هل تحلمون كثيراً؟»

فقال جون فورد: «نكاد لم نعد نحلم. وإن حدث فإننا ننسى الحلم. نحن نتحدث عن كل شيء. هكذا لا يتبقى شيئاً للأحلام».

قالت يوديت: «فلتحك لنا عن نفسك».

أجاب جون فورد: «كلما يكون علي أن أتحدث عن نفسي، يبدو لي أن الوقت لايزال مبكراً لكي أفعل ذلك. لم تكن تجاربي قد مضت

Twitter: @ketab_n

منذ زمن كافٍ بعد. لذلك أفضل الحديث عن تجارب الآخرين الذين عاشوا قبلي. كذلك فقد كنت أفضل إخراج الأفلام التي تدور أحداثها في زمن يسبق زماني. فأنا لا أكاد أشعر بالحنين لتجاربي إلا نادراً، لكن لدي مشاعر حنين متزايدة تجاه الأشياء التي لم يكن بوسعي تحقيقها أبداً، والأماكن التي لم أتواجد بها قط. في طفولتي كنت قد تعرضت للضرب من عصابة من الأطفال المهاجرين ـ رغم أننا كنا جميعاً كاثوليكيين! واحد منهم ـ وكان بديناً ـ تصرف معي بمنتهي الخسة، إذ بصق عليّ ودهسني بقدمه فحسب، دون أن يحرك حتى يديه. بعد ساعة رأيته نازلاً إلى الشارع وحده من دون الآخرين، كان شديد البدانة، قدماه مفرطحتان، وقد بدا لي فجأة وحيداً بشكل غير محتمل، شعرت برغبة في أن أعامله بلطف وأن أواسيه. وقد صرنا بالفعل أصدقاء!» فكر قليلاً، وقال بعد برهة: «كنت آنذاك أرتدي السراويل القصيرة!»

نظر إلى الوادي بالأسفل، حيث كانت آخر أشعة شمس لا تزال تتخلل أوراق شجر البرتقال. قال: «حين أرى الأوراق تتحرك هكذا، وأشعة الشمس تتخللها، يراودني شعور بأنها تتحرك هكذا منذ الأزل. إنه فعلاً شعور بالخلود، كما أنني أنسى تماماً أثناء ذلك، أن هناك تاريخاً أصلاً. لعلكم قد تسمون ذلك شعوراً من العصور الوسطى، أو حالة كانت الطبيعة فيها هي كل شيء».

فقالت يوديت: «لكن أشجار البرتقال تلك قد تم زرعها، أي أنها ليست من الطبيعة».

قال جون فورد: «عندما تتخللها أشعة الشمس وتداعب أوراقها، أنسى ذلك. بل إنني أنسى نفسي ووجودي. ساعتها تنتابني رغبة في ألا

Twitter: @ketab_n

يتغير أي شيء، وأن تظل الأوراق تتحرك، وألا يتم قطف ثمار البرتقال، وأن يبقى كل شيء في العموم على ما هو عليه».

سألت يوديت: «وهل تودّ كذلك أن يظل البشر يعيشون كما كانوا منذ قديم الأزل؟»

نظر جون فورد إليها نظرة بائسة، وقال: «أجل، هذا ما نريده. لقد عُني الناس لغاية قبل قرن مضى بالتقدم، أولئك الذين كانوا يملكون السلطة لتحقيقه فعلاً: منذ العصر الحديث وحتى وقت قريب كانت التعاليم الدينية تخرج من قلب الطبقة الحاكمة: من الأمراء، وأصحاب المصانع، *والصالحين*. أما الآن فلم يعد أصحاب السلطة صالحين في تعاملهم مع البشرية، وإن كانوا يتصرفون على أقصى تقدير كالصالحين بصفة فردية، ولم يكن أحد يفكر في شيء جديد، غير الفقراء والمحرومين والضعفاء. أما أولئك الذين يملكون وحدهم إحداث أي تغيير، فلم يعودوا يبالون بالأمر، ولذلك لابد أن يبقى كل شيء كما كان قديماً».

سألت يوديت: «هل تريدون ذلك؟»

فقال جول فورد: «أنا لا أريد ذلك، لكن هذا هو بالفعل ما يدور برأسي، حين أنظر إلى أسفل هكذا».

خرجت مدبرة المنزل التي كانت من الهنود الحمر، متكئة على عصا، بسطت بطانية على ركبتيه. قال جون فورد: «لقد أدت بعض الأدوار في أفلامي. كانت تريد أن تصبح ممثلة حقيقية، لكنها لا تستطيع الكلام، فهي خرساء. لذلك فقد عملت مؤدية حركات راقصة على الحبل. ثم سقطت بعد ذلك، فعادت إليّ مرة أخرى».

قال: «كانت تشعر بالراحة على الحبل. كان يُخيّل لها أنها فجأة

Twitter: @ketab_n

تستطيع الكلام. وهي حتى الآن لا تزال تخطو على الأرض كأنها على حبل».

قال جون فورد: «هناك بالفعل وضعيات بعينها يحس خلالها المرء أنه على طبيعته، فيقول لنفسه: أجل، هذا هو أنا حقاً! وللأسف، عادة ما يكون المرء وحيداً حين ينجح في ذلك. ثم يحاول على الفور أن يكرر الأمر في صحبة جماعة، لكنه يضيع من نفسه أثناء ذلك مرة أخرى، فيثبت نفسه في وضعية ما. هذه هي التعاسة بعينها. شيء مضحك. يودّ المرء أن يتفاجأ من تأملاته، وليس من ميزاته الشخصية. فالمرء يقول الحقيقة مرة ثم يُفزع هو نفسه منها. إن الشعور بالسعادة كبير جداً لدرجة أن المرء لا يستطيع تحمله وحده، فيرغب في قول الحقيقة على الفور، ثم يكذب طبعاً. أنا شخصياً مازلت أكذب حتى اليوم. لقد كنت لتوي أعرف ما أريد، وها قد نسيته الآن. إنني لا أشعر بالسعادة، سوى حين أكون على علم تام بما أريد. ساعتها أظن أنني فقدت كل أسناني من فرط السعادة».

اصطحبنا إلى غرفته، وأرانا كومة النصوص السينمائية التي كانت لاتزال ترسل إليه. «إن بينها قصصاً جميلة، بسيطة وواضحة. فالمرء يحتاج لمثل هذه القصص». كانت زوجته تقف خلفنا على الباب؛ التفتَ إليها، فابتسمت. أحضرت له مدبرة المنزل القهوة في فنجان معدني، شربها مرفوع الرأس، برزت بعض خصل الشعر البيضاء من أذنيه، وارتكز باليد الأخرى على خصره. اقتربت زوجته وأشارت إلى الصور التي كانت على الحائط: في إحداها ظهر جون فورد أثناء تصويره لأحد الأفلام، جالساً على كرسي المخرج متقاطع الجوانب، كان على وجهه غطاء للوقاية من لدغ النحل، بينما كان بعض الناس واقفين أو جالسين بجواره، مدججين هم أيضاً بالواقيات نفسها، وقد جلس عند قدميه

Twitter: @ketab_n

كلب بأذنين مقلوبتين؛ في الصورة الأخرى كان قد انتهى لتوه من تصوير أحد أفلامه، ركع على ركبة واحدة، أمسك بحامل الكاميرا، فتجمع الممثلون في دائرة حوله، مائلين برؤوسهم نحوه، بينما وضع واحد منهم يده على الكاميرا، كأنه يدللها. قال جون فورد: «في ذلك اليوم تم تصوير فيلم «The Iron Horse». كانت هناك ممثلة شابة تعمل معنا، وكانت تبكي طوال الوقت. وكانت كلما توقفت عن البكاء، لا تلبث بعد أن يمسحوا لها دموعها ـ فتتذكر همومها أثناء ذلك ـ تبدأ في البكاء من جديد».

نظر خارج النافذة، وقد تتبعنا نحن نظراته: كانت هناك هضبة، كانت مكسوة بالحشائش والشجيرات؛ رأينا مساراً مؤدياً إلى طرق متعرجة حول الهضبة صعوداً إلى القمة. قال جون فورد: «في أمريكا لا توجد طرق، بل توجد فقط شوارع. لقد أنشأت هذا الطريق لأنني أحب أن أتجول وسط الهواء النقي». كان على سريره لحاف، عليه علامة القوات البحرية، وفوقه على الحائط عُلّقت صورة «الأم برنيني»، أول قديسة أمريكية، إذ كان هو في وقت ما يريد أن يصنع فيلماً عنها.

جلست زوجته ماسكتة بآلة الأكورديون التي كانت في الغرفة، وعزفت مقطوعة «Greensleeves». أحضرت الهندية الحمراء صينية عليها بعض شرائح خبز الذرة، مدهونة بطبقة من الزبدة المذابة. ظللنا نأكل وننظر خارج النافذة. قال جون فورد فجأة: «تظهر لنا الآن بعض آذان الخنازير من خلال الفراء. أتريدان مرافقتي لبعض الوقت؟»

مد ذراعه إلى يوديت، فصعدنا معه إلى أعلى الهضبة. كان الطريق مغطى ببعض الغبار الشاحب، سقطت بعض قطرات المطر، وحيثما كانت تسقط، كان الغبار ينكمش على شكل كرات صغيرة. حكى جون

Twitter: @ketab_n

فورد؛ أنه إذا كان أحدنا ليتخلّف فإنه سوف يتوقف برهة، لأنه لا يريد أن يتحدث عنا بما يسيء إلينا. فقد كان يتحدث عن أفلامه ويقول باستمرار أن القصص التي كانت تدور فيها هي قصص حقيقية من واقع الحياة. قال: «لا شيء فيها من نسج الخيال. كل شيء حدث في الواقع بالفعل».

جلسنا على قمة الهضبة بين الحشائش ورحنا ننظر إلى الوادي من تحتنا. أشعل لنفسه سيجاراً بعود كبريت طويل من الذي يستخدم في المطبخ. قال جون فورد: «أحب دائماً أن أكون بصحبة جماعة. كما أنني دائماً أحب أن أكون آخر من يترك الجماعة، لأنني لا أريد أن يقوم أيٌّ من المتبقين بعدي بإصدار الأحكام بشأني، وكذلك لأنني كنت أريد منع إصدار الأحكام بشأن شخص آخر بعد أن يرحل. لذلك أيضاً صنعت أفلامي».

على الهضاب المقابلة كانت السماء ترعد بالفعل. كانت الحشائش من حولنا مرتفعة، كانت الريح تعبر بظلال شاحبة تارة، وداكنة تارة أخرى. أخذت أوراق الشجر تلف في دوائر، وترفّ كأنها ذابلة.

كانت الريح قد هدأت قليلاً. ثم جاء حفيف بعض الشجيرات من خلفنا، بينما بقيت كل الشجيرات الأخرى ساكنة تماماً. سكنت الريح التي كانت بين الشجيرات، ثم بعد لحظة اجتاحت إكليل شجرة بالأسفل بجوار البيت. بعدها صار كل شيء ساكناً بلا حركة: استمر هدوء الرياح طويلاً؛ وفجأة خر العشب ثانيةً تحت أقدامنا. في غمضة عين كان الغيم قد خيم علينا، وصارت كل الأشياء متكاثفة على مقربة من الأرض. صار الهواء ضاغطاً. انفجر أمامنا عنكبوت أصفر، كان لتوه مستقراً على ورقة شجرة صغيرة. غسل جون فورد أصابعه بالحشائش، أدار أثناء ذلك

Twitter: @ketab_n

خاتماً ذا ختم مميز، كأنما أراد أن يسحر شيئاً ما. شعرت بدغدغة على ظهر يدي. نظرت فوجدت فراشة، كانت لتوها تطوي جناحيها؛ خفضت يوديت جفنيها بالتزامن مع ذلك. لم يحتج المرء سوى لنفس واحد أقل لكي يرى ذلك. سُمع هدير المطر بالفعل بين أشجار البرتقال في الوادي بالأسفل. قال جون فورد: «كنا في الأسبوع الماضي قد سافرنا عبر الصحراء. جنوبا في أريزونا. كان الندى كثيفاً جدا، لدرجة أن كان علينا أن نستخدم مساحات زجاج السيارة. DOWN IN ARIZONA: جعلتني هذه الكلمات أبدأ في التذكر. جلس جون فورد منكبّا على نفسه، مغمض العينين. ولأننا كنا ننتظر قصة، فقد انحنينا قليلاً باتجاهه، وقد أدركت أنني كنت أكرر الحركة نفسها التي قام بها شخص ما في أحد أفلامه ـ من دون أن يبرح مكانه ـ إذ انحنى مادا عنقه إلى شخص محتضر، لكي يتأكد إن كان لايزال على قيد الحياة».

قال جون فورد: «والآن قصّا عليّ حكايتكما!»

فحكت يوديت كيف جئنا إلى أمريكا، وكيف قامت بملاحقتي، وكيف سلبتني أموالي، وكانت تريد قتلي، وكيف صرنا في نهاية الأمر مستعدَّين للانفصال بهدوء. وعندما انتهت من من قصتنا، ضحك جون فورد ضحكة هادئة، ارتسمت على وجهه كاملاً.

«Ach Gott»! (يا إلهي) ـ قالها بالألمانية.

ارتسمت على وجهه ملامح الجد والتفت إلى يوديت.

قال: «هل هذا كله حقيقي؟ ليس في القصة شيء مختلق؟»

قالت يوديت: «نعم، حدث ذلك كله».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفهرس

I ـ الرسالة القصيرة ٧
II ـ الوداع الطويل ١٠١

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

جلست في حوض الاستحمام وقرأت: «جاستبي العظيم» ـ للروائي «ف. سكوت فيتسجيرالد» ـ حتى النهاية. كانت قصة غرامية، إذ اشترى رجل بيتاً على الخليج، فقط لكي يرى الأنوار تضاء كل مساء حيث تعيش السيدة التي يحبها مع رجل آخر في بيت آخر على الناحية الأخرى من الخليج. بقدر ما كان جاتسبي العظيم مأخوذاً بمشاعره، بقدر ما كان مع ذلك خجولاً؛ بينما كانت السيدة، كلما صار حبها أقل عفة وأكثر إلحاحاً، تتصرف بجبن أكثر.

ISBN 978-9933351656